عدد خاص

مجلة
إسلامية
شهرية
جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة السابعة والعشرون . العدد ٢٩٤ . صفر ١٤٣٣ هـ . يناير ٢٠١٢ م

المشروع الإسلامي... والفرصة التاريخية

٢٠١٢... والخريف الأمريكي

(بابا عمرو)
قلب الثورة السورية النابض

الربيع العربي
وتحديات الإعلام الإسلامي الجديد

أعاصير الثورات

مجلة البيان

صدر حديثاً

جديد ..

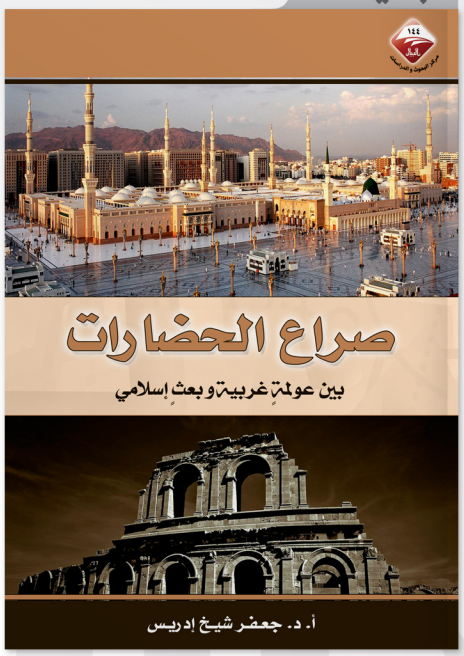

جديد ..

جديد ..

جديد ..

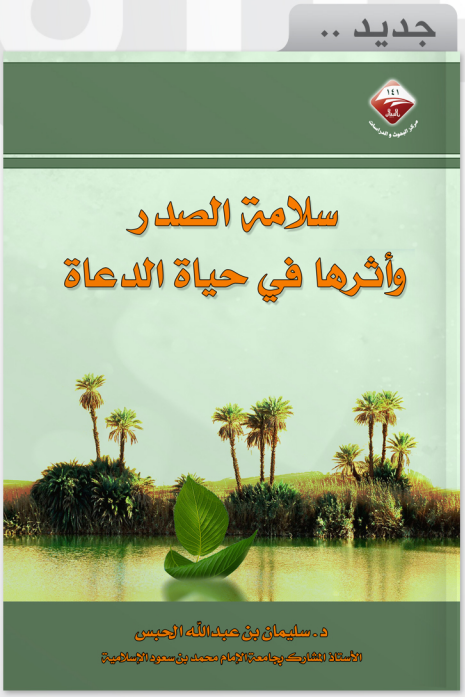

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

مستشفى أبها الخاص
Abha Private Hospital

http://www

الآن...
موقعنا الإلكتروني
في ثوبه الجديد

www.aph.med.sa

- ☑ الحجز
- ☑ الأطباء
- ☑ التخصصات الطبية
- ☑ الاتصال ....

كلها الآن على موقعنا الإلكتروني

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
الهاتف المجاني: ٩٢٠٠٠٤٥٤٨
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
خدمة العملاء مباشـــر: ٢٢٥١٩٦٧

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

المـوزعـــون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطـر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ – ٤٥٥٧٨١١ – ٤٥٥٧٨١٢ – فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغـرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمـن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجـامعة القـديمة، هـــاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥
تونس: الشركة التونسـية للصحـافة، ت ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٤٩٩ – فاكس: ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٠٠٤

رئيس التحرير
أحمـد بـن عبـد الرحمـن الصـويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عـبد الله بن سـليمان الفـراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العـزيز العـامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوســف بن صـالح الصـغير
فهـد بـن صـالح العـجلان
د. أحمـد بـن عـبد المحسـن العسـاف
فيصـل بـن علـي أحمـد الكـاملي

سكرتير التحرير
إســلام السيــد علــي

الإخراج الفني
مـحـمـد سـالـم لـرضـي

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan.co.uk

الـحسابات

السـعـوديـة: مـصـرف الـراجـحـي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بـريـطـانـيـا وايـرلـنـدا	٤٧	يـــورو
أوروبـــــــا	٥٥	يـــورو
الـبـلاد الـعـربـيـة وإفـريـقـيـا	٤٥	يـــورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يـــورو
الـمـؤسـسـات الـرسـمـيـة	٦٠	يـــورو

الافتتاحية

٤ **المـشـروع الإسـلامـي... والـفـرصـة الـتـاريـخـيـة**
التحرير

العقيدة والشريعة

٨ **الـطـغـاة والـطـغـيـان فـي الـقـرآن الـكـريـم**
خالد رمضان عثمان أحمد
١٤ **أسـالـيـب الـطـغـاة فـي مـواجـهـة الـدعـوة**
د. محمد بن عبد العزيز المسند
١٨ **الـنـوازل الـفـقـهـيـة فـي الـثـورات الـعـربـيـة**
د. عطية عدلان

السياسة الشرعية

٢٤ **سـيـاسـة عـلـى مـنـهـاج الـنـبـوة**
أنور بن قاسم الخضري

الغرب: قراءة عقدية

٣٤ **2012... والـخـريـف الأمـريـكـي**
فيصل بن علي الكاملي

قضايا دعوية

٣٦ **المطلوب من العلماء والدعاة بعد الثورة**
د. هشام عقدة
٤٢ **حدود التعاون المشروع بين الأطياف أو الأحزاب المختلفة داخل البلد الواحد**
هشام برغش

معركة النص

٤٦ **الربيع العربي... إلى (الأسلمة)... أم (اللبرلة)؟!**
فهد بن صالح العجلان

عاجل إلى الإسلاميين

٤٩ **ثلاثية القوة للحزب الإسلامي**
أحمد فهمي

نص شعري

٥٢ **بشائر الربيع العربي**
أ. أحمد أبو شاور ـ الأردن

حوارات

٥٤ حوار مع الدكتور جعفر عبد السلام
أجرى الحوار: جلال الشايب، وجمال سالم:

المسلمون والعالم

٦٠ السلفيون وآفاق المشاركة السياسية (حالة مصر)
د. كمال السعيد حبيب

٦٨ موقف الغرب من الثورات العربية... رؤية سياسية
محمد سليمان الزواوي

٧٣ انعكاسات الثورات العربية على الوضع في العراق
حارث الأزدي

٧٨ مشروع التغيير في اليمن بين الحكمة اليمانية وحماس الشباب
الخضر عبد الملك الشيباني

٨٤ سورية... بشار والجماهير
د. بشير زين العابدين

٨٨ (بابا عمرو) قلب الثورة السورية النابض
محمد الملحم

٩٣ مرصد الأحداث
جلال سعد الشايب

عين على العدو

٩٨ الاستخبارات الصهيونية: «أيام سوداء» عقب فوز الإسلاميين في مصر
د. عدنان أبو عامر

إعلام

١٠٠ الربيع العربي وتحديات الإعلام الإسلامي الجديد
جمال سلطان

تقرير

١٠٤ ثوار على أبواب فلسطين
أحمد أبو دقة

أدب

١٠٧ الأدب والتغيير
أ. د. وليد قصّاب

بأقلامهن

١١٠ دور الأنظمة السابقة في إفساد المجتمعات
مهندسة كاميليا حلمي محمد

الورقة الأخيرة

١١١ النُّخبة المثقفة والخيار الصَّعب
د. أحمد بن عبد المحسن العسَّاف

[كلمة صغيرة]

عربستان

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد:

حزب النهضة التونسي يتقدم في الانتخابات!

حزب العدالة والتنمية المغربي يحقق نتائج غير مسبوقة ويتولى أمينه العام رئاسة الوزراء!

حزبَي الحرية والعدالة والنور في مصر يكتسحان الانتخابات المصرية ويتجاوزان جميع الأحزاب الليبرالية العريقة!

يا الله! هل ستتحول البلاد العربية إلى عربستان جديدة تُحكَم بعقلية القرون الوسطى، ونسقط في بحر التخلف؟

هكذا هو المشهد العربي كما يرسمه الإعلام الليبرالي، حالة من الفزع والقلق أفقدت الليبراليين توازنهم الفكري والأخلاقي؛ فالأحزاب العَلمانية التي كانت تبشر بالديمقراطية وتدعوا إلى الاحتكام على صناديق الاقتراع، ها هي ذي تدعو إلى حماية الديمقراطية من الإسلاميين لأن الشعوب العربية ليست ناضجة بدرجة كافية، ولا تستطيع أن تحدد خياراتها بوعي!

لقد كشفت الانتخابات العربية عن معركة ثقافية وفكرية تلبس لبوس السياسة، اصطفت فيها الأحزاب الليبرالية واليسارية والأقباط في صف واحد لمواجهة (الإسلام الظلامي)، واللافت للنظر أنَّ السفارة الأمريكية في القاهرة تجاوزت الأعراف الدبلوماسية ودعت صراحة من تسميتهم بأصدقاء أمريكا لمواجهة تداعيات تصدُّر الإسلاميين للمشهد السياسي! وليس لهذا تفسير إلا قول المولى – جلَّ وعلا –: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢].

وإليكم أمثلة من مناحات بعض الليبراليين في مصر:

كتب أحدهم في جريدة الأخبار: (ينتظر الأدبَ والفنَّ وروحَ مصر وحضارةَ مصر وتاريخَ مصر وآثارَ مصر فترةُ ظلام لا يعرف إلا الله مداها)، وكتب آخر في الجمهورية المصرية: (إذا تركنا الأمور مُائعة فسيصبح الوطن ريشة في مهب الريح؛ سنرى مهازل ومساخر، سنرى حكومات تتساقط كورق الخريف من أجل فيلم رأى البرلمان أنه إباحي، ومن أجل لوحة تشكيلية رأى أنها بورنو، ومن أجل كتاب أو رواية قليلة الأدب، ومن أجل نقاب أو حجاب أو حفل راقص، وقرارات بإلغاء اتفاقيات وطرد سفراء. لقد كانوا يقيمون الدنيا ويقعدونها من أجل ذلك كله وهم خارج البرلمان وخارج المنظومة السياسية كلها؛ فماذا سيفعلون وهم أغلبية برلمانية؟ بالتأكيد سيُقعدون الوطن ولا يقيمونه أبداً).

ويزداد الفزع خصوصاً من السلفيين؛ فأحد مفكري مصر يكتب في موقع قنطرة الألماني قائلاً: (خصيصة أخرى في الشأن المصري هي البزوغ اللافت لقوى التيار السلفي، هذه القوى التي لا تحترم التعدُّد أو أبسط قواعد السياسة من تقبُّل للآخر، والتي هي نتاج للتربية الأمنية لعصر مبارك؛ حيث درَّبها على استهداف خصومه، ستدخل البرلمان بعاصفة من الأفكار القمعية والاستعبادية، وهي حالياً تلقى التدليل من المجلس العسكري وكلِّ المسيسين، وهم كما عبروا جهاراً نهاراً سيحرقون الأخضر واليابس لو لم يحققوا رؤاهم الظلامية ضد المجتمع، هؤلاء هم الخطر الأكبر بين قوى الإسلام السياسي).

إن تتبُّع هذا المناحات التي تضج بها وسائل الإعلام العربية ستجعلنا نقف أمام ظاهرة صوتية مكلومة لا تجيد إلا فنون التحريض والإقصاء.

إن البلاد العربية مقبلة على مرحلة إستراتيجية لها أثر عميق في تغيير البنية السياسية والفكرية التي جعلت من بعض دولنا دولاً فاشلة تتراجع إلى ذيل القائمة. وقد آن الأوان أن يدرك الإسلاميون أن معركتهم الحقيقية ليست معركة انتخابية، بل إنَّ مسؤوليتهم الحقيقية إنما هي في تجديد الهوية واستنقاذ البلاد من التخلف والتردِّي، ثم إعادة البناء والانطلاق نحو النمو والازدهار الفكري والحضاري والتقني والاقتصادي.

المشروع الإسلامي... والفرصة التاريخية

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وبعد:

فمن المعلوم من سنن الله - تعالى - في الأنفس والآفاق، أن الله - تعالى - إذا أراد شيئاً يسَّر أسبابه، تسريعاً لموجباته وتعطيلاً لموقفاته، كما قال - سبحانه -: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١] والتاريخ أعطى ولا يزال أمثلة واضحة على ذلك؛ فمثلاً:

■ عندما أراد الله - تعالى - لأمة العرب المنسية قبل عصر النبوة المحمدية أن تتهيأ لدور قيادي ريادي على مستوى العالم، أخضع القوتين العُظمَيَين آنذاك (الفرس والروم) إلى سلسلة من أحداث التدافع والصراع والحروب في ما بينهما، لينتهي ذلك إلى إنهاك كلٍّ منهما للأخرى، في مرحلة من التراجع سجلها القرآن الكريم في أول سورة الروم: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٢ - ٤]، وقد كان مخبوءاً في القدر أن كياناً مغموراً في قلب الجزيرة العربية سوف يسطع نجمه في ظروف سنوات قلائل قادمة؛ ليرث إمبراطورية فارس، ويقلِّص أمجاد إمبراطورية الروم، وكان حدثاً مبهراً أن يتزامن الفصل الأخير من صراع القطبين الأعظمين، مع الفصل الأول من سلسلة انتصارات المسلمين بدءاً من يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان في بدر.

■ ولما تضعضع أمر المسلمين في زمان الحملات الصليبية وسقطت بلاد الشام بأيدي النصارى، وأراد الله بعدها أن يكسر هذه الموجة العدوانية، هيأ لها من الأسباب ما يجعل كيانات أوروبا تتخالف في ما بينها بعد تحالفها، وفي الوقت نفسه تشتد عزيمة المسلمين على الثأر بسبب حماقات بعض القادة الصليبيين كالبارون (أرناط)، ليستغل صلاح الدين الظرف ويضرب ضربة الفتح المبين في معركة حطين سنة ٥٨٣هـ - ١١٨٧م.

■ وكذلك لما استحكمت نكبة اجتياح الشرق الإسلامي من قِبَل القبائل الهمجية التتارية وأراد الله - تعالى - أن يكتب النجاة منها، ساق الأقدار لذلك؛ حيث تمادى التتار في الغرور، وعزم قائدهم (هولاكو) على غزو مصر بعد الشام، فألقى الله في قلب سيف الدين قطز نخوة وعزة وشجاعة. فعزم على غزوهم في الشام قبل أن يغزو مصر، فتحقق وعد الله بالنصر كما بشَّر العز بن عبد السلام رحمه الله، وكانت الهزيمة المنكرة للمغول في عين جالوت بفلسطين عام ٦٨٥هـ - ١٢٦٠م.

■ وفي العصر الحديث، بعد ما تواصل احتلال الدول الأوروبية النصرانية لبلدان عربية عديدة لعقود متتابعة في كلٍّ من مصر والسودان وليبيا والجزائر وتونس في الشطر الغربي من بلاد العرب، إضافة إلى كل من سورية والعراق واليمن وإمارات الخليج في الشطر الشرقي منه، شاء الله - تعالى - بعد هذا الظلم الطويل أن يُجلِي تلك الجيوش الكافرة، فتوالت حركات الاستقلال العربية بعد فترة متواصلة من الانتفاضات والثورات ضد المستعمر أجبرته على الرحيل.

■ لكن العالَم العربي بعد الثورات - التي كانت بداياتُ معظمها إسلامية - دخل مرحلةً من فقدان الهوية بعد أن سرقت أنظمةٌ عَلمانية محلية الحكم بعد رحيل الجيوش الاستعمارية الأجنبية؛ حيث فاقت تلك الأنظمة المحلية المستبدة (في ظلمها وظلامها) ما كانت الدول الاستعمارية الأوروبية تقوم به من فساد وإفساد، وانتهاك للآدمية وقهر للحرية؛ لقد أراد الله أن تفقد كلُّ تلك الأفكار والنظريات - التي حكم بها العَلمانيون - أرصدتها الجماهيرية.

وإن إرادة الله كانت ماضية في أن تظل هذه الأمة على خيريتها، فلم تفلح جهود التنكيل والتكبيل أن توقف مدَّ الدعوة الإسلامية السلمية؛ حيث كانت الاتجاهات الإسلامية بجميع فصائلها تتحايل للوصول إلى الناس، وإيصال الدعوة إليهم بالمستطاع من القول والفعل؛ وكأن العقل الجمعي لجميع تلك الجماعات كان يتهيأ لمرحلة تحتاج الأمة فيها للانتفاض لتحقيق إرادتها في العيش بكرامة وحرية تحت المظلة الإسلامية.

كانت جميع سبل المشاركة السياسية مغلقة أمام الإسلاميين، في الوقت الذي سُمِح فيه لكل الاتجاهات العَلمانية - بما فيها الشيوعية الماركسية - أن تُنشِئ أحزاباً وجمعيات، وتشارك بصورة أو أخرى في إدارة البلاد، حتى الأقليات غير الإسلامية كان لها من الفُرَص في الأداء السياسي والاقتصادي والإعلامي، ما لم يكن لمجموع الاتجاهات الإسلامية التي تمثل الأغلبية.

لكن أمراً ربما فات هؤلاء العَلمانيين المتسلطين، بل ربما فات الإسلاميين أنفسهم، وهو أن دعاة الإسلام كانوا يمارسون

عملاً من صميم الفعل السياسي في صمت وخفاء، لم يفطن أعداؤهم إلى خطورته، هذا الفعل هو: (صناعة الأنصار) التي تُعَد العمود الأكبر في أي عمل سياسي. لقد تضافرت جهود الدعوة - على ضعفها وتواضعها في مرحلة الاستضعاف - في أن تحشد الأنصار بالملايين في سكون، وتربي العناصر بالآلاف في هدوء، وتصنع القيادات بالمئات في حركة شبه عفوية، حتى دنت لحظات القدر المخبوء.

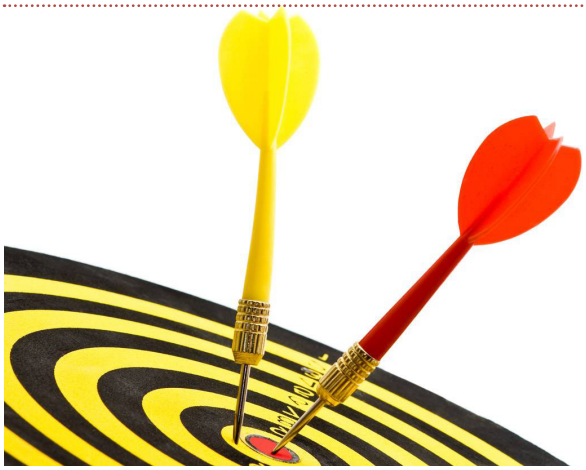

المشروع الإسلامي... واقتناص اللحظة:

سارت الأمور بتقدير الله - مثلما رأى الجميع - لتنقلب الأوضاع في العديد من بلدان المنطقة رأساً على عقب، ليعلو صوت الإسلام مع هدير الجماهير التي ربما كانت بدايات ثورتها لدنياها، فأبى الله إلا أن يتحول مجراها لتكون لدينها. إن (المشروع الإسلامي) كان الحاضرَ الغائبَ طوال عقود عديدة خلت؛ فكل الاتجاهات الإسلامية كانت تعمل بوسائل مختلفة لأجل العودة إلى الحياة الإسلامية التي اختُصِرَت في عبارة (المشروع الإسلامي)؛ هذا المشروع الذي ربما لم تكتمل معالمه الواقعية والفكرية حتى عند أكثر المتحدثين عنه، بل ربما لم يكن له كبير اهتمام عند قطاعات أخرى من الإسلاميين؛ لا لتخليهم عنه، ولكن لاستطالتهم المسافة إليه؛ فقد كان القهر العَلماني محبطاً إلى حدٍّ جعل الإسلاميين - وغير الإسلاميين - يظنون أن عهد التغيير بعيد المنال لا تزال دونه أجيال وأجيال.

لقد تطورت الأمور بسرعة لدرجة أن الإسلاميين وجدوا أنفسهم - على غير سابق انتظار - في واجهة المشهد، ثم في صدارة الحدث، ثم في قمة المسؤولية... كيف حدث هذا؟ ومتى حدث؟

عام واحد مضى منذ بدء الثورات، لكن تغييراته اختصرت عقوداً في شهور، ليصل الإسلاميون إلى واقع جديد لم يكن لهم به عهد، ولم يسبق لهم لأجله كبير استعداد.

لسنا الآن بصدد الحديث عن مكونات المشروع الإسلامي والمعالم الواجب استمرارها واستقرارها فيه، فذلك أمر سبق للمجلة أن تناولته في أعداد سابقة[1]؛ ولكن المقصود ما يخص المرحلة، من أمور يجدر بالقائمين على أمر العمل الإسلامي ألا تغيب عنهم في زحمة الانشغال بالمنافسة، والانهماك في خطوات البناء، لعل من أهمها:

(١) انظر - مثلاً - مقال: (المشروع الإسلامي... رؤية سلفية). في عدد (٢٥٠) من المجلة شهر جمادى الآخرة لعام (١٤٢٩هـ) الموافق شهر يونيو لعام (٢٠٠٨م).

أولاً: أن ما حصل للإسلاميين من فوز ساحق في الانتخابات في عدد من البلدان العربية، يُعَد نوعاً من النصر وشكلاً من التمكين. صحيح أنه لم تتضح آثاره ومعالمه بَعْد، ولكنه على كل حال نقلة كبيرة من التوفيق، اعترف بها الأعداء قبل الأصدقاء. إن التمكين منَّة إلهية، وإسقاط الطغيان نعمة ربانية، والله - تعالى - يريد ممن يشهدون نعمه أن يذكروها فيشكروها: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥ - ٦]. والشكر يجمِّله ويكمِّله العمل: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

ثانياً: مع أن التمكين تكريم وتشريف، لكنه قبل ذلك اختبار وتكليف؛ فهو نوع استخلاف له مسؤوليات وعليه تبعات، كما قال - تعالى -: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، ولعل أبرز تلك المسؤوليات والتبعات: تصديقُ القولِ العملَ، وتطابُق الممارسات مع الشعارات، ولا شك في أن أحكام الشريعة هي محتوى أي مشروع إسلامي، وقد أظهرت الأحداث أن إقامتها وتحكيمها هي أمل جمهور الأمة، ومع أن التطبيق العملي قد يحتاج في بعض أوجهه إلى تدرُّج وتمهيد بحسب قواعد السياسة الشرعية، لكن ما لا يحتمل تأجيلاً أو تسويفاً أو تساهلاً، هو حماية جناب هذا التشريع الإلهي، من أن يعود ألعوبة في أيدي العابثين باسم (اللعبة) الديمقراطية، التي تشترط رضا العبيد عن شرع رب العباد؛ فواجب الوقت إعادة الاعتبار للتحاكم القلبي للشريعة، الذي يسبق الحكم العملي بها في الأهمية، وهذا واجب المشتغلين بالدعوة، قبل المشتغلين بالسياسة.

ثالثاً: البناء، ثم البناء، ثم البناء، هو مطلب الوقت: البناء الاعتقادي، والبناء التشريعي، والبناء الاقتصادي، والبناء التربوي، والبناء التعليمي، والبناء الإعلامي، وحتى البناء

العسكري... والبناء أصعب كثيراً من الهدم، لكنه أهم في البدء وأسرع للعطاء، والبناء في أرض جديدة ممهدة أسهل من البناء على أطلال مهدمة مهددة، وقد يراد استدراج أصحاب المشروع الإسلامي لهدم صروح الباطل أولاً، ولكن الفطنة تدعوهم للبدء بالبناء. وضرورة البدء به تفرض لكل فرد من المسلمين دوراً، أيّاً كان مكانه أو مكانته؛ ولهذا لا ينبغي أبداً أن يُختصر المشروع الإسلامي أو يُبتسر في أشخاص أو وأحزاب أو جماعات؛ فهو مشروع نهضة ينبغي أن يتضافر الجميع لانجاحه، حتى من خارج بلاد الثورات، حتى لا تضيع الفرصة التاريخية.

رابعاً: (النموذج الناجح)؟ هذا سؤال المرحلة الذي يسأله الجميع ويتساءل عنه ويُساءل به. وكثير من الناشطين الإسلاميين يبحثون عن (النموذج الناجح) ليتأسَّوا به، ويستنسخوا تجربته. لكن ينبغي أن يقال لهؤلاء: (كونوا أنتم النموذج الناجح) في بلدكم في بيئتكم تبعاً لظروفكم وإمكاناتكم، ومعكم مواد البناء ومَدد السماء، في هذا الدستور الجامع: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

خامساً: (في المشروع الإسلامي) ثوابت وضوابط وأصول، لا ينبغي تخطيها أو تجاهلها؛ فمن تحدث باسم نفسه، فَلْيتحدث بما شاء وحسابه على الله. أما إذا كان يتحدث باسم الإسلام، أو ظن الناس أنه يمثل الإسلام، فلا يحل له أن يتحدث إلا وَفْق قواعد الإسلام، ولقد رأينا عجباً لا ينتهي من تصريحات وخطب، وربما برامج وخطط، تتخطى ما هو مستقر من أحكام الإسلام الاعتقادية والتشريعية، تصدر - للأسف - عن (إسلاميين) أعطاهم الناس ثقتهم وأصواتهم لأجل الإسلام، فإذا بذلك الإسلام تنتهك بعض حرماته على ألسنة بعضهم في قضايا باتت من بدهيات الدين ومسلَّمات العقيدة: إما في مناورات انتخابية أو فلتات لسان لوسائل إعلامية، طمعاً ربما في إرضاء هذا الطرف أو ذاك ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢]، وإذا كان العَلمانيون - والليبراليون منهم خاصة - لا يتنازلون عن ثوابت ليبراليتهم التي لا تعترف بأي ثابت إلا ثابت عدم الثبات؛ فما لبعض المتحدثين باسم المشروع الإسلامي لا يأبهون بثوابت شرائعه وشعائره، ولا يهتمون بمشاعر الملتفين حولهم والمتعاطفين معهم لأجل الإسلام؟ إننا لو جمعنا هذه الشذوذات المنهجية، لوجدناها تقوض أركان المشروع نظرياً، قبل أن يبدأ تطبيقه علمياً ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النحل: ٩٢].

سادساً: المستهدَفون بكل خير في خطاب المشروع الإسلامي هم المسلمون ابتداءً؛ فهؤلاء هم من يجب إرضاؤهم وخَطْب ودِّهم والعملُ على نفعهم قبل أي أحد آخر؛ فالعقود والعهود لا تُحترَم إلا للحفاظ على حُرُماتهم، والأقوال والأفعال لا وزن لها إلا أن تكون ولاءً لهم وبراءً من أعدائهم، هم أَوْلى الناس بحُسْن الخطاب، ولطف اللهجة، وصدق الموعدة، هم أَوْلى بالكرامة من الأقليات التي على غير الملة، أو الجماعات المنحرفة المحسوبة على الملة؛ أولئك الذين لن يرضوا مهما استُرضوا، ولئن يُؤتمَنوا مهما ائتُمنوا، لا مانع من مدارة الكفار والمنافقين مع غربة الدين وضعف التمكين، ولكن الممنوع أن يكونوا مخصوصين عند البعض بالمحافظة على المشاعر واختيار العبارات، وكيل الوعود: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

سابعاً: إذا كانت المظاهرات والهتافات الجماهيرية أمراً جعله الله سبباً في اختصار مراحل كثيرة لوصول الإسلاميين للواجهة، فإن هذه التحركات نفسها قد تكون - لا قدر الله - سبباً في عرقلة بقية المراحل أو تأخيرها؛ إذا لم ينتبه هؤلاء الإسلاميون لأسباب تحريكها وأطراف استغلالها؛ فمن ثار معك اليوم لما يؤمله منك، يمكن أن يثور عليك غداً إذا فقد آماله فيك. لهذا لا بد من استفراغ الوسع في اليقظة مع الحذر من الاسترخاء، فلن يضيِّع الأعداء فرصة تفريق الجموع وبث الفرقة وإيقاظ الفتن، فالاعتصام بالله وبكتابه وسنة رسوله والانحياز إلى أوليائه والحذر من أعدائه، ضمانات دائمة للنجاح في التغيير إلى الأفضل ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

وأخيراً: فإن هذه التحولات القدرية التاريخية الكبيرة، التي تعصف بالمنطقة (بل بالعالم) في هذه المرحلة لا نظن إلا أنها لأمر يهيئه الله؛ فقد سُبقَت تلك الأحداث الكبار، بأحداث أكبر منها بدأت بسقوط الاتحاد السوفييتي في القرن الماضي قبل عشرين سنة، ثم ببدء تراجع الاتحاد الأمريكي منذ عشر سنوات، ثم بتتابع الوهن في الاتحاد الأوروبي إلى حد الحديث الآن عن احتمال تفككه. إنها مرحلة تشبه مرحله انهيار قوَّتي الفرس والروم في فجر الإسلام؛ فهل نشهد فجراً جديداً؟ رجاؤنا في الله أن تكون عاقبة هذه المرحلة لنا لا علينا: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١].

مجلة البيان

مفكرة

١٤٣٣هـ ٢٠١٢م

جديدنا

مفكرة البيان

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

المنطقة الشمالية:٠٥٩٠٩٩٢١١٦مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

Badr: 0508948947

الطغاة والطغيان في القرآن الكريم

خالد رمضان عثمان أحمد(*)

تميزت معالجة القرآن الكريم لموضوعاته بشمولية التناول وتنوُّعها؛ إذ قد تختلف الظروف المحيطة بموضوع ما بحيث يكون له أثر على سير الأحداث والنتائج من باب أَوْلَى.

ومن هذه الموضوعات المهمة موضوع الطغاة والطغيان الذي كان محوراً هاماً في كتاب الله يوضح مفهوم الطغاة والتعريف بالطاغين وأنواعهم، وصفاتهم، وبواعث الطغيان لديهم، وأساليبهم، ومصائرهم.

المفهـــوم:

مفهوم الطغيان في العربية:

قال ابن فارس: «الطـــاء والغين والحرف المعتل أصل صحيح منقاس، وهو مجاوزة الحد في العصيان»(١)، وكلُّ شيء يجاوز الحد فقد طغى، مثلما طغى الماء على قوم نوح. قال - سبحانه -: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

الطغيان في الاستعمال القرآني:

وردت كلمة (طغى) ومشـــتقاتها في تسعة وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم، وبصيَغ وتصريفات مختلفة: (طغى، يطغى، أطغى، تطغوا، طغوا، أطغيته، طغيان، طغوى، طاغية، طاغوت، طاغين، طاغون).

ويمكن القول بأن هذه المعاني يجمعها شـــيء واحد، وهو: المعنـــى اللغوي «مجاوزة الحد» لكلمة الطغيان، مع عدم إغفال السياق القرآني الذي يضفي معانٍ جديدةً على الكلمات أثناء البحث والتحقيق.

وأما استعمالات القرآن لها، فقد ذكر ابن سلاَّم وغيره أنَّ الطغيان في القرآن الكريم على أربعة أوجه(٢):

- الطغيان بمعنى الضَّلالة؛ وذلك كما في قوله - تعالى -: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].
- الطغيان بمعنى العصيان؛ وذلك كما في قوله - تعالى -: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: ٢٤].
- الطغيان بمعنى الارتفاع والتكبُّر؛ وذلك كما قوله - تعالى -: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ [الحاقة: ١١].
- الطغيـــان بمعنى الظلم؛ وذلك كمـــا في قوله - تعالى -: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]، وقوله - سبحانه -: ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٨].

(*) مركز تفسير للدراسات القرآنية.

(١) مقاييس اللغة لابن فارس: (٣/ ٤١٢).

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم، للشاملة.

أما الطاغوت فقد أوردتْ له كُتُب الوجوه والنظائر المعاني الآتية:

• الطاغوت يراد به الشيطان؛ وذلك في قوله - تعالى -: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

• الطاغوت يراد به الأوثان التي تُعبَد من دون الله؛ وذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

• الطاغوت يعنى به كعب بن الأشرف اليهودي؛ وذلك في قوله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

أسباب الطغيان:

بالنظر إلى تناوُل القرآن لأحوال الطغاة وممارساتهم للطغيان (قديماً وحديثاً)، يجد المرء أن لهذا الداء العضال أسباباً متعددة كأي مرض آخر (حسي أو معنوي)، وهذا ما تشير إليه الدراسات والبحوث الحديثة التي أجريت عن نفسية الطغاة، والأسباب التي تجعل من الطاغية وحشاً ضارياً.

وقد أشار القرآن الكريم - في معرض تناوُله لأحوال الطغاة وإدانة أعمالهم - إلى تلك الأسباب التي دفعت بأصحابها إلى ممارسة هذه الظاهرة القديمة الحديثة، وبالتدقيق في هذه الأسباب يُستخلَص منها أنها تنقسم إلى قسمين: (داخلية وخارجية)، ونعني بالداخلية: تلك الإشكالات النفسية التي غزت باطن هذا الطاغية، وأخذت بمجامع قلبه حتى أسودَّ قلبه بدخانها؛ فدبَّ إلى قلبه من سمومها وآفاتها ما دفعه إلى الطغيان. وأما الخارجية فنعني بها: تلك الظروف والأجواء التي هيأت له المناخ المناسب لممارسة طغيانه وعتوِّه، وساعدت في طول أمده وبقائه وسيطرته.

ويرجع إلى هذين النوعين معظم ممارسات الطغاة التي صنعت الطواغيت وأوجدتهم وهي في الوقت ذاته القاسم المشترك والجامع لكل طاغية على وجه الأرض.

أسباب الطغيان الداخلية أو (الباطنية):

الكبر والعلو:

ويكاد يكون هذا السبب هو الجامع الرئيسيُّ بين الطغاة، ويصنف على رأس أوَّليات أسباب الطغيان، وأبرز الشخصيات التي تمثل هذا السبب على الإطلاق شخصية الطاغية فرعون؛ الذي اجتمعت فيه كلُّ أسباب الطغيان الداخلية والخارجية، ومارس كل صنوف الطغيان بحق قومه. قال الله - سبحانه - عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]، وقال - تعالى -: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [القصص: ٣٩].

العجب والغرور:

وهذه آفة الطغاة في عتوهم وتجبُّرهم وعدم قَبُولهم الحق والانصياع له؛ ولذلك قال الله - عز وجل - ذاكراً حال قوم عاد لما طغوا وتكبروا على ربهم، ثم على نبيهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. ومن صور مباهاة الطاغية فرعون ومفاخراته أنه جعل يستحقر الآخرين ويعيبهم عجباً وغروراً فقال عن موسى - عليه السلام -: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

الحقد والحسد:

وهو الداء الذي يحرق قلب صاحبه إذا ما رأى لله على غيره منَّة أو أسبغ عليه نعمة، فيدفعه ذلك إلى ممارسة الطغيان، وهذا كان سبب طغيان اليهود ورفضهم قبول رسالة النبي ﷺ مع أنه مكتوب عندهم في التوراة؛ فقد أنكر الله عليهم حسدهم لرسوله ﷺ على الرسالة وحسدهم لأصحابه على الإيمان. قال الله - تعالى -: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤]، ولا شك أن ذلك ناتج عن الحقد والحسد لرسول الله ﷺ. قال - سبحانه -: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾ [المائدة: ٦٤].

أسباب الطغيان الخارجية:

الملك والسلطة:

وهي من أعظم الأسباب الباعثة على الطغيان، وبالأخص منهم طغاة الحكم والسياسة؛ ولذلك ذكر الله في القرآن الملك النمرود الذي طغى وتجبَّر حتى وصل به الأمر إلى أن ادَّعى الربوبية، وكان الباعث له على ذلك الملك والسلطة. قال - عز وجل -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. وهذا فرعون يبرر فجوره وعلوَّه في الأرض كما أخبر القرآن عنه. يقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

المال والولد:

وذلك إذا ضعف من قلب صاحبه الإيمان والتقوى وشعوره بفقره وحاجته إلى الله. يقول - تعالى -: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦ - ٧]. والولد كذلك قد يؤدي بوالديه إلى الطغيان إن كان كافراً؛ وذلك بدافع حبهما له. يقول - تعالى -: ﴿وَأَمَّا الْغُلاَمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾ [الكهف: ٨٠]. ولما كان المال مفضياً لما ذكرتُ من الطغيان فإن من دعاء موسى - عليه السلام - قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

غفلة الناس عن حقوقهم وقبولهم الظلم:

إن الشعوب إذا استمرأت الظلم ورضيت بالهوان وغلب عليها الخوف؛ أعطت الطاغية فرصة وشجعته على الاستمرار والزيادة في البغي. لنلاحظ كيف بلغ الخوف بقوم موسى - عليه السلام - حيث أعطاهم الله الملْك، ونجاهم من فرعون، وكتب الله لهم الأرض المقدسة أنها لهم، وطلب منهم مواجهة الجبارين فرفضوا؛ فكيف سينتصرون إذن: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۝٢١ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢١ - ٢٢] ولا شك أن غفلتهم وسكوتهم عن أعمال فرعون وقبولَهم استبداده هو ما جرَّأه عليهم من قبل ولكنهم لم يتعظوا ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وفي الوقت الذي كان موسى - عليه السلام - يحثهم على الصبر والاستعانة بالله على فرعون وجنوده، كانوا يواجهونه بالاستكانة والاحباط والذل والهوان: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ۝١٢٧ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧ - ١٢٩].

صور الطغيان:

إنَّ للطغيان نماذج وصوراً متعددة، تتعدد وتتنوع بحسب الزمان والمكان، ونفسية الطاغية وعناده وتكبُّره، وهيمنته الاقتصادية وقوَّته العسكرية، وكذلك بحسب تقدُّم الزمن وتطور أساليب الطغيان... لذا فإن صور الطغيان تختلف من طاغية لآخر؛ لكن يجمعهم: «انتكاسة الفكر، وانحراف الأخلاق، وانعدام الرحمة، وفَقْد الإحساس، والإمعان في الظلم والتعذيب. مع ملاحظة اختلافهم في دقة تطبيق هذه الصور ومدى تنفيذها، وشمول وعموم من تُمارَس عليهم، فمن هذه الصور:

الظلم والتجبُّر والاستبداد:

يُعَد ظلم الناس وتهميشهم وهضم حقوقهم وسلب مقدراتهم وإراداتهم من أبرز صور الطغيان قديماً وحديثاً، وكم عانت الشعوب المستضعفة المقهورة من ظلم الطغاة وجَوْرهم وتجبُّرهم: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٠ - ١٤]، وقال - سبحانه -: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠] وقال: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

القتل والتعذيب والتنكيل:

وهذا من أشنع صور الطغيان وأقبحه، وقد أخبر الله عن فرعون قولَه: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وقال عنه أيضاً: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

وفرعون الذي كان يذبح الأولاد خوفاً من رؤيا رآها يكرس نموذجاً للظالم الباغي الحريص على ملكه، والمشكلة أن الطغاة في كل عصر يمارسون صور الظلم نفسها، وهذا يفسِّر تشابُه قلوب الظالمين الأوائل والمعاصرين؛ ففي سبيل الحكم يمكن أن يقتل شعبه ويجوِّعهم ويسلط عليهم المرتزقة من شرار الخلق.

وقصَّ الله علينا - سبحانه - ما تعرَّض له أصحاب الأخدود من صور القتل والإجرام، فقال: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٤ - ٨].

فرض الرأي ومصادرة الحقوق والحريات:

فالطغاة على مرِّ التاريخ يفرضون آراءهم وأهواءهم على أقوامهم، ويجعلونها عليهم قوانين إلزامية، ويقسرونهم على قبولها والانقياد لها قسراً، ويصادرون حرِّياتهم وحقوقَهم المشروعة في الاختيار والقبول والرَّفض؛ فعليهم ألا يعتقدوا ويعتنقوا إلا ما يعتقد الطاغية ويعتنق، ومن سوَّلت له نفسه أن يخالف أو يرفض يستخدمون معه أبشع أساليب القمع والتنكيل. والعجيب أنهم يصورون أنفسهم على أنهم أصحاب الحق وأن غيرهم مفسد في الأرض! ولاحظ مقالة الملأ من أعوان فرعون ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

ومنطق الطاغية واحد كما قال فرعون لقومه ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وقال لموسى - عليه السلام -: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وقال قوم شعيب له ولأتباعه: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

وسائل معالجة القرآن للطغيان:

لقد عالج القرآن الكريم جريمة الطغيان؛ وقدم جملةً من الحلول التي تمنع وقوعه أو تخفف أثره، واستقصاءُ هذه الحلول وتتبُّعها يفضي بنا إلى التطويل؛ لكن نشير إلى أهم الوسائل في ذلك:

أولاً: النهي الصريح عن الطغيان:

بكل صوره وأشكاله، وتقبيحه وذمِّه وإدانته وأهلَه؛ سواء كان التعدي على الآخرين بالقتل أو ما دونه، أو أكل أموال الناس وسائر الظلم والبغي والطغيان. قال - تعالى -: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ [طه: ٨١]، وقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢].

ثانياً: الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك:

وتُعَد من أقوى موانع الطغيان. قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فالملاحظ من هذه الآية أن جُلَّ اهتمام الأنبياء والمرسلين وجهدِهم، كان منصبّاً في الدرجة الأُولَى على بناء العقيدة، وغرس معانيها في النفوس؛ لأن الإيمان بالله وعبادته بالمعنى الشامل، يؤديان إلى اجتناب الطغيان.

ثالثاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم الوسائل لمنع الطغيان؛ ولذلك صرَّح رسول الله ﷺ بأن التفريط بهذا الواجب مؤدٍّ إلى ظهور الطغيان والتسلط في المجتمع. قال: «لتأمرُن بالمعروف ولتنهوُن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم، ثم يدعو خياركم، فلا يستجاب لهم»[1].

رابعاً: الحوار والجدال بالقول اللينِّ الحسن:

وهذه الوسيلة من أنفع الوسائل منعاً للطغيان (إن صادفت محلاً من قلب الطاغية وعقله)، وقد أمر الله رسله باتخاذها وسيلة لمعالجة الطغيان؛ وإلا كانت لمزيد إقامة الحجة على الطاغية وإبراء الذمة في الإنكار عليه. قال - تعالى - مخاطباً موسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤].

الشجاعة والمبادرة في مواجهة الطغاة:

قال - تعالى -: ﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وهذه وصية عظيمة قالها رجلان صالحان لقومهم، وهذا يؤكد دَوْر أهل الدين والصلاح في قيادة الأمة للوقوف في وجه الطغاة واقتحام الأبواب المغلقة من قِبَلهم.

إنهما «رجلان من الذين يخافون الله، ينشئ لهما الخوف من الله - سبحانه - استهانة بالجبارين، ويرزقهما شجاعة في

(١) ضعفه الالباني في ضعيف الجامع (٤٦٥٠).

وجه الخطر الموهوم. وهذان هما يشهدان بقولتهما هذه بقيمة الإيمان في ساعة الشدة وقيمة الخوف من الله في مواطن الخوف من الناس. فالله - سبحانه - لا يجمع في قلبٍ واحد بين مخافتين: مخافته - جل جلاله - ومخافة الناس. والذي يخاف الله لا يخاف أحداً بعده ولا يخاف شيئاً سواه ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٢٣]؛ إنها قاعدة في علم القلوب وفي علم الحروب؛ أقدِموا واقتحِموا؛ فمتى دخلتم على القوم في عُقْر دارهم انكسرت قلوبهم بقدر ما تقوى قلوبكم، وشعروا بالهزيمة في أرواحهم وكتب لكم الغلب عليهم».

«وتعتبر هذه الآية أصلاً في كسر جدار الذل والهوان والخوف الذي استسلم له كثير من الناس، وظنوا - إن لم يوقنوا - أنه لا سبيل للخلاص مما هم فيه من تسلط الطغاة والجبارين.

وهذا الشعور لا سبيل مع وجوده إلى نصر أو عزة وكرامة، ولا يمكن معه التفكير في المقاومة، فضلاً عن المهاجمة والمطالبة.

فلا بد من كسر ذلك الحاجز النفسي والثورة على تلك النفس الراضية بالذل والهوان؛ وهو ما أرشدت إليه هذه الوصية الحكيمة؛ فهم لم يطلبوا من قومهم مواجهة الجبارين، بل اكتفوا بأمرهم بدخول الباب عليهم؛ وهذا الدخول يمثل كسر حالة الضعف والجبن والخور الذي وصلوا إليها، كما يدل على ذلك سياق الآيات الكريمة؛ فهم القائلون: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢] ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

فلن ننتصر على أعدائنا حتى ننتصر على نفوسنا، ولن نتجرأ على الإنكار والاحتساب والإصلاح حتى نكسر أبواب الخوف والذل والهوان[1].

(١) بيان: معالم قرآنية في الأحداث التي تمر بها الأمة الإسلامية:
http://www.tafsir.n#t/vb/tafsir25233/

نهاية الطغاة والطغيان:

سُنة الله في الطاغين واحدة؛ فقد أهلك الله كثيراً من الطغاة وجعلهم عبرة لغيرهم كما حصل لفرعون وجنوده: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ١٤] ولكن الطغاة لا يعتبرون بمصائر الطغاة قبلهم ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٥ - ٢٦].

لكن ثمة حالة متكررة يتصور بعض الناس أمامها أن الطاغية قد يُفلِت من العقاب لما يرونه من ميتة بعض الطغاة ميتة طبيعية. والأمر المؤكد الذي يجب أن يستقر في النفوس أن الطاغية لن ينجو من عقاب الله مهما تأخرت العقوبة، وقد يمسوت الطاغية موتاً طبيعياً فهذا لا يعني نجاته؛ لأن الله بيَّن أن عاقبة الطاغين شر عاقبة. قال - سبحانه -: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥] وقد ذكر الله - سبحانه - في سورة البروج قصة أصحاب الأخدود ونهايَتهم المؤسفة على يد الطغاة ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٤ - ٨] في حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد انتصر على الإيمان. ولا تذكر الروايات التي وردت في هذا الحادث، كما لا تذكر النصوص القرآنية أن الله قد أخذ أولئك الطغاة في الأرض بجريمتهم البشعة، كما أخذ قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط وفرعون وجنوده كما كان يأخذ المكذبين والطغاة. ولكن الجزاء الأخير سيكون عنده - سبحانه -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١٠ - ١١] وقال - سبحانه -: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ۝٤٣ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾. [إبراهيم: ٤٢ - ٤٣]

مجلة البيان

صدر حديثاً

جديد ..

جديد ..

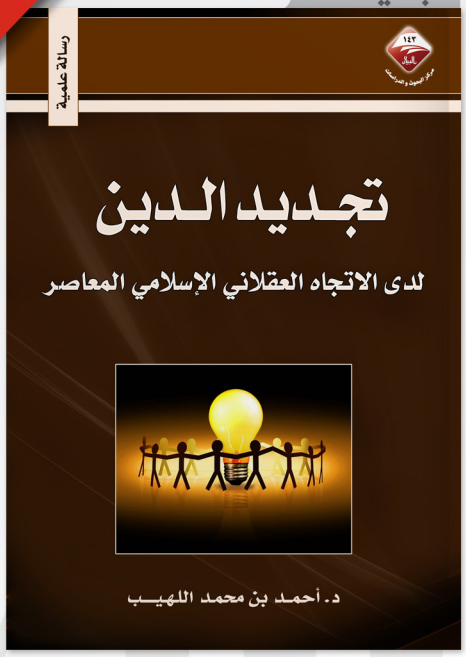

جديد ..

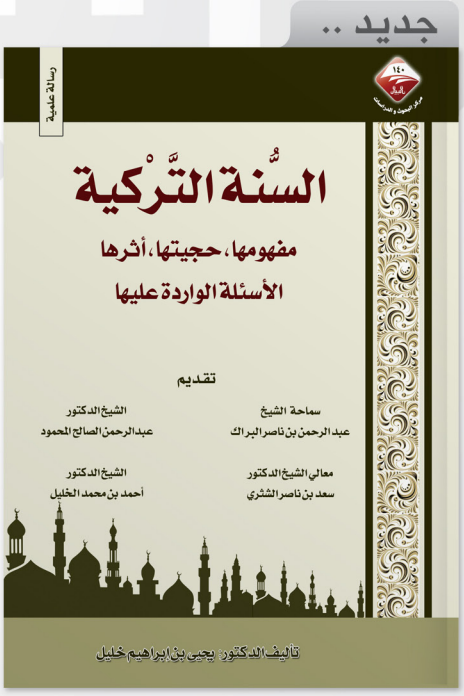

جديد ..

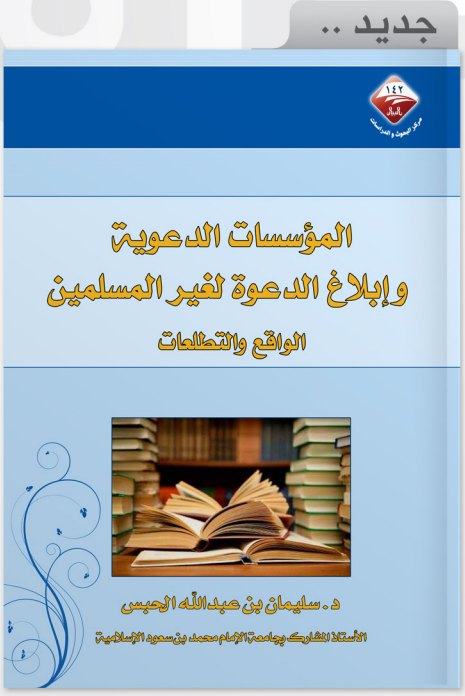

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

أساليب الطغاة
في مواجهة الدعوة

د. محمد بن عبد العزيز المسند(*)

لقد شاء الله - عز وجل - بحكمته وعدله أن يجعل لأنبيائه ورسله وأتباعهم من المؤمنين أعداءً من الطغاة والمجرمين، فقال - تعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، ثم أوضح في موضع آخر حقيقة هؤلاء الطغاة المجرمين، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا...﴾ [الأنعام: ١١٢]، فهم شياطين من الإنس ومن الجن، يتصل بعضهم ببعض على وجه خفيٍّ لمواجهة الحق المتمثِّل في دعوة الأنبياء والرسل - عليهم السلام - وأتباعهم إلى يوم الدين. ولما كانت دعوة الأنبياء وأتباعهم هي الخطر الذي يهدِّد كيان الطغاة وبنيانهم، سلكوا في مواجهة هذه الدعوة كل سبيل يرون أنه يحفظ كيانهم ويقوِّي بنيانهم، ويقضي على دعوة الحقِّ. وقد أبان الله - عز وجل - أساليبهم في مواجهة الدعوة، وفصَّل في ذلك ليكون المؤمنون على حذر، فقال - سبحانه -: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]. وقد تتبَّعتُ هذه الأساليب في كتاب الله فبلغت قرابة المئتين، وقبل ذكر بعض هذه الأساليب لا بد من ذكر مقدمات تجلِّي بعض الحقائق المهمة:

(*) عضو هيئة التدريس بجامعة الملك سعود، وعضو الجمعية العلمية السعودية للقرآن وعلومه.

المقدمة الأولى: أن وجود هؤلاء الطغاة المجرمين أمر مقدَّر ومقرر كوناً (لا شرعاً). قال - تعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، سواء كانوا حكاماً أو وزراء أو مستشارين، أو معارضين... إلخ.

المقدمة الثانية: أن الله قدر ذلك لحِكَم عظيمة، من أهمها: التمييز والتمحيص، والابتلاء والاختبار، واتخاذ شهداء من المؤمنين، وحصول محبوب الله من عبودية الصبر وتحمُّل الأذى. ثمَّ بعد ذلك محق هؤلاء الطغاة وإزالتهم وشفاء صدور المؤمنين منهم.

المقدمة الثالثة: أن الله - عز وجل - قد يملي لهؤلاء الطغاة ويمهلهم إلى أجل، حتى تتحقَّق حكمته السابقة، كما جاء في الحديث الشريف: «إنَّ الله ليملي للظالم حتَّى إذا أخذه لم يفلته»(١).

المقدمة الرابعة: أنَّ من أسباب تجبُّر هؤلاء الطغاة وتكبُّرهم واستبدادُهم: إذعان الشعوب لهم رضاً وطواعية، كما قال الله - سبحانه - عن أكبر طاغية في التاريخ: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]. وهذا لا يعني بالضرورة الخروج عليهم ومنابذتهم بالسيف؛ فإن عدم الرضا والتسليم من قِبَل الشعوب عامل حاسم في كسر شوكة هؤلاء الطغاة والتخلُّص منهم، كما جاء في الحديث الشريف عَنْ أم سلمة - رضي الله عنها - عَنِ النَّبِي ﷺ أنه قَالَ: «إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ؛ فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَلاَ نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: «لاَ مَا صَلَّوْا»(٢).

أما أساليب هؤلاء الطغاة فتتنوَّع ما بين أساليب في الكيد والمكر، وأخرى في التولي والإعراض، وثالثة بالتبرير واختلاق الحجج، ورابعة في التشكيك، وخامسة في التضييق والمنع، وسادسة في الأذى والتنكيل... إلخ.

وفي ما يلي عرض سريع ومختصر لبعض هذه الأساليب التي جاءت في القرآن الكريم، فمنها:

المغالطة ولَبْس الحق بالباطل: قال - تعالى -: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [آل عمران: ٧١]. ومن ذلك ما ذكره الله - عز وجل - عن المشركين أنهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧]. فإذا ظهر الحقُّ ولم تُجْدِ أساليب المغالطة، لجؤوا إلى أسلوب آخر وهو:

المجادلة بالباطل لدحض الحق: قال - تعالى -: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥]، ومن ذلك ما قصه الله من محاجة نمرود الطاغية لإبراهيم - عليه السلام - في ربه ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فصعقه إبراهيم - عليه السلام - بردٍّ لم يجد له جواباً: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. فإن لم يُجْدِ هذا الأسلوب لجؤوا إلى أسلوب آخر، وهو:

افتراء الكذب على الله: قال - تعالى -: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧]، ومن ذلك تحليلهم ما حرَّم الله، وتحريمهم ما أحلَّ - سبحانه - ممَّا يتوافق مع أهوائهم ومصالحهم. قال - تعالى -: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]. ومنها: استحلال أموال الآخرين. قال - تعالى - في اليهود: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

التلاعب بأحكام الله وتبديلها وتغييرها عنوة حتى توافق أهواءهم: كما كان المشركون يفعلون بالنسيء وهو تأخير الشهر الحرام لينتهكوا حرمته: قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧]. ومن ذلك أيضاً ما فعله اليهود من تغيير حدِّ الزاني المحصن من الرجم الذي هو مذكور في التوراة وموافق لشريعتنا، إلى التحميم (التسويد) والجلد، والحديث مخرَّج في الصحيح.

الإفساد في الأرض: قال - سبحانه - ذاكراً قوله نبيُّه صالح - عليه السلام - لقومه: ﴿وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥١ - ١٥٢]، وقال

(١) أخرجه الإمام البخاري.
(٢) أخرجه الإمام مسلم.

– تعالى – عن اليهود: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال – سبحانه – عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١ – ١٢].

تولي بعضهم بعضاً: قال – تعالى –: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وقال – تعالى –: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الجاثية: ١٩]. فحين يكون خصمهم الحق يجتمعون عليه؛ لأن الكفر – كما قيل – ملة واحدة. ومن ذلك تولِّي اليهود لمشركي مكَّة وقولهم عنهم: ﴿هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء: ٥١].

عقد اللقاءات السرية للتآمر على الدعوة: قال – تعالى – واصفاً حال سحرة فرعون واختلافهم في أمر موسى وهارون – عليهما السلام –: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ [طه: ٦٢]. وقال – تعالى – عن المنافقين ولقاءاتهم مع اليهود: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٨]، وقال – تعالى –: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. نزلت هذه الآية في اجتماع المشركين في دار الندوة للتآمر على الرسول ﷺ.

محاولة التفريق بين المؤمنين: وهذا الأسلوب من أخفى أساليب الطغاة وأكثرها دهاءً ومكراً، ومن ذلك بناء مساجد للضرار. قال – تعالى –: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧]. ومن ذلك: إثارة العصبيات القبلية والنعرات الجاهلية. قال – تعالى – عن المنافقين: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨] يقول المنافق لإخوانه في النسب وقرابته: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾؛ أي أقبلوا علينا ودعوا محمداً وأصحابه؛ فقد – والله – هلك ومَالهُ قِبَلٌ بأعدائه، (وذلك يوم الأحزاب).

إبرام العقود والمواثيق ثم نقضها ونبذها: قال – تعالى – عن اليهود: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠]، وقال عن المشركين: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥ – ٥٦]. فإذا خافوا على أنفسهم أو ضعفوا، لجؤوا إلى إبرام العقود والمواثيق، حتى إذا ما أمنوا وزال عنهم الخطر، وعادت إليهم قوَّتهم، نقضوا تلك العهود والمواثيق.

الغدر والخديعة والخيانة: قال – تعالى –: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١]. وقال – تعالى –: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٢]. وتاريخ الدعوات حافل بمثل هذه الخيانات والغدرات والخديعات.

إرضاء المؤمنين بالألسن مع إضمار العداوة لهم في القلوب: قال – تعالى –: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٨]. وهذا الأسلوب يلجأ إليه الطغاة في وقت الخوف. أما عند الظفر فإنَّهم – كما قال الله –: ﴿لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ٨].

التغرير بالعامَّة وحضهم على الكفر: قال – تعالى –: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ [نوح: ٢٢ – ٢٣]، وقد بيَّن الله حقيقة هذا المكر وأنَّه دائم لا ينقطع فقال – تعالى – حاكياً قول الأتباع يوم القيامة لما قال لهم أسيادهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم﴾ [سبأ: ٣٢] قالوا – أي الأتباع –: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣]. وقد سلكوا في التغرير بالعامة وإلهائهم مسالك شتَّى، منها:

صرفهم عن الاهتمام بالشؤون العامَّة، والبحث عن الحقيقة بأنفسهم، وحضُّهم على التمسُّك بما هم عليه من الباطل، والصبر على ذلك: قال – تعالى –: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]. فإن كان لدى العامَّة فراغ قد يقود إلى التفكير اتَّخذ الطغاة خطوات عملية لإلهائهم، منها:

إشغالهم بالتجمُّعات الباطلة: قال – تعالى –: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٣٨ – ٣٩]. وقال – تعالى –: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان: ٦] وهو ما يُعرَف اليوم بالفن. أما الذين لا يستهويهم هذا النوع من الإلهاء، ولا تغريهم تلك التجمعات، فقد سلك الطغاة معهم أسلوباً آخر، وهو:

إلقاء الخطب الحماسية والكلمات الرنَّانة التي تلهب العواطف، وتشعل الحماس في النفوس لما تشتمل عليه من تلبيس وخداع وقلب للحقائق. قال – تعالى –: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾

[الزخرف: ٥١ – ٥٢]. فإن كان لدى العامة شيء من الوعي والإدراك لجأ الطغاة إلى أسلوب آخر أكثر مكراً، وهو:

الشورى المزيفة: قال – تعالى – عن فرعون لما بهره نور الحق الساطع: ﴿قَالَ لِلْمَلأ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤ – ٣٥]، فرعون الطاغية المجرم يستشير الملأ من قومه وهم بالأمس كانوا عبيداً عنده، وهو يقول لهم: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]. فإن لم يُجْدِ هذا الأسلوب لجؤوا إلى أسلوب آخر أكثر جدية، وهو:

إظهار الحياد، والتظاهر بالإنصاف وطلب الحق: قال – تعالى – حاكياً قول فرعون وملئه للناس لما اجتمعوا لرؤية المباراة بين موسى – عليه السلام – وقومه: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠]. فإن لم يُجْدِ هذا الأسلوب لجؤوا على أسلوب آخر غاية في المكر والدهاء وهو:

التظاهر بالورع: قال – تعالى – عن فرعون الطاغية: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]، الله أكبر! فرعون الطاغية يتورع أن يقول لقومه بصيغة الجزم: ليس لكم إله غيري.. ويردُّ ذلك إلى علمه المتواضع ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم﴾! وكأنَّه بحث عن إله آخر فلم يجد. وهكذا كان يفعل رأس المنافقين في المدينة عبد الله بن أبيٍّ بن سلول فيقوم كلَّ جمعة ليقول للناس: «أيها الناس! هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزَّكم به فانصروه واسمعوا له وأطيعوا» ثم يجلس، والله يعلم ما في قلبه من العداوة والبغضاء لرسول الله ﷺ.

هذه بعض الخطوات العملية لإلهاء الشعوب، فإن اشتهر أمر الداعية، ولم تُجْدِ أساليب التغرير والإلهاء، لجأ الطغاة إلى أسلوب آخر، وهو:

المساومة: قال – تعالى – محذراً نبيه ﷺ: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]. وقصة مساومة مشركي قريش للنبي ﷺ مشهورة معلومة. وقد استخدم فرعون هذا الأسلوب مع سحرته ليقفوا معه، وذلك حين قالوا له: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١ – ٤٢]. وهناك صور أخرى للمساومة، منها: تقديم الهدايا والأعطيات، كما قال – تعالى – عن بلقيس ملكة سبأ لما جاءها كتاب سليمان – عليه السلام –: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥]؛ ولذا كان النبيُّ ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها كما في الصحيح، حتى لا يكون أسيراً لها. فإن لم يُجْدِ هذا الأسلوب لجأ الطغاة إلى أسلوب آخر أشدَّ قسوة، وهو:

الحرب النفسية وتحطيم المعنويات: وتتخذ هذه الحرب أشكالاً عدة منها: السخرية والاستهزاء ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢١٢]، وقال – تعالى –: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الرعد: ٣٢]. والتشهير: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١]، والتخويف: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦]. والتجويع: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون: ٧]. والتهديد والوعيد: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] وغير ذلك. فإن اشتدت الخطوب وعظمت الكروب لجأ الطغاة إلى أسلوب آخر غريب، وهو:

الاستنجاد بالرسل في كشف الكروب: قال – تعالى – عن فرعون وقومه: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]. فموسى الذي كان بالأمس كاذباً وضالاً ومفسداً بل مجنوناً كما يزعمون أصبح اليوم هو المنقذ المخلِّص. وقد لجأت قريش إلى هذا الأسلوب مع نبينا محمد ﷺ؛ ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – أنَّ قريشاً لما استعصوا على النبيِّ ﷺ دعا عليهم بسنين كسنيِّ يوسف، فأصابهم قحط وجَهْد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله – تعالى –: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠ – ١١] قال: فأُتي رسول ﷺ فقيل: يا رسول الله! استسق لمضر فإنَّها قد هلكت... إلخ.

هذه بعض الأساليب التي يسلكها الطغاة المجرمون في مواجهة الدعوة وأصحابها، وثمَّة أساليب أخرى ذكرتُها مفصَّلة مع هذه الأساليب في كتابي (أساليب المجرمين في التصدِّي لدعوة المرسلين وعاقبة ذلك في ضوء القرآن الكريم)، وبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد.

النوازل الفقهية في الثورات العربية

د. عطية عدلان

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

لا يخفى على أحد أن أمتنا تمرُّ بمنعطف كبير في تاريخها، وتعاني تحوُّلاً هائلاً في مسيرتها، وتنظر إلى المستقبل نظرة ملؤها الأمل المشوب بالحذر، وإن كان بعض الناس ينظر إليه نظرة معكوسة ملؤها الحذر المشوب بالأمل.

والواقع أننا - سواء غلب علينا الأمل أو الحذر - نعيش تحولاً لا خيار لأحد فيه، ولا مناص من حتميته. وفي ما يبدو أن المسألة كونية قبل أن تكون شرعية، وأن التغيير الذي يضرب الأمة الآن بزلازل الثورات هو جزء من سنة الله - تعالى - في الأمم والشعوب والحضارات، وهذا ما يجب ألا نغفل عنه ونحن نتناول قضية كهذه تناولاً شرعياً؛ لأن فهم السنن الإلهية في المجتمعات وفي العمران الإنساني جزء لا يتجزأ من فهم الواقع الذي لا غنى عنه في تنزيل الأحكام.

فسُنة التداول: ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وسنة التدافع: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١] ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ﴾ [الحج: ٤٠]، وسنة الأخذ للظالمين بعد الإملاء لهم: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، وغيرها من السنن التي تحكم العمران البشري: لا يصح ألا تكون مراعاة في النظر إلى الواقع الذي ينزل عليه الحكم الفقهي.

ومن المؤكد - ما دام المصدر واحداً - ألا يكون هناك تنافر بين السنن الإلهية والشريعة الربانية، وهذا أحد المنطلقات التي ننطلق منها إلى معالجة الموضوع.

ولقد بلغ الظلم والبغي والاستبداد والقهر حدّاً ليس من طبيعة الأمور أن تظل الشعوب صابرة عليه وساكتة عنه أكثر من ذلك، وهذا هو الذي غفلت عنه الأنظمة التي ركبت ظهور الشعوب الإسلامية دهراً طويلاً، ولعل غفلتها هذه من مكر الله - تعالى - بها ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ [الطارق: ١٥ - ١٦]، فكان أخْذُ الله لهم من حيث لم يحتسبوا، من جهة الشعوب لا من جهة التنظيمات التي كانت الشعوب تجافيها خوفاً من بطش الحكام.

ولم تكن الشعوب تفهم أن الظلم الذي وقع عليها من نوع ظلم أهل القبلة بعضهم بعضاً؛ وإنما فهمت بفطرتها أنه ظلم يمارَس عليها من غير أهل ملتها؛ ولكن بأيدي أقوام من جلدتهم ويتحدثون بألسنتهم، ولم تكن تفهم إلا أنه امتداد للاستعمار الأجنبي ولكن في صورة مقنَّعة؛ ومن هنا انطلقتْ للتغيير الذي بدا أنه أمر حتمي لا مناص منه مهما كانت التضحيات.

هـــذا هو الواقع الـــذي لا يختلف عليه اثنـــان في رقعتنا الإسلامية الممتدة من شرق الأرض إلى غربها، ما لم يكن العمى أو التعامـــي قد أصاب بعض الناس، وهذا البعض على أيِّ حال لا يقدِّم ولا يؤخِّر في حسم ما يقضي العقلاء بحسمه، وإذا كان هذا هو الواقع فقد اكتسبنا منطلقاً ثانياً ذا أثر كبير في إحراز الصواب في هذا الموضوع.

ولقد تناول البعض هذه المســـألة تناولاً تجاهل الواقع فيه وتغافل عن الســـنن الإلهية، وضم إلى ذلـــك التجاهل والتغافل دواهي كباراً متعلقة بأسلوب البحث العلمي وقواعده، كان منها النظرة الجـزئيـــة والتناول الناقص من خـــلال إعمال بعض النصـــوص وإهمـال بعضـها الآخـر، وكـان منهـا التعميـم الـذي لا يفرق بين وضع وآخر من الأوضاع المتباينة والمتباعدة زماناً أو مكاناً أو حـــالاً، وكان منها وضع النص في غير موضعه وحمله على غير ما يُحمَل عليه، إضافة إلى تهمة المجاملة من بعضهم لبعض الأنظمة دلت عليها قرائن إن اجتمعت ارتقت إلى مرتبة القطعيات؛ كل هذا نتج عنه فتاوى اصطدمت بشـــكل مباشـــر وصريـــح مع بدهيات آمنت بها الشـــعوب إيماناً يُعَد من العبث محاولة زحزحتها عنها؛ أعني تلك الفتاوى التي حرَّمت الثورات واعتبرتها من قبيل الخروج على الحكام.

ينبغـي قبـل أن نصـدر ذلـك الحكـم المتهور بـأن ثورات الشعوب هذه هي خروج على الحكام: أن نحرر مصطلحاتنا أولاً؛ فَمَـن هم الحكام الذين يحـرُم الخروج عليهم؟ وما هو الخروج الذي نهى عنه سلف هذه الامة؟

إن الحاكـــم الذي يَحرُم الخروج عليه وتجب له الطاعة وتتنزل النصوص المحدِّدة لواجباته تجاه الأمة ولحقوقه عليها: هو الحاكم الذي يكتسب شرعيته من مصدرين لا غنى عنهما: الأول: أن يُختار من الأمـــة وأن يُولَّى عليها بطريق شـــرعي، والثاني: أن يحكم في الأمة بكتاب الله وشـــريعته، فهذان شـــرطان لشرعية الحاكم، وإذا كانت مصلحة جمع الكلمة وحقن الدماء تُســـقِط في بعض الأحيان الشـــرط الأول، وتقتضـــي الكف عن الحاكم والســـمع والطاعة له وتحـــريم الخروج عليه إن تأمَّر بطريق التغلب، فإن ذلك مشـــروط بإقامته لكتاب الله، وهـــذا واضح في حديث عبادة؛ فعن جنادة بن أبـــي أمية قال: «دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْـــنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ، قُلْنَا: أَصْلَحَكَ اللَّهُ، حَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ سَـــمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ. قَالَ: دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ، فَبَايَعْنَـــاهُ، فَقَالَ فِي مَا أَخَذَ عَلَيْنَا: أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةً عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْراً بَوَاحاً عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[1]. أما أن ينهار الشرطان فلا يمكن أن ينال الحاكم ذلك الوضع الاستثنائي؛ اللهم إلا عند عدم القدرة، فعندئذٍ يسقط واجب التغيير ويبقى واجب الإعداد لامتلاك القدرة على هذا التغير.

ومعلوم بالطبع أن هؤلاء الحكام جاؤوا بطرق غير شرعية، وأنهـــم لم يحكِّمـــوا كتاب الله، بل حكَّمـــوا – علناً – الطاغوت وتحاكموا إليه، وجعلوا السيادة لغير منهج الله، والمرجعية لغير شـــريعة الله، ووالوا كل الولاء من حاربها وعادَوا كل العداء من ناصرها وطالب بها، ثم كان الولاء للأعداء سنةً ماضية وطريقة مطَّردة وســـلوكاً فاقـــوا فيه عبد الله بن أُبَـــي الذي أنزل الله – تعالـــى – فيه قوله: ﴿**أَلَمْ تَـــرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُـــونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَـــرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ**﴾ [الحشـــر: ١١] وهذا الصنيع منهم – أعني الحكم بغير ما أنزل الله والولاء لأعداء الله – هو الكفر البواح الذي عند الأمة فيه ألف برهان.

أمـــا الخروج الذي حرَّمه العلماء فهو الخروج المســـلح من فئـــة تفتات على الأمة وتخرق إرادتها؛ لذلك عُرِف الخوارج في التاريخ الإسلامي بهذا الاســـم؛ لأنه هـــو الاسم الموافق للحال الـــذي كـــانوا عليـــه وهـــو الحـــرب المســـلحة على الحكـام، ولا بـــد – لكـــي يكون خروجاً – أن يتحقـــق فيه معنى الخروج علـــى الجماعـــة؛ لأن الخروج على الحكام هو في حقيقته خروج على الجماعـــة وافتيات على إرادتها وغصـــب لأمرها قبل أن يكـــون خروجاً على الحكام؛ لذلك جاء في بعض الأحاديث ذكر الجماعة للتعبير عن الســـلطان الذي لا يصـــح الخروج عليه، مثلما ورد عـــن ابن عباس قال: قال النبـــي ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَـــيْئاً فَكَرِهَهُ فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ لَيْـــسَ أَحَدٌ يُفَارِقُ الْجَمَاعَةَ شِبْراً فَيَمُوتُ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[2].

فالحاكم يســـتمد من الجماعة ســـلطانه وأحقيته بالحكم وبالسمع والطاعة وبالكف عن الخروج عليه، فإذا كانت الجماعة نفســـها هي التي خرجت عليه بأي وسيلة رأتها مناسبة للحال ومحققة للمصلحة في المآل فلا يســـمى ذلـــك خروجاً بالمعنى الذي ورد النهي عنه؛ ســـواء مارســـت الجماعة ذلك من خلال أهل الحل والعقد منها أو مارســـته بنفسها وبسوادها الأعظم عند غياب أهل الحل والعقد وعدم اجتماعهم.

---

(١) صحيح: رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ سترون بعدي أموراً تنكرونها برقم «٦٥٦٦» (١١/ ٥٣٠٥)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية برقم «٣٤٣٣» (٥/ ٢٤١٠).

(٢) صحيح: رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية برقم «٦٦٣٩» (١١/ ٥٣٥٣).

إذن فلنناقش القضية بعيداً عن مسألة الخروج على الحكام، وبعيداً كذلك عن مسألة الابتداع في الدين؛ لأن الوسائل والأساليب والأدوات ليست توقيفية؛ فالثورات والمظاهرات والاحتجاجات الجماعية والاعتصامات والإضرابات وما شابه ذلك وسائل وأدوات للتعبير أو التغيير أو الإنكار أو الضغط على المسؤولين لتحقيق مطالب عادلة، ولم يقل أحد بأن الوسائل والأدوات توقيفية؛ وإلا لكان حاكماً بتوقف عجلة الحياة، ومحال أن يكون هذا العِوَج في دين الله؛ وإنما الوضع الصحيح لها أنها اجتهادية، يشتَرَط لجوازها شرطان: الأول: ألا تصادم حكماً شرعيا، والثاني: أن تكون محقِّقَة للمصلحة في غلبة الظن.

فهذه الأمور ليست من الشعائر التعبدية حتى نتوقف في العمل بها حتى يأتي ما يدل على مشروعيتها؛ وإنما هي من العادات، والأصل في العادات الالتفات إلى ما فيها من معاني، فإن كانت موافقة للشريعة بمعنى أنه ليس فيها ما يخالفها ولا يضادها، وكان فيها مصلحة راجحة، فلا مسوغ للقول بتحريمها، وإن كانت مضادة أو مخالفة للشريعة أو كانت مفسدتها أرجح من مصلحتها فلا تردُّد في القول بتحريمها.

قال الإمام الشاطبي: (وأما أن الأصل في العادات الالتفات إلى المعاني فَلِأُمور:

أولها الاستقراء: فإنا وجدنا الشارع قاصداً لمصالح العباد، والأحكام العادية تدور معه حيثما دار فترى الشيء الواحد يُمنَع في حالٍ لا تكون فيه مصلحة فإذا كان فيه مصلحة جاز... والثاني: أن الشارع توسع في بيان العلل والحِكَم في تشريع باب العادات... وأكثر ما علَّل فيها اتباع المعاني... والثالث: أن الالتفات إلى المعاني قد كان معلوماً في الفترات، واعتمد عليه العقلاء حتى جرت بذلك مصالحهم وأعملوا كلياتها على الجملة فاطردت لهم... ومن هنا أقرت هذه الشريعة جملة من الأحكام التي جرت في الجاهلية كالدية، والقسامة، والاجتماع يوم العروبة (وهي الجمعة للوعظ والتذكير)، والقراض، وكسوة الكعبة، وأشباه ذلك مما كان عند أهل الجاهلية محموداً وما كان من محاسن العوائد ومكارم الأخلاق التي تقبلُها العقول...)[1].

والتكييف الصحيح للثورات هو أنها شكل من أشكال ممارسة الأمة لسلطانها في العزل والتولية والمحاسبة والمراقبة، والصورة المثلى التي تمارس الأمة بها هذا السلطان هو قيام أهل الحل والعقد بممارسة ذلك نيابة عن الأمة، فإذا لم يكن لهيئة أهل الحل والعقد وجود أو لم يكن لهم اجتماع ولا رابطة فإن الأمة لا سبيل إلى ممارستها هذا السلطان إلا أن تمارسه بنفسها بلا إنابة ولا تمثيل؛ لأن الأصيل أحق بممارسة حقه من الوكيل، ولأن البديل هو ألا تمارس هذا الحق أصلاً أو أن يتولاه عنها من لا يمثلها، وفي كلا الحالين من الخطر والغرر والضرر ما يجعله فتنة يجب توقيها؛ وممارستها بنفسها تكون بسوادها الأعظم؛ لأن الجماعة هي السواد الأعظم كما ورد في بعض روايات أحاديث الافتراق؛ ولأن إجماع الخلق في بلد من البلدان أمر يستحيل حدوثه فيفضي تعليق الحكم عليه إلى التعطيل.

فهل لهذا السلطان أصل شرعي؟

هناك من الأدلة الشرعية ما يدل على ثبوت هذا الأصل، من أهمها:

الدليل الأول: أن رسول الله ﷺ قبيل وفاته كان مهموماً بأمر الخلافة من بعده، وازداد همه وشغله وهو في مرضه الذي مات فيه. يدل على ذلك حرصه الشديد على ائتلافهم واجتماعهم، وخوفه الشديد عليهم من فتنة الفرقة وحرقة الاختلاف والتشرذم، والنصوص النبوية الدالة على هذا الحرص وهذا الخوف أكثر من أن تحصى، ويدل على ذلك أيضا أنه همَّ – وهو في اللحظات الأخيرة – أن يكتب كتاباً لئلا يضلوا بعده، وهمَّ كذلك أن يكتب لأبي بكر كتاباً.

وبرغم شغله ﷺ وهمِّه الشديد، وبرغم توفر الدواعي على الوصية: من وجوب الخلافة – كما أسلفنا – ومن تربص المنافقين وغيرهم، وبرغم عدم المانع، برغم ذلك كله لم يوص، وكبار الصحابة بين يديه، لم يوص بها وهي أولى شيء بالوصية إن كان الإيصاء بها هو الصواب.

فإذا كان رسول الله ﷺ لم يوص ولم يستخلف، برغم توفر الدواعي واستفاضتها، وانتفاء الموانع واستحالتها، فهذا أكبر دليل وأوضح بيان على أن الأمة هي صاحبة السلطان، وأن الله – عز وجل – أراد لها أن تكون على هذه الدرجة من الرشد والنضج، وأن رسول الله ﷺ أراد أن يربيها على ذلك، وأن يتركها لتمارس سلطانها بنفسها.

(١) الموافقات: (٢ / ٣٠٥ – ٣٠٧).

الدليل الثاني: جملة من الأخبار الواردة عن رسول الله ﷺ وعن صحابته فيها التصريح بأن الأمة هي صاحبة الأمر، من هذه الأخبار ما يلي:

١ عن عَائِشَةُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – مرفوعاً: «... لَقَدْ هَمَمْتُ أَوْ أَرَدْتُ أَنْ أُرْسِلَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَابْنِهِ فَأَعْهَدَ، أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُونَ أَوْ يَتَمَنَّى الْمُتَمَنُّونَ، ثُمَّ قُلْت: يَأْبَى اللَّهُ وَيَدْفَعُ الْمُؤْمِنُونَ، أَوْ يَدْفَعُ اللَّهُ وَيَأْبَى الْمُؤْمِنُونَ»[١].

فقوله ﷺ: يأبى الله والمؤمنون؛ أي: يأبى الله في قدره الرحيم ويأبى المؤمنون في تصرفهم السليم، وفي هذا تصريح بأن المؤمنين هم الذين يمارسون هذا الحق، وأن هذا الأمر أمرهم.

٢ قول النبي ﷺ: «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ»[٢]، فالأمر أمرهم جميعاً، فإذا جاء من يريد أن يستبد بالأمر ويذهب به بعد أن اجتمعوا عليه فلهم أن يقتلوه؛ لأنه يستلب ما ليس له من مالكه بالقوة، وهذا مما يدل على المكانة العظيمة والدور الكبير للأمة؛ وأنه يترتب على اختيارها من الأحكام ما لا يترتب إذا لم تكن هي المختارة.

٣ عن علي مرفوعاً قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُؤَمِّراً أَحَداً مِنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ لَأَمَّرْتُ ابْنَ أُمِّ عَبْدٍ»[٣]، وفي رواية دون مشورة منهم.

٤ عن علي – رضي الله عنه – قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَنْ يُؤَمَّرُ بَعْدَكَ؟ قَالَ: «إِنْ تُؤَمِّرُوا أَبَا بَكْرٍ تَجِدُوهُ أَمِيناً زَاهِداً فِي الدُّنْيَا رَاغِباً فِي الآخِرَةِ، وَإِنْ تُؤَمِّرُوا عُمَرَ تَجِدُوهُ قَوِيّاً أَمِيناً لا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ، وَإِنْ تُؤَمِّرُوا عَلِيّاً، وَلا أَرَاكُمْ فَاعِلِينَ، تَجِدُوهُ هَادِياً مَهْدِيّاً يَأْخُذُ بِكُمُ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ»[٤].

فقوله ﷺ: إن تؤمروا، بعد أن سألوه: من تؤمر؟ أوضح دليل على أن الأمر منوط بالأمة، وهي صاحبة السلطان ومصدر السلطات.

٥ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ – رضي الله عنه – خَرَجَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَجَعِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ فَقَالَ النَّاسُ: يَا أَبَا حَسَنٍ! كَيْفَ أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: أَصْبَحَ – بِحَمْدِ اللَّهِ – بَارِئاً. فَأَخَذَ بِيَدِهِ عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ – وَاللَّهِ – بَعْدَ ثَلاثٍ عَبْدُ الْعَصَا، وَإِنِّي – وَاللَّهِ – لأَرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَوْفَ يُتَوَفَّى مِنْ وَجَعِهِ هَذَا؛ إِنِّي لأَعْرِفُ وُجُوهَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عِنْدَ الْمَوْتِ، اذْهَبْ بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلْنَسْأَلْهُ فِيمَنْ هَذَا الأَمْرُ؟ إِنْ كَانَ فِينَا عَلِمْنَا ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ فِي غَيْرِنَا عَلِمْنَاهُ فَأَوْصَى بِنَا فَقَالَ عَلِيٌّ: إِنَّا – وَاللَّهِ – لَئِنْ سَأَلْنَاهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَمَنَعَنَاهَا لا يُعْطِينَاهَا النَّاسُ بَعْدَهُ، وَإِنِّي – وَاللَّهِ – لا أَسْأَلُهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ[٥].

فقول علي – رضي الله عنه –: لا يعطيناها الناس، دال على أن هذا الأمر للناس يعطونه من شاؤوا.

٦ عن حميد بن عبد الرحمن الحميري حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ – رضي الله عنه – أن عمر – رضي الله عنه – قيل له: ألا تستخلف؟ فَقَالَ: أَيَّ ذَلِكَ أَفْعَلُ فَقَدْ فَعَلَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي؛ إِنْ أَدَعْ إِلَى النَّاسِ أَمْرَهُمْ فَقَدْ تَرَكَهُ نَبِيُّ اللَّهِ – عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ – وَإِنْ أَسْتَخْلِفْ فَقَدْ اسْتَخْلَفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي أَبُو بَكْرٍ – رضي الله عنه – فَقُلْتُ لَه: أَبْشِرْ بِالْجَنَّةِ[٦].

فقوله: إن أدع للناس أمرهم، صريح في أن الأمر في فهم عمر كما هو في فهم علي – وهم خلفاء الرسول ﷺ ورموز النظام السياسي الإسلامي – أنه للناس؛ أي للأمة الرشيدة.

٧ عندما قال أحد الناس: «لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ، لَقَدْ بَايَعْتُ فُلاناً، فَوَاللَّهِ مَا كَانَتْ بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ إِلَّا فَلْتَةً فَتَمَّتْ، فَغَضِبَ عُمَرُ ثُمَّ قَالَ: إِنِّي إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَقَائِمٌ الْعَشِيَّةَ فِي النَّاسِ فَمُحَذِّرُهُمْ هَؤُلاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَغْصِبُوهُمْ أُمُورَهُمْ...» وخطب خطبة طويلة ختمها بقوله: «مَنْ بَايَعَ رَجُلاً عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلا يُبَايَعُ هُوَ: وَلا الَّذِي بَايَعَهُ تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلا»[٧].

فقد صرح عمر بأن أمر المبايعة والاختيار أمرُ المسلمين، ومن افتات عليهم فيه فقد غصبهم أمرهم، وينهى أن يبايع أحد أحداً من غير مشورة، وإن وقع ألا يتابعهم أحد على ذلك؛ لأنه حق الأمة، ويُخشى أن يكون هذا من المتابعين تغريراً بنفسيهما، قد يفضي إلى قتلهما بما أحدثا من شقاقٍ في الصف واستلابٍ للحق من أصحابه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب الاستخلاف برقم «٦٧٠٦» (١١/٥٤١٢)، والإمام أحمد في المسند برقم «٢٤٥٥١» (٢١/١٠٤٧٧)، وأبو نعيم في الحلية برقم «٢٠٣٤» (٣/١٢٤٢)، والبيهقي في الكبرى، كتاب الجمعة، باب ما جاء في الوعد برقم «٦٠٧٠» (٩/٤٣٣١).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع برقم «٣٤٤٩» (٥/٢٤٢٤)، وأبو عوانة في مسنده، كتاب الحدود، باب الخبر الموجب قتل الثيب الزاني... برقم «٥٦٣٤»(٧/٣٤٤٨)، والبيهقي في الكبرى، كتاب النفقات، باب جماع أبواب كفارة القتل برقم «١٥٣٥٢» (٢٢/١٠٩٧٩).

(٣) رواه الترمذي، كتاب الدعوات أبواب المناقب، باب مناقب عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – برقم «٣٧٧٥» (٧/٣١٩٧)، والإمام أحمد في المسند برقم «٥٥٤» (١/٣٠٠)، وابن سعد في الطبقات برقم «٣١٦٢»(٤/١٧٧٣).

(٤) رواه أحمد في فضائل الصحابة برقم «٢٢٦»(١/ ١٢٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق برقم «١٧٦٥٣» (٦٥ / ٣٢٠٥٠)، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة برقم «١١٣٩» (١/٣٧٨).

(٥) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي برقم «٤١١٩» (٧/٣٢٢٦).

(٦) إسناده صحيح: رواه الإمام أحمد في المسند برقم «٣١٢» (١/١٧٨).

(٧) رواه البخاري، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت برقم «٦٣٥٨» (١١/٥١٢٦)، والإمام أحمد في المسند برقم «٣٨١» (١/٢١٣)، وابن حبان في صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب حق الوالدين برقم«٤١٨» (١/٤٥٩).

الدليل الثالث: أن الخلفاء الذين ورَّثوا الحكم لأبنائهم كخلفاء بني أمية وبني العباس كانوا كلما أرادوا أن يعهدوا طلبوا من الأمة أن تبايع، وحملوها على ذلك، حتى إن معاوية قدِم المدينة وطلب البيعة ليزيد، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر: أهرقلية؟ كلما هلك قيصر خلفه قيصر؟ ورفض البيعة، وأراد معاوية أن يعطيه مالاً فرفض وقال: أبيع ديني بدنياي؟[1].

فهذا يدل على أن هؤلاء الخلفاء يعلمون أن الأمر للأمة، وإن أهل العلم فيها لا يغفلون عن هذه الحقيقة؛ وأنهم إن لم يظفروا بالبيعة بأي طريق كانت فلن يظفروا بالشرعية لدى علماء الأمة وعامتها.

الدليل الرابع: ما قرره العلماء من أن الأمَّة عند شغور الزمان من السلطان عليها أن تنتدب من يقوموا بالمهمات، «وقد قال العلماء: لو خلا الزمان عن السلطان فحق على قُطَّان كل بلدة وسكان كل قرية أن يقدِّموا من ذوي الأحلام والنهي وذوي العقول والحجا من يلتزمون امتثال إشارته وأوامره وينتهون عن مناهيه ومزاجره؛ فإنهم لو لم يفعلوا ذلك ترددوا عند إلمام المهمات وتبلدوا عند إظلال الواقعات، ولو انتدب جماعة في قيام الإمام للغزوات وأوغلوا في مواطن المخافات تعين عليهم أن ينصِّبوا من يرجعون إلى رأيه؛ إذ لو لم يفعلوا ذلك تهووا في ورطات المخافات ولم يستمروا في شيء من الحالات»[2].

وعلى هذا فإن الثورة إذا قام بها سواد الشعب في بلد من البلدان فهي من قبيل ممارسة الأمة لحقها وسلطانها وأمرها، ويشترط فقط لمشروعية ذلك أن يغلب على الظن تحقُّق المصلحة ولو بمفاسدَ أقل؛ لأن المصالح والمفاسد إذا تعارضت قُدِّم الراجح منها؛ فالقاعدة أنه: «إذا تعارضت المصالح والمفاسد قُدِّم الأرجح منها على المرجوح»[3].

ومن ثَمَّ فإن الحكم لا يكون واحداً ولكن ينظَر إلى الحال وإلى المآل، ويقارَن بين الحال والمآل؛ فإن كانت الثورة ستنقل الأوضاع من حال سيئ إلى مآل أسوأ لم تجز، لا لإنها خروج على الحكام، ولكن لكونها مصادِمة للمصلحة التي بُنيَت عليها الشريعة، وإن كان المآل راشداً والانتقال إليه ضروريٌّ صارت جائزة، بل وواجبة عند القدرة عليها وعند أيلولة الحكم إلى الكفر البواح.

هذا وبالله التوفيق... وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

(١) انظر: الاستيعاب لابن عبد البر (١/٢٤٩)، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ (٤/٣٢٧).

(٢) الغياثي، غياث الأمم في التياث الظلم للإمام الجويني تحقيق د. مصطفى حلمي ود. فؤاد عبد المنعم أحمد (ص١١٠).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٤/٢٦٩).

الرضيع

طفلي الرضيع

خصائصة ـ صحته ـ تربيتة

مشروعنا
وظف مختلف
المتخصصين

مشروعنا:

- بناء علمي منهجي.
- تنويع في شكل المعلومات.
- توظيف المتخصصين بكافة مجالاتهم في مراحل المشروع.
- توسيع دائرة المشرفين في منتجات المشروع.
- تنويع بيئات المشاركين وتجاربهم.

www.albayan.co.uk

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

سياسة على منهاج النبوة (*)

أنور بن قاسم الخضري (**)

تشهد الأمة الإسلامية منذ شهر يناير ٢٠١١م تحولاً سياسياً ومنعطفاً تاريخياً حيوياً، إثر قيام الثورات الشعبية العربية السلمية المطالبة بالتغيير بإسقاط الأنظمة المستبدة بالحكم، تلك التي جثمت على صدور الشعوب عقوداً من الزمن تمارس التضليل والظلم والفساد والإجرام.

وما جرى في تونس ومصر وليبيا ولا يزال يجري في سورية واليمن، ما هو إلا نتاج طبيعي للسياسات غير العادلة وغير الراشدة وغير الشورية التي مارستها الأنظمة البائدة. فللشعوب مناعة فطرية ضد الفناء العدمي؛ لذلك فهي تعود بين فينة وأخرى لتنتفض مجدداً استعادةً لإرادتها وانتقاماً لكرامتها وحفاظاً على كينونتها ومصالحها. ولولا انتفاضة الشعوب هذه لانقرضت البشرية تحت فساد الحكام المهلِك للحرث والنسل. وهناك من يخلط بين هذه الانتفاضة الطبيعية في نسقِها التاريخي عند كل حالة انسداد لا يمكن معها إلا العودة إلى أعلى، وبين ما يطرأ على هذه الانتفاضات من انحراف أو اختطاف تقوم به نفوس ماكرة وفئام خبثاء من البشر؛ لتحيل ثورة هذه الشعوب إلى مركب لمآربها ومطامعها الخاصة.

وحركة التاريخ حركة (بندولية) تتجه من الأعلى إلى الأسفل في أقصى مداها لتعود مجدداً للأعلى ولكن باتجاه جديد. فهي تسير في خط بياني متموج وإن اختلفت فيه المسافات والسرعات تناسقاً مع الإيقاع الاجتماعي والظروف البيئية والوسائل المتاحة والثقافة الشائعة؛ لكنها في الأخير تحافظ على مسار تراتبي لا تخطئ العقول في تفسيره وفهمه والتنبؤ به.

وما ميز الثورات العربية الراهنة هي حالة الوعي العميق التي اتصفت بها بشكل عام، والتي لا تزال تواكب مجريات المشهد في أحوال المجتمع وقواه الفاعلة بل ومجمل أفراده. لربما كان هناك نوع التباس بين الثورة فعلاً اجتماعياً وبين الحَراك السياسي الذي حاول الإفادة منها في ما بعد، لكن هذا أمر طبيعي في ظل الفراغ الذي يُحدِثه إسقاط هذه النظم الشمولية بكل هياكلها وبُنَاها وشبكة العلاقات التي أقامتها: سياسياً واقتصادياً وثقافياً وفكرياً ودينياً.

لقد تجاوزت هذه الثورات نموذج الانقلابات العسكرية التي تتخذ طابعاً دموياً، وتعبِّر عن الشعب في حين هو بريء منها. كما تجاوزت هذه الثورات نماذج الفوضى المسلحة التي تأخذ طابع تمرد فئوي ينوب عن الشعب في خطاباته، ويختزل هموم الناس في رؤيته ومطالبه. وتجاوزت أيضاً حالة الارتهان للتغيير المسنود خارجياً أو المبذول فتاتاً على شكل مِنَح عبر المسار السياسي العقيم.

إنها ثورات شعبية قدَّرت هدفها بوضوح واجتمعت عليه، وتجاوزت كل الخلافات والتباينات، وبذلت التضحيات الغالية، ودخلت في صراع غير متكافئ مع الأنظمة القمعية (الأمنية – العسكرية) رغم كلفة ما تُقدِّم عليه. وهي إذ تفعل ذلك لا ترفع غير مطلَب مشترَك وهدف مشترَك وقيمة مشترَكة، جرى تجاهلها وتغييبها في ظل معارك جانبية افتعلتها الأنظمة أو لعبت عليها لتخلق أجواء من الصراعات التي تمكِّنها من الهيمنة في ظل انشغال الطوائف والشيع والأحزاب.

(*) يدعو كاتب هذا المقال مجلة البيان لطرح مساحة من النقاش والحوار والتدارس على صفحاتها الورقية أو عبر الموقع حول هذا الموضوع إثراءً وسعياً في تأصيل الآراء وإسعاف الساحة برؤى وأفكار تناسب الظرف والمرحلة التي تمر بها الأمة.

(**) رئيس مركز الجزيرة العربية للدراسات والبحوث.

وإذا كانت الثورات التي شهدتها كلٌّ من فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وبلدان أوروبية أخرى شكلت عامل نهوض حضاري للغرب، فإن ما يجري اليوم - إذا ما تمَّ الحفاظ على مساره الصحيح - لا يقل أثراً على واقع المشرق العربي في المستقبل البعيد. فالناس اليومَ بلغت حالةً من الوعي الجمعي الرفيع، بفعل عوامل عدة منها:

• **ثورة المعرفة والثقافة:** التي تجتاح العالم منذ قرن من الزمان عبر النشاط والحَرَاك الثقافي والمعرفي الذي مارسته كافة القوى السياسية والفكرية والثقافية والاجتماعية والدينية. وبغضِّ النظر عن السلبيات التي رافقت هذه الثورة إلا أن عوامل التلاقح والتأثير والاتصال والتواصل والجدل الذي أوجده هذا النشاط والحَرَاك، أوجد في شق كبير منه ظواهر إيجابية لا تخطئها بصيرة المُعايِش للحياة العامة للأمة خلال العقدين المتأخرين.

• **ثورة الاتصال والتواصل:** التي اكتسحت كافة الحواجز (السياسية والاجتماعية والخاصة): حيث أصبحت أجهزة التواصل بكل أشكالها رفيقاً دائماً لا يغيب عن محيط الفرد في سَكَنَاته وتحركاته. وهذه الثورة حملت للفرد قدرة اكتشاف محيطه الاجتماعي والإنساني ككل عبر ما تزوده اليوم من وسائط متعددة تنقل الكلمة والفكرة والمشاعر والأحداث وغير ذلك. حتى أصبح العالم اليوم يعيش الحدث حيثما كان، وبات الكون قرية صغيرة ملمومة الأطراف، سكانها أكثر من ٦ مليار إنسان!

• **تعدُّد النماذج:** فالمرء اليوم وعبر ثورة المعرفة والثقافة والاتصال والتواصل يطَّلع على كافة النماذج؛ حتى بات قادراً على الاختيار من بين البدائل أفضلِها، في ضوء المقارنات التي يراها ويدركها واقعاً هنا أو هناك.

• **تراكم الخبرة الاجتماعية والفردية:** فالعصر متسارع في إيقاعاته وخطواته. وما كان بحاجة إلى عقود للاختبار والتمحيص أصبح اليوم يتكشف في سنوات بل أشهر، بفعل الحركة السريعة للمجتمعات والتاريخ عموماً؛ وخاصة أن الإنسان المعاصر بات يفكر سريعاً، ويتعاطى سريعاً مع الأحداث من حوله.

إن تخوُّف بعض الناس مما قد ينشأ من إشكالات وتحديات على الأمة أمرٌ مفهومٌ وله ما يبرره منطقياً؛ إلا أن التاريخ لا يواجَه بالتمني والتخوف؛ فالأول رأس مال المفاليس والثاني نياحة العجزة والكسالى. والصحيح هو (الفعل) و (التأثير). فالتاريخ يُصنَع شئنا أم أبَينا؛ فإما سبقْنا وصنعناه بأنفسنا، وإما صُنِع لنا في حال غيابنا وبُعدِنا. وقد أُمِرنا - شرعاً - بأن نغرس فسيلة بأيدينا وإن قامت الساعة؛ طالما أننا نملك أن ننجز شيئاً إيجابياً في الحياة.

وهنا يمكن القول بأن ما قام به كثير من المصلحين من العلماء والدعاة من مشاركة حية أثناء الثورات العربية وبعد نجاحها بتفاعل إيجابي: هو عين الصواب. فالفراغ الذي أحدثته الثورات سياسياً يتطلب ملأً قبل أن يملأه الماهرون بسرقة جهود الشعوب وركوب موجات المد الثوري. ولذلك فنحن نشهد عودة كافة القوى السياسية إلى إعادة الروح إلى كياناتها وتجديد أطروحاتها ونسج ولاءاتها وتمتين أُطُرها للعودة مجدداً إلى ميدان التنافس السياسي رغبة في الوصول للسلطة.

إن الشعوب العربية جربت الأحزاب التي استلهمت رؤىً وتصورات وعقائدَ وأفكاراً خارجة عن بيئتها وهويتها الثقافية والحضارية ولفظتها في كافة صورها (القومية والوطنية واليسارية والليبرالية)، وهي بحاجة إلى قوى جديدة تنبع من بيئتها وهويتها الثقافية والحضارية لتستنقذ البقية الباقية من وجودها. وهذا ما فرض على الإسلاميين دخولَ المنافسة السياسية بعد غياب أو تغييب دام عقوداً من الزمن. غير أن هذا الدخول جاء نتيجة طفرة مفاجئة في الظروف والتحولات، ومن ثَمَّ فهو بقدر ما يحمل من الفرص يتضمن من مخاطر، والإقدام على المشهد السياسي في لحظة كهذه غالباً

ما يوقع في مزالق قد ينساق لها الأفراد والتجمعات لضبابية الرؤية وتعقُّد المشهد وكثرة خطوط التماس والألغام الخفية.

صحيح أن الرؤية التفاؤلية تشير إلى صعود المدِّ الإسلامي مستقبلاً مصداقاً لخبر الصادق المصدوق: «ثمَّ تكون خلافة على منهاج النبوة»؛ إلا أن ذلك لا يعني الاتكالية والتعجل، وتغييب السنن والأسباب، وحرق المراحل والقفز على الحقائق الواقعية. فمبتدأ الطريق إلى (خلافة على منهاج النبوة) لا يكون إلا بـ (سياسة على منهاج النبوة)، سياسة حكيمة راشدة أمينة تقوم على أسس علمية ومبادئ موضوعية وتصوُّر شامل ورؤية قويمة، تبني مجتمعاً إسلامياً مؤهَّلاً للخلافة. وهنا تبرز بعض الأطروحات الناضجة التي بدأت تطفو على سطح الحَراك الإسلامي السياسي من القوى الإسلامية المختلفة في تونس ومصر وليبيا وسورية واليمن، لكنها لا زالت لم تأخذ حظها من الدراسة والتدقيق واستقرارها في العمق يقيناً إيمانياً ومساراً أخلاقياً ومسلكاً فكرياً وسلوكياً.

سياسة الأنبياء واضحة ومفهومة:

ولعلَّني هنا في هذه العجالة التي تناسب المقام أن أوضِّح أن سياسة الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – ليست سياسة خفية معلَّلة بالوحي كما يتصور بعض الناس ويردد بعض الصالحين كلما عجزوا عن إدراك بُعْد مواقف الأنبياء وقراراتهم، مستندين إلى طبيعة وظيفتهم (الإبلاغ)؛ مستدلين ببعض النصوص التي جاءت في مقامات معيَّنة، كما في شأن صلح الحديبية وإخبار أبي بكر الصديق لعمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – عندما أبدى اعتراضاً على الصلح[1]، فقال له: إنه رسول الله (أو قال: يوحى إليه)، منطلقين – في ظني – من محاولة لتنزيه الأنبياء عن السياسة نظراً لما لحق بهذا المصطلح من تشوُّه ولإعادة المكانة للشريعة نصاً وروحاً.

والقول بهذا الإطلاق الذي يعطِّل وظيفة النبي والرسول في أي زمان ومكان على أنه قائد رباني يمتلك من نور البصيرة وتمام العقل والفهم والإدراك وبُعْد النظر والحكمة وحُسْن التصرف ما يؤهله لحمل الرسالة ابتداء، ويجعل منه – شاء أو أبى قائله – مجرد آلة متحركة وَفْق وحي الله – تعالى – لا وعي لها ولا إدراك. وهذا محض انتقاص للأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – فإنهم أهل لقيادة أتباعهم وأممهم – إذا ما آمنوا – بما يمتلكونه من بصيرة وحكمة، وفي ضوء ما يعلمون من مراد الله ومقصده[2]، فإذا ما أخطؤوا حكم الله أو مرادَه في المسألة صُوِّبوا بالوحي الإلهي. وهذا ما قصده أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – في حادثة الحديبية. لذلك يقول – تعالى – في شأن أنبيائه: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، فالاختيار المشار إليه اختيارٌ لأحسن الخَلْق كمالاً في العقل والروح والنفس والخلق والقول والعمل. لذلك جاء الأمر بطاعة الرسول ﷺ مستقلة في قوله – تعالى –: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

فالمولى – سبحانه – لا يعطِّل مهمة النبي أو الرسول في أن يقوم بدوره وَفْقاً لخبرته ومعرفته وإدراكه لمعطيات الواقع وسنن الكون والاجتماع البشري، وانطلاقاً من فهمه وربطه بين الواقع بكل أبعاده وبين السنن الكونية والاجتماعية والوحي قصداً وحكماً؛ بل يقف موجِّهاً ومرشداً ومصوِّباً له؛ بحيث إذا ما أخطأ لم يحمل أتباعُه الخطأ إذا ما استمر على الشريعة ظناً منهم أن الله مُقِرٌّ له، أو أن ما قام به أساساً هو وحي منزل.

لذلك فقد أشار القرآن الكريم إلى اتصاف أنبيائه بالحكمة وبالبصيرة، وبالعزم والرشد في أكثر من موضع؛ وفي ذلك ما يزكي أفهامهم وأفعالهم ومواقفهم جملة. وقد سجلتْ كتب السُّنة والسِّيَر من شأن الرسول محمد ﷺ من حصافة الرأي وحُسْن التدبير والحكمة قبل البعثة وبعدها شيئاً كثيراً؛ كما سجلت بعضَ محاولاته التي صوَّبه فيها أصحابه – رضوان الله عليهم – كما في معركة بدر والأحزاب؛ عندما همَّ رسول الله ﷺ على عقد صلح بينه وبين غطفان على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة، فقال سعد بن معاذ وسعد بن عبادة – رضي الله عنهما – له: يا رسول الله! أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ فلما أخبرهم أنه شيء يصنعه لهم لمَّا رأى العرب رمتهم عن قوس واحدة أشاروا عليه بخلاف رأيه.

فإذا كان الرسول ﷺ يُصوَّب من أصحابه، ويستشيرهم ابتداء كما في كثير من الأمور، فإنه بلا شك – وهو أعظم الرسل مكانة ومنزلة – إنما يقوم بذلك من منطلَق بشري محض وفي إطار فهمه لمراد الله ومعرفته بأحكامه. لذلك قال النبي

(١) لقد جاء اعتراض عمر بن الخطاب على الصلح نتيجة شعوره بغبن في الصلح على المسلمين، حتى أتى رسول الله فقال: «ألست نبي الله حقاً؟»، قال: «بلى!»، فقال: «ألسنا على الحق وعدونا على الباطل»، قال: «بلى!»، فقال: «فلِمَ نعطي الدنية في ديننا؟»، فقال ﷺ: «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري». وما وقع لعمر وقع لأصحاب الرسول ﷺ. فقد بلغ الضيق بالصلح في نفوسهم حداً جعلهم لا يستجيبون لأمر الرسول لهم بالنحر والحلق، حتى شكى ذلك لزوجه أم سلمة رضي الله عنها، بل بلغ بهم الأمر أن أوشكوا على قتل بعضهم بعضاً عند الحلق من الهم.

(٢) لذلك قال ﷺ: «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب». المستدرَك على الصحيحين، للحاكم: ٣/٩٢.

ﷺ في صلح الحديبية: «والذي نفسي بيده! لا يسألوني خطة يعظِّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»؛ وفي هذا إشارة إلى أن السياسة في واقع الصراع مبناها على أطرافها وليس بإمكان طرف واحد صياغتها دون الطرف الآخر طالما أن هناك تكافؤاً في القوى؛ لذلك جرت صيغة الصلح تفاوضاً بينه وبين قريش ولم يكن نصه وحياً، لا قرآناً ولا سنةً، بل اتفاقاً خضع لإرادة الطرفين وإقرارهما.

وهذا لا ينفي أن ما يقوم به النبي أو الرسول من تدبير سياسي لقومه أو أمته، ويمضي عليه دون تعقيب من الوحي أو تراجع منه يؤصل لسُنة تشريعية تسمح للأتباع بعده اتباعها عند التطابق أو الاهتداء بها عند التقارب.

أخطاء الإسلاميين في السياسة:

إن الإشكال المطروح على العمل الإسلامي اليوم: هو مواجهُته لأوضاع لم يسبق أن مرت بها الأمة من قبل، حتى مع تشابُه بعض تفاصيلها بأوضاع سابقة. وهنا تبرز بعض الاجتهادات والرؤى الخاطئة والمجتزأة والقاصرة المنسوبة زوراً إلى الشريعة. كما وقع لدى بعض الحركات والجماعات الإسلامية والمرجعيات العلمية أو الدعوية أو الحركية.

أمثلة على ذلك:

أولاً: اعتماد بعض القوى الإسلامية على مبدأ (القتال) أساساً للتغيير ووسيلة للإصلاح، مستشهداً لذلك بالنصوص الشرعية المُعْلِيَة من قيمة الجهاد، وبتاريخ المسلمين. ناسياً هذا الفصيلُ من التيار الإسلامي أن نصوص الجهاد جزء من منظومة نصوص الشرع التي يجب أن تؤخذ كُلاً لا يتجزأ، وأنها تقابل نصوصاً أخرى تحث على الدعوة والحوار والمجادلة بالحسنى والنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر في سبيل ذلك كله. كما يخطئ هذا الفصيل في اعتبار تنزيل هذه النصوص التي تتخاطب مع واقع إسلامي قائم تتوفر فيه معاني الوضوح والتمايز بين مجتمعين (مجتمع مسلم وآخر كافر بيِّن الكفر) وعلاقة العداء قائمة بينهما، مع توفر كل مقومات النجاح في القيام بالجهاد لأهداف مشروعة، دون أن تثار على المسلمين سُمعَة سيئة أو ينالهم ضر يستأصل دعوتهم وشأفتهم. وواقع اليوم يلتبس فيه الإسلام على كثير من أبنائه؛ حيث طال الأمد وكثرت الفِرَق وانطمس الدين لكثرة ما أُدخِل عليه. ثمَّ هم في الجانب العملي والتطبيقي يفرِّغون الجهاد من كافة المعاني الأخلاقية والسياسية والأدبية التي تحفظ مساره كجهد مثمر، ويحيلونه إلى عنف وأعمال متهَمة وجرائم مستنكَرة وعبثيَّة تضر أكثر مما تنفع.

ثانياً: اعتماد بعض القوى الإسلامية خطاباً يقوم على لغة ومصطلحات ليست معنيَّة بزماننا، كما يفعل بعضهم بمصطلح: ولي الأمر، وأمير المؤمنين مثلاً. في وقت هو أقرب ما يكون من وصف حذيفة – رضي الله عنه –: «فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام». وأعجب شيء في هذا الفريق أنه يلوي نصوص ومفاهيم الإسلام لأشخاص وأوضاع تعلن خروجها عن الإسلام ومفاهيمه ومصطلحاته؛ وكأن هذا الفصيل مسكون بعقدة (السلطان) الذي لا يصح بدونه دين! لذلك فإن فتاوى هذا الفريق متناقضة وفيها ما تأباه وتنفر عنه فِطَر عوام المسلمين فضلاً عن خواصهم، حتى أنهم أضفوا على أنظمة الظلم والفساد والاستبداد من المدائح ما لم يكن يدعيه بنو أمية وبنو العباس لأنفسهم!

ثالثاً: بُعْدُ بعض القوى الإسلامية عن السياسة فعلاً وممارسةً وتأثيراً تحت مبدأ الانشغال بالدعوة والتربية والتعليم، منكرين على كل من يحاول الدخول في هذا المجال للإصلاح مبدأ الدخول من حيث هو لا من حيث النتائجُ أو السلبياتُ التي ترافق هذا الدخول. وهذا البعد نشأ عن تسلُّط الفسدة والظالمين والمنحرفين عن الدين على مقاليد السلطة والنفوذ بشكل غير مسبوق. وهذا الطرح أقنع كثيراً من الصالحين بالزهد في تولي المناصب وتقلُّد الوظائف ومنافسة أهل الفساد والشر ومدافعتهم؛ نظراً لإيثاره السلامة وطلبه للنقاء! وهذا عطَّل كثيراً من المصالح وجلب كثيراً من المضار وجعل مواقف الدعوة سلبية وغير مؤثرة وداخل دائرة ضيقة. وما علم هؤلاء أن هدي الأنبياء والمرسلين هو نفع عامة الناس مؤمنهم وكافرهم، ما لم يكن في هذا النفع إعانة على باطل أو ظلم أو منكر. فالأصل الإحسان للخلق في دينهم وفي دنياهم بل وفي آخرتهم، فالشفاعة من هذا القبيل.

رابعاً: لجوء فريق من القوى الإسلامية إلى المفاهيم الغربية بديلاً عمَّا يطرحه الإسلام، والعمل في إطار مرجعيتها الفلسفية والأخلاقية، ظناً منهم أن ذلك نوع من المعاصرة التي يأمر بها الدين! ويحاول بعض هؤلاء مزاوجة كثير من المفاهيم المنحرفة بمفاهيم الإسلام لإثبات صلاحية الإسلام لكل عصر ومصر وفئة. ولو أن هؤلاء يميزون بين الإيجابي والسلبي، وبين النافع والضار، وبين المشترك الإنساني البدهي والمصطنع الوضعي الموصوف بالمشترك الإنساني زوراً لهان الأمر،

بل لكان ذلك أدعى لخدمة الإسلام والمسلمين؛ إلا أن كثيراً من المتصدرين لهذا الأمر هُم من قليلي المعرفة بالشرع ومن سطحيي الثقافة بالموروث المعرفي الإسلامي. ومحاولتهم هذه تأتي نتيجة للانفتاح غير المسبوق الذي وفَّرته أجواء الاتصال ووسائل الإعلام بين الثقافات والشعوب، وكثرة الهجوم على الإسلام بوصفه ديناً رجعياً ومنغلقاً على حد زعمهم.

والأمثلة عدا ما ذُكِرَ كثيرة، لكن القصد هو تبيين مدى الأخطاء التي تتولد عن بُعد العاملين للإسلام عن سياسة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام. وهي سياسة من الوضوح والبيان والكمال والصلاح ما يجعلها جديرةً بالاقتداء والتأسي. ولعل أبرز ما يميز هذه السياسة النبوية هو:

أولاً: التعاطي مع معطيات الواقع وحقائقه:

إن السياسة لا تقوم بدون واقع؛ فميدان السياسي هو الواقع القائم، وليس التاريخ ولا الخيال ولا الأماني المجردة. وعليه فإن أهم ما يجب أن يستجيب له السياسي هو الحقائق الواقعية والمعطيات المتاحة له قَدْر الإمكان وبحسب ما يغلب به الظن. لذلك فيجب على السياسي أن تتوفر له الرؤية المتكاملة لمفردات الواقع وجزئياته حتى يُلِم بكليَّاته وعمومياته. وهذه الرؤية يجب أن تتجدد مع كل تغيُّر يطرأ أو تحوُّل يتم، لأن من شأن ذلك أن يغير المعادلة أو المسار. والحديث في هذا الباب يطول. ولو تتبعنا قصص الأنبياء وسيرة الرسول الكريم ﷺ لوجدناها مليئة بالأدلة على قيام موقف الأنبياء وأفعالهم وأقوالهم على معرفة بالوقع وفهم لأبعاده.

ثانياً: استحضار السنن والتعامل معها:

فمن حكمة المولى - عز وجل - أن جعل حركة الكون وعجلة التاريخ ومسار البشرية محكومة بسنن وقوانينَ ثابتة يمكن إدراكها وتتبُّعها، وفهم العلاقة بينها، وسبر شروطها وعلاماتها. وهي حق لأن منشأها الحق سبحانه. ولله - تعالى - متى شاء وكيف شاء أن يخرقها لحكمة يراها - سبحانه - وليبين قدرتَه وآياتِه للناس؛ لكن ذلك حالة استثنائية لا ينبغي للناس أن يتَّكلوا عليها أو يُلغوا من أجلها سنن الله وقوانينه الثابتة. لذا فقد سار الأنبياء في دعوتهم وإصلاحهم للمجتمعات وحركتهم في مقاومة الباطل وجنده مستلهمين السنن وآخذين بالأسباب قدر استطاعتهم وبأقصى ما يمكنهم، والإشارات إلى هذا المعنى في القرآن الكريم والسنة المطهرة كثيرة جداً. وإنَّ من المهم اليوم قيام المتخصصين من أبناء الإسلام باستخلاص سنن الله في الكون (الطبيعية والاجتماعية)، في صيغ قانونية تهدي العاملين وتعين السالكين في محاولة لأسلمة علوم النفس والاجتماع والتاريخ والسياسة والاقتصاد وغيرها.

ثالثاً: اعتبار مصالح الناس ومنافعهم:

إن مدار بقاء الجنس البشري على الأرض يقوم على أساسين اثنين: صلاح الدين، وصلاح الدنيا، بجلب المنافع ما أمكن ودرء المضار ما أمكن. وصلاح الدين يكون بالإيمان، وصلاح الدنيا يكون بالطاعة أو الدخول تحت الشريعة العامة. ومصالح الناس في أي مجتمع وفي أي زمان ليست أجزاء منفصلة بل هي منظومة مترابطة ديناً ودنياً، فرداً وجماعة، فكراً وسلوكاً، حاضراً ومستقبلاً، قدراً وشرعاً. فإذا ما نُظِر للمصالح بهذا الاعتبار كان من الضروري التعامل معها بمنطق الاعتبار والموازنة والترتيب والشمول. ومدار الشريعة - كما يُجمِع العلماء - مصلحةُ الخلق، كما أن مدار العقيدة بيان الحق. والمصلحة مبحث عظيم من مباحث الفقه الإسلامي الذي يشمل كل نواحي الحياة قصداً وحكماً. وإغفال مصالح الناس تضييع لحقوقهم وضرر على دينهم؛ لذلك كان الأنبياء (أنفع) الخلق للخلق، وأرشدهم (لمصالحهم).

رابعاً: السعي في تطويع الناس للشرع:

وهذا أعظم من أن يوضَّح؛ بل هو مقصود الرسالة، والدعوة وأساليبها، والتشريع وتدرُّجه، والعبادات وتنوُّعها، والعقيدة وأخبارها، والجهاد وصوره، والسياسة ومداراتها. بل إن مقصود الله - تعالى - بالنعم التحبب إلى عباده ليطيعوه رغم غناه عنهم. وهذا التطويع لا يحدث في يوم وليلة، ولا يكون بدون مقدمات وشروط، ولا تغيب عنه المتابعة والترشيد، ولا يقفز على حقيقة الإنسان وما يحمل من طبائع وغرائز وما يتلبس به من خطأ ونسيان وغفلة وذنب.

إن سعة الشريعة لا تتوقف عند شموليتها لكل جوانب الحياة، بل شموليتها لكل أحوال الإنسان، وكل أصناف الناس، واختيارُ الأنسب لكل فرد من الفتوى والتعليم أو للحال سنةُ الأنبياء والمرسلين. ومن مقاصد الاجتهاد النبيلة في الإسلام الاستجابة للأحوال التي يقف فيها الناس حائرين بين خيارين: إما الدخول تحت الشرع وإما الخروج عليه، لمصلحة أو لضُرٍّ، أو لخوف وإكراه، أو لرغبة ومحبة! ليعلم الناس أن الشرع لا يعارض مصلحة محققة يقينية، ولا يتجاهل ضرراً حقيقياً قطعياً، ولا حالة خوف أو إكراه، ولا رغبة ومحبة لا يشوبها معصية. وبهذا الاجتهاد حافظ علماء المسلمين على تديُّن الناس حفاظهم على الشرع نصوصاً ومقاصد وأصولاً وقواعد.

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله – في كتابه (إعلام الموقعين عن رب العالمين): «إنَّ النبي ﷺ شَرع لأمته إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه، وأبغض إلى الله ورسوله، فإنه لا يسوغ إنكاره، وإنْ كان الله يبغضه ويمقت أهله». ويضيف: «فإنكار المنكر أربع درجات: الأولى: أن يزول ويخلفه ضده. الثانية: أن يقلَّ وإن لم يَزُل بجملته. الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله. الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه. فالدرجتان الأولَيان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة»، ثمَّ يقول: «فإذا رأيتَ أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلاَّ إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله كرمي النشاب وسباق الخيل ونحو ذلك؛ وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب وسماع ومكاء وتصدية فإذا نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد، وإلاَّ كان تركهم على ذلك خيراً من أنْ تفرغهم لما هو أعظم من ذلك، فكان ما هم فيه شاغلاً لهم عن ذلك، فكما إذا كان الرجل مشتغلاً بكُتُب المجون ونحوها وخفتَ من نقله عنها انتقالَه إلى كتب البدع والضلال والسحر فدعه وكتبَه الأُولَى، وهذا باب واسع». ويستشهد الإمام بشيخه فيقول: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه، ونوَّر ضريحه – يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي، فأنكرت عليه، وقلت له: إنَّما حرَّم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال... فدعهم».

فأين مثل هذا الفقه عن قادة بعض القوى الإسلامية الذين ينكرون على الناس اليوم ممارسات في السياسة تنكر الظلم والفساد والاستبداد وإن لم تصل بهم إلى إقامة الشريعة والمطالبة بها، مع كونه عاجزاً عن أن يقيمها هو ومن معه، أو أن ينكر من الشر ما أنكروا! في حين لو انصرف كثير من الناس عمَّا يقومون به من مقاومة الظلم والفساد لانشغلوا بفساد أعظم ولتمكن الفاسدون من إغوائهم وتمكين باطلهم.

أليس قرب الناس من قيم ومبادئ وأخلاق الإسلام – وإن لم يدخلوا فيه – خطوة بالاتجاه الصحيح، لأن بين الإيمان والكفر مسافة قد يقرب فيها الإنسان تارة من الكفر وتارة من الإيمان؟ لا شك في ذلك. بل إن صفات الخير والعدل والصدق والأمانة وغيرها تُمتَدَح في الكافر والفاسق كما تُمتَدَح في المؤمن والطائع، والشواهد من السُّنة والسيرة على ذلك كثيرة.

إن حاجة الناس اليوم إلى سياسة راشدة تستلهم سياسة الأنبياء مع قومهم بكل درجاتهم وفئاتهم، ومع مخالفيهم بكل تنوعهم ومدى بعدهم وقربهم، ومع ظروف الزمان والمكان: ماسة جداً. بل لا أبعد كثيراً إن قلت: إن ما كتب في مجال السياسة الشرعية قديماً بحاجة إلى التجديد والمراجعة والاجتهاد بمشاركة كافة المتخصصين الذين يعنيهم الأمر قبل أن تظهر على السطح نتوءات جديدة وآراء شاذة أو متطرفة أو قاصرة تعيد عجلة الإصلاح أو تعيق مسارها.

السياسة: قدرة وعلم:

إن السياسة موقف وفعل ينطلقان من حكمة وقدرة. فمن لم يكن حكيماً لم يكن سياسياً، ومن كان حكيماً ولم يكن قادراً كان صاحب رأي وليس سياسة. وإذا كان الأنبياء ساسة لأتباعهم فإنهم يتحلَّون ابتداء بهاتين الصفتين: القدرة والحكمة. قال – تعالى – واصفاً بعض أنبيائه: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥].

وهاتان الصفتان هما مدار الشخصية (الكارزمية)، أي الشخصية المؤثرة في الآخرين تأثيراً إيجابياً نابعاً من قدرتها على الإقناع والسيطرة. وهذه الصفة – تحديداً – هي ما يحتاجه القائد؛ لذا فإن تعليل نبي الله لبني إسرائيل بأفضلية طالوت للمُلك استند إلى مبدأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وعالم السياسة عبر التاريخ يبرز جناحين اثنين: جناح القوة وجناح المعرفة، فهما آلة التحليق إلى السلطة. لذلك فإن أي سلطة قامت على وجه الأرض لم تغفل عدتها من هذين السلاحين بكل صورهما وأشكالهما، على تفاوت نسبي بينها. وهذا ما أشار إليه يوسف – عليه الصلاة والسلام – وهو يطلب من ملك مصر موقعاً في السلطة: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، ولا يكون حفيظاً على شيء إلا إن كان قادراً على صيانته والدفاع عنه.

فمبنى الموقف والفعل في السياسة إذن على القدرة والمعرفة، ومن هنا نفهم لماذا جاءت التكاليف للرسول الكريم ﷺ وأتباعه في الشأن السياسي متوازية مع قدرة الجماعة المسلمة ومعارفها دون أي أمر آخر.

فمراعاةً لعدم القدرة أُمِرَ أصحاب محمد ﷺ بأن يكفُّوا أيديهم عن الدخول في صراع مع قريش تكون عواقبه كارثية على الدعوة. وفي ظل عدم التمكُّن وُجِّه أصحاب الرسول ﷺ

لتلمُّس الأمن في الحبشة، وهي البلاد الكافرة التي يسود فيها العدل والأمن. وفي ظل غياب القوة تُرك ضعفاء الصحابة لمواجهة مصيرهم في مكة دون إحداث فتنة، وأُمِر آخرون بالتستر بدينهم، وأجيز لآخرين النطق بكلمة الكفر كرهاً. ونتيجة تراجع قوة الإيمان المعنوية في الأتباع خفف عن المسلمين في القتال، ومع تنامي هذه القوة والقدرة زادت التكاليف واتسعت. والأمثلة التي يمكن رصدها في مكة والمدينة حول هذا الشأن كثيرة.

ومن أجل المعرفة ظلت الآيات تتنزل في الأحداث لتبين سبيل المجرمين وأعداءَ الدعوة الصرحاء ووسائلهم الماكرة وظلمهم الوحشي، لا من منطلَق النظرية المجردة بل من منطق الحقيقة القائمة؛ وتبيِّن آلية التعامل معهم والموقف من أفعالهم.

ففي معرض حث القرآن الكريم للمؤمنين على القتال يقول - تعالى -: ﴿ **أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾. [التوبة: ١٣]

وعَقِب عرض جملة من أعمال كفار قريش في سورة الأنفال: من مكر في سبيل سجن الرسول أو قتله أو إخراجه، وسخرية منه ومن ما أنزل عليه من الحق، وصدهم عن المسجد الحرام، وانحرافهم في شعائر التعبد إلى حد العبث غير المفهوم، وإنفاقهم الأموال للصد عن سبيل الله... قال - تعالى -: ﴿ **لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ** ﴾ [الأنفال: ٣٧]، حاثاً المؤمنين بعد ذلك على قتالهم: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وبعد قيام المجتمع الإسلامي وبروز ظاهرة النفاق كان لا بد من إيضاح الظاهرة بكل أبعادها وتتبُّع مساراتها في الأحداث والمواقف ليعلم المسلمون حقيقة المنافقين، من خلال صفات ثابتة ودلائل واضحة: ﴿ **فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَائِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا** ﴾ [النساء: ٨٨ - ٩١]. وبهذا المنهج الذي ترسمه الآيات يُتعَاطى مع أصناف المعادين للدعوة والمناصبين لها العداء في ضوء معرفة وعلم وبيِّنة من الأمر.

وفي شأن توصية المجتمع المسلم بالحفاظ على قوته يبين القرآن نوعين من الأعداء: المعلوم بصفته وعينه (وهو العدو الصريح)، والمعلوم بصفته لا بعينه (وهو العدو الخفي)، وبذلك يصبح إعداد القوة سياسياً مبني على معرفة شاملة وحذرة. يقول - تعالى -: ﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴾ [الأنفال: ٥٥ - ٦٠].

وهكذا نجد أن متعلق السياسة الأكبر هو طبيعة المجتمع والبيئة المحيطة به، وطبيعة الصراع وحجمه. فالأُولَى تمثل الفرص والأخرى تمثل المخاطر. وإذا قررنا سلفاً أن السياسة هي تدبير يكون معه الناس أصلح أو أقرب للصلاح، فإن هذا التدبير يختلف تقديراً من شخص لآخر بحسب قدرته وعلمه، وقوته ومعرفته. وكُلَّما كان (الفاعل السياسي) أتمَّ قدرة وأكمل علماً كان أثره أكثر إيجابية ونفعاً.

وهكذا نجد أن السياسة في الإسلام تتفق في بعض معانيها مع التعريف القائل بأنها (فن الممكن)، لكنه ليس الممكن كيفما اتفق! بل هو الممكن من مراحل الإصلاح، الممكن المتطور نمواً إذا ما توفرت الأسباب لا المتراجع تدهوراً طلباً للأدنى والخسيس!

وإذا كان مدار العبادة يقوم على القدرة ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ومدار التقوى يقوم على القدرة ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ** ﴾ [التغابن: ١٦]، فإن السياسة التي تتعامل مع المتغير، والمتناقض، والمتشابك، وغير المتحكَّم به، وغير الممكن توقُّعه، أَوْلى بهذا المبدأ. فقيادة مجتمع إنساني تحت ضغوط الصراعات والتغيرات أمر يندر من يستطيعه ويكون مؤهَّلاً له. فـ «الناس كإبل مائة لا يجد الرجل فيها راحلة»[1].

(١) أخرجه مسلم.

السياسة الراشدة امتداد للسياسة النبوية:

والسياسة الراشدة النابعة من قيادة مؤمنة ملتزمة مؤهَّلة هي امتداد للهدى النبوي والسنة النبوية، لذلك زكَّى الرسول ﷺ سياسة الخلفاء الراشدين بقوله: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ»[1]. فقوله: «سنة الخلفاء الراشدين المهديين» فيه دلالة على أمرين: التوفيق الرباني (المهديين)، والتأهل المكتسب (الراشدين). فإذا ما نبعت السياسة عمَّن شهدت له الأمة بهاتين الخصلتين كانت سياسته سُنةً متبَعةً وامتداداً لسنة الرسول الكريم ﷺ، وليس استقلالاً لذاتها ولكن للشهادة التي أناطها الرسول ﷺ بالوصفين لا بالأسماء: (الراشدين المهديين)، وفي مقدمة هؤلاء: الخلفاء الأربعة، ومنهم: عمر بن عبدالعزيز، ومنهم المهدي المنتظر، وعيسى بن مريم بعد نزوله. فهؤلاء جميعاً خلفاء راشدون مهديون في الأمة، وربما شهدت الأمة لغيرهم ممن يستلهم هداهم ويقتفي أثرهم.

والسياسة بهذا المعنى ليست شرعة مبتدَعة ولا بدعة مشرَّعة، بل هي جزء من التجديد الذي عناه الرسول ﷺ في حديث: «إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمةِ عَلَى رَأْسِ كُلِ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِدُ لَهَا دِينَهَا»[2]، وجزء من صلاحية واستيعاب الدين لمستجدات الحياة ومتغيراتها، التي أنيطت مهمة تحقيقها بأهل العلم. فـ (العلماء ورثة الأنبياء) يقومون بسياسة الناس بالتدبير الذين يكونون عليه أصلح أو أقرب إلى الصلاح في زمانهم وظرفهم حسب قدرتهم.

وعن هذا المعنى يتحدث ابن تيمية - رحمه الله تعالى - فيقول عقب كلام طويل: «وهذا باب التعارض باب واسع جداً؛ لا سيما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة وخلافة النبوة، فإن هذه المسائل تكثر فيها، وكلما ازداد النقص ازدادت هذه المسائل. ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمة؛ فإنه إذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقع الاشتباه والتلازم، فأقوام قد ينظرون إلى الحسنات فيرجحون هذا الجانب وإن تضمن سيئات عظيمة، وأقوام قد ينظرون إلى السيئات فيرجحون الجانب الآخر وإن ترك حسنات عظيمة، والمتوسطون الذين ينظرون الأمرين قد لا يتبين لهم أو لأكثرهم مقدار المنفعة والمضرة، أو يتبين لهم فلا يجدون مَن يعينهم على العمل بالحسنات وترك السيئات، لكون الأهواء قارنت الآراء؛ ولهذا جاء في الحديث: «إن

(١) المستدرك للحاكم: ١/٢٨٨.

(٢) رواه أبو داود في سننه (رقم: ٤٢٩١)، وصححه والألباني في السلسلة الصحيحة (رقم: ٥٩٩).

الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات».

فينبغي للعالِم أن يتدبر أنواع هذه المسائل، وقد يكون الواجب في بعضها - كما بيَّنتُه في ما تقدم - العفو عند الأمر والنهي في بعض الأشياء، لا التحليل والإسقاط؛ مثل أن يكون في أمره بطاعة فعلاً لمعصية أكبر منها، فيترك الأمر بها دفعاً لوقوع تلك المعصية؛ مثل أن يرفع مذنباً إلى ذي سلطان ظالم فيعتدي عليه في العقوبة بما يكون أعظم ضرراً من ذنبه، ومثل أن يكون في نهيه عن بعض المنكرات تركاً لمعروف هو أعظم منفعة من ترك المنكرات، فيسكت عن النهي خوفاً أن يستلزم ترك ما أمر الله به ورسوله مما هو عنده أعظم من مجرد ترك ذلك المنكر.

فالعالِم تارة يأمر، وتارة ينهى، وتارة يبيح، وتارة يسكت عن الأمر أو النهي أو الإباحة؛ كالأمر بالصلاح الخالص أو الراجح، أو النهي عن الفساد الخالص أو الراجح، وعند التعارض يرجح الراجح كما تقدم، بحسب الإمكان؛ فأما إذا كان المأمور والمنهي لا يتقيد بالممكن - إما لجهله وإما لظلمه - ولا يمكن إزالة جهله وظلمه، فربما كان الأصلح الكف والإمساك عن أمره ونهيه، كما قيل: إن من المسائل مسائل جوابها السكوت، كما سكت الشارع في أول الأمر عن الأمر بأشياء والنهي عن أشياء حتى علا الإسلام وظهر؛ فالعالِم في البيان والبلاغ كذلك، قد يؤخر البيان والبلاغ لأشياء إلى وقت التمكُّن، كما أخَّر الله

– سبحانه – إنزالَ آيات وبيانَ أحكام إلى وقت تمكُّن رسول الله ﷺ من بيانها؛ ويبين حقيقة الحال في هذا أن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥]، والحجة على العباد إنما تقوم بشيئين:

بشرط التمكن من العلم بما أنزل الله، والقدرة على العمل به؛ فأما العاجز عن العلم كالمجنون، أو العاجز عن العمل فلا أمر عليه ولا نهي، وإذا انقطع العلم ببعض الدين أو حصل العجز عن بعضه كان ذلك في حق العاجز عن العلم أو العمل بقوله كمن انقطع عن العلم بجميع الدين أو عجز عن جميعه كالمجنون مثلاً.

وهذه أوقات الفترات، فإذا حصل من يقوم بالدين من العلماء أو الأمراء أو مجموعهما كان بيانه لما جاء به الرسول شيئاً فشيئاً بمنزلة بيان الرسول لما بعث به شيئاً فشيئاً، ومعلوم أن الرسول لا يبلِّغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، ولم تأتِ الشريعة جملة كما يقال: إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع.

فكذلك المجدِّد لدينه والمحيي لسنته لا يبالغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يلقَّن جميع شرائعه ويؤمَر بها كلها، وكذلك التائب من الذنوب والمتعلم والمسترشد لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين ويذكر له جميع العلم فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يطقه لم يكن واجباً عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجباً لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه جميعه ابتداء بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان، كما عفا الرسول عما عفا عنه إلى وقت بيانه، ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل، وقد فرضنا انتفاء هذا الشرط، فتدبر هذا الأصل فإنه نافع.

ومن هنا يتبين سقوط كثير من هذه الأشياء، وإن كانت واجبة أو محرمة في الأصل لعدم إمكان البلاغ الذي تقوم به حجة الله في الوجوب أو التحريم، فإن العجز مسقط للأمر والنهي وإن كان واجباً في الأصل والله أعلم. ومما يدخل في هذه الأمور الاجتهادية علماً وعملاً: أن ما قاله العالم أو الأمير أو فعله باجتهاد أو تقليد فإذا لم يرَ العالم الآخر والأمير الآخر مثل رأي الأول فإنه لا يأمر به أو لا يأمر إلا بما يراه مصلحة، ولا ينهى عنه إذ ليس له أن ينهى غيره عن اتباع اجتهاده، ولا أن يوجب عليه اتباعه، فهذه الأمور في حقه من الأعمال المعفوة لا يأمر بها ولا ينهى عنها بل هي بين الإباحة والعفو وهذا باب واسع جداً فتدبره»[1].

وإذا كان العالم أو الوالي المتوفرة فيه شروط الولاية تنزل سياسته بمنزلة سياسة الرسول ﷺ مع أصحابه وقومه وزمانه؛ إلا أن هذا لا يعني أن يخرج بسياسته عن الدين تأسيساً وتقييماً. وغاية ما هناك أن يكون حال الناس بها أصلح أو أقرب للصلاح: ديناً ودنياً، فإذا لم يتحقق هذا المعنى خرجت عن الدين.

ومن عجيب هديه ﷺ أنه لما صُدَّ عن الحرم في صلح الحديبية قال: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاؤوا مادَدتُهم مدة ويخلُّوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا في ما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ولينفذن الله أمره». فسياسته ﷺ سياسة عقل راشد ومنطق حكيم، حتى أن عروة بن مسعود لما بلغه هذا العرض من الرسول ﷺ على قريش – في رسالة شفهية حملها بُدَيل بن ورقاء الخزاعي لهم – قال: «أيْ قوم ألستم بالوالد»، قالوا: بلى! قال: «أَوَلست بالولد». قالوا: بلى! قال: «فهل تتهموني؟». قالوا: لا. قال: «ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومَن أطاعني»، قالوا: بلى! قال: «فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد، اقبلوها، ودعوني آته»، قالوا: ائته. فلما أتاه ورأى حاله مع أصحابه عاد ليقول لقريش: «أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله! إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله! إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشدٍ فاقبلوها». بمثل هذه السياسة قامت دولة الإسلام للرسول ﷺ ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وعلى منوالها سار الخلفاء الراشدون فأقاموا إمبراطورية إسلامية من تخوم السند شرقاً وحتى المحيط الأطلسي غرباً، وإنه لن تقوم للإسلام دولة بشعارات مجردة ووعود جوفاء بل بسياسة على منهاج النبوة.

(١) انظر: مجموع الفتاوى: ٥٨ – ٦١، من كتاب: أصول الفقه، التمذهب: تعارض الحسنات أو السيئات أو هما جميعاً إذا اجتمعا ولم يمكن التفريق بينهما، فكلامه بطوله نفيس وقيم.

نماء

منهج بناء الشخصية الإسلامية
من الرضاعة إلى ما بعد الجامعة

للمربين..
..للأسرة..
..للدعاة

بمشاركة فريق من الباحثين المختصين

أولادي والتقنية

بناء قيادات اجتماعية فاعلة

كيف نبني داعية مؤثراً؟

أريد بناء الخلق الحسن لدى ابنتي

ابني المراهق وعلاقته بالله

كيف أجعل طفلي منظما.

إعداد مؤسسة
المربي
ALMURABBI

إخراج و تصميم
BN
www.BNet.ws

2012... والخريف الأمريكي

فيصل بن علي الكاملي(*)
popedia@windowslive.com

مضى عام منذ أن انقدحت شرارة الثورات في العالم العربي فتغيرت خريطته السياسية إلى حدٍّ لم يكن في حسبان المراقبين ولا المحللين السياسيين؛ ولا تزال آراؤهم تتردد بين المبارِك والمشكك. في هذه الأثناء كانت الساحة الغربية تشهد مواجهات بين بعض الحكومات وشعوبها جراء الحيف الاقتصادي الذي أصبحت تعانيه شعوب العالم عموماً، ولعل من أشهر هذه المواجهات ما يجري في الولايات المتحدة الأمريكية من اعتصام معارضين يُعرَفون باسم حركة «احتلوا وول ستريت!».

وبصرف النظر عن حقيقة هذه الحركة والأقطاب التي توجِّهها كـ «مايكل مور» وغيره، إلا أنها تُعَد إرهاصاً لأزمة كبيرة قد تنتهي إلى خريف أمريكي(١). والحديث هنا ليس من قبيل ما يتخرصه بعض الحزَّائين من أن أمريكا ستنتهي في عام ٢٠١٢م بناء على عدد الأحرف أو الأسطر في سورة ما من كتاب الله – عز وجل – وكأننا في مدراش يهود؛ بل ما أودُّ عرضه هنا هو مجرد قراءة للواقع الأمريكي بناء على معطيات ملموسة، قد أُصيب فيها وقد أُخطئ.

تشير إحدى الوثائق(٢) التي سُرِّبت مؤخراً في الولايات المتحدة الأمريكية إلى أن شركة المقاولات الشهيرة «كيلوج براون آند روت» KBR تسعى إلى تفعيل معسكراتٍ كانت قد بُنيَت لصالح «الوكالة الفدرالية لإدارة الطوارئ» و «فيلق مهندسي الجيش الأمريكي» في أنحاء الولايات المتحدة. يأتي هذا بعد إقرار مجلس الشيوخ للبند ١٠٣١ من «قانون ترخيص الدفاع القومي للسنة المالية ٢٠١٢م» The National Defense Authorization Act for the Fiscal Year ٢٠١٢م، والذي يمنح الحكومة الحق في القبض على المواطن الأمريكي وحبسه في معسكرات اعتقال، بل وإرساله إلى «جوانتانامو» دون محاكمة إن استدعى الأمر ذلك(٣).

وقد كانت وزارة الأمن القومي بالولايات المتحدة قد تعاقدت عام ٢٠٠٦م مع شركة «كيلوج براون آند روت» لبناء معسكرات اعتقال مختصة بالتعامل مع احتمال «تدفُّق طارئ للمهاجرين داخل الولايات المتحدة» أو «برامج جديدة»(٤) لم تفصح عنها.

(*) باحث سعودي متخصص في دراسة الأديان – يعمل في مركز الدراسات والبحوث التابع لمجلة البيان.

(١) في نظري أن حركة «احتلوا وول ستريت» لا تعدو كونها فتيلاً لإشعال أزمة أمنية داخل الولايات المتحدة.

(٢) اقرأ الوثيقة على الرابط التالي:
http://static.infowars.com/2011/12/i/general/kbr-doc.pdf

(3) http://www.ng.mil/ll/analysisdocs/FY2012/House%20Report%20112-74.pdf

(4) http://www.marketwatch.com/story/kbr-awarded-homeland-security-contract-worth-up-to-385m

لكن عدداً من المحللين السياسين يرون أن السبب الحقيقي وراء تفعيل هذه المعسكرات هو أن أمريكا مقبلة على أزمة اقتصادية حقيقية قد تتحول إلى فقر مفاجئ قد يتسبب في ثورة شعبية واسعة. لكن هذه الثورة ستجابَه بالقمع من قِبَل حكومة أمريكية فاشية مرتقبة. ولعل ما يتعرض له محتجو «وول ستريت» من ممارسات قمعية تتعامى عنها وسائل الإعلام العربية والعالمية (لأسباب غير بيِّنة) يمنحنا صورة مصغرة لما قد تؤول إليه الأمور في الأشهر القادمة.

مما يشهد لهذه الاستعدادات قيام شرطة نيويورك بعقد «تدريبات تعبئة» استعداداً لعصيان مدني محتمل داخل الولايات المتحدة، وكذلك إطلاقها برنامجاً جديداً مصمَّماً لاكتشاف أي مؤشرات تمرد على شبكات التواصل الاجتماعي. كما حَشَدت وحدة السيطرة بشرطة نيويورك قواتها من كل أنحاء المدينة لتدريبهم على ردود الفعل المناسبة في حالة «اندلاع أعمال شغب لا تمكن السيطرة عليها»[1]. بل إن أحد الألوية من فرقة المشاة الثالثة في الجيش الأمريكي بالعراق قد استُدعي إلى الولايات المتحدة «للمساعدة في التصدي لأي اضطرابات مدنية، أو لكبح جماح الجماهير، أو للتعامل مع سيناريوهات رهيبة محتملة: كالتسمم واسع النطاق أو الفوضى العارمة جراء انفجار كيميائي أو بيولوجي أو إشعاعي أو نووي...»[2].

وقد صرحت صحيفة «واشنطن بوست» في مقال نشر عام ٢٠٠٨م بأن «الجيش الأمريكي يتوقع بحلول عام ٢٠١١م وجود ٢٠٠٠٠ جندي بزيه الرسمي داخل الولايات المتحدة، مدرَّبٍ على مساعدة مسؤولي الدولة والمسؤولين المحليين في التصدي لأي هجوم إرهابي نووي أو كارثة محلية أخرى»[3].

يضيف المقال أن انتشار الجيش في حالة الطوارئ المحلية يُعَدُّ «أول مثال على اتساع السلطتين الرئاسية والعسكرية، وتشديد الرقابة الداخلية»؛ ولذا حذر نائب رئيس «معهد كاتو» Cato Institute «جين هيلي» من «عسكرةٍ زاحفةٍ» للأمن القومي في الولايات المتحدة[4].

قريب من هذا ما نشره «معهد الدراسات الإستراتيجية» التابع لكلية السلاح العسكرية بالولايات المتحدة في تقريره المعنون «المجهولات المعلومة: «صدمات إستراتيجية» غير تقليدية لتطوير إستراتيجية الدفاع»[5]. يحذر التقرير من أن الولايات المتحدة قد تتعرض لاضطرابات مدنية خطيرة في أعقاب سلسلة من الأزمات أسماها «صدمات إستراتيجية»، وأنه قد يلجأ إلى الجيش لقمع الفوضى الناتجة. يقول كاتب التقرير (المقدَّم المتقاعد «ناثان فرير»):

«سيؤدي العنف المدني الواسع داخل الولايات المتحدة [إذا ما حصل] إلى إكراه مؤسسة الدفاع على إعادة ترتيب الأوليات عند اللزوم في سبيل الدفاع عن أدنى متطلبات الاستقرار الداخلي والأمن البشري».

وفي حوار أُجرِي مع «زبيجنيف بريجنسكي» على قناة MSNBC تنبأ مستشار الأمن القومي الأسبق باضطرابات داخل الولايات المتحدة نتيجة أزمة اقتصادية قد تُحدِث تغييراً جذرياً في مستوى الحياة المعيشية في الولايات المتحدة، ودرجةً من الفقر كفيلةً بإثارة اضطرابات داخلية تكون فيها هلَكةٌ عَرَّض بها «بريجنسكي» ولم يشأ أن يصرح. قال «بريجينسكي»:

«لا أود أن أكون نذير هلاك، ولا أظن أننا نقترب من هلاك؛ لكن أظن أننا نهوي في صراعات اجتماعية محتدمة، وعداوات اجتماعية، وشكل من أشكال الراديكالية؛ سيكون ثمة شعور أن هذا المجتمع ليس مجتمعاً عادلاً»[6].

لا شك أن اضطراب الاقتصاد في الولايات المتحدة ستكون له تداعياته في الدول المرتبطة بالدولار الأمريكي، وقد يؤدي هذا إلى أن تبحث تلك الدول عن بدائل أكثر استقراراً، وهو ما سيشكل ضربة قاصمة لاقتصاد الولايات المتحدة؛ عندها ستنعكس هذه التداعيات مباشرة على «إسرائيل» التي تقتات على الدعم الأمريكي، وقد تشاطرها الفقر.

أما تحول أمريكا من دولة ديمقراطية إلى دولة فاشية فهو محتمل، بل وشيك، وقد يحدث في ظل حكومة «أوباما»؛ خصوصاً إذا علمنا أن حركة «احتلوا وول ستريت» وأمثالها من الحركات أصبحت تصنَف من قِبَل بعض المسؤولين في الولايات المتحدة وبريطانيا على أنها «جماعات إرهابية» وليست تعبيراً سلمياً عن مطالب ديمقراطية. وإذا أصبح هذا قانوناً عندها سيكون التعامل مع الشعب المطالب بحقوقه كالتعامل مع الجماعات «الإرهابية»، وحينها تنفجر الأزمة.

(1) http://www.metro.us/ArticlePrint/942885?language=en
(2) http://www.armytimes.com/news/2008/09/army_homeland_090708w/
(3) http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2008/11/30/AR2008113002217.html
(4) http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2008/11/30/AR2008113002217_2.html?hpid=topnews
(5) http://www.strategicstudiesinstitute.army.mil/Pubs/Display.Cfm?pubID=890
(6) http://www.clicker.com/tv/morning-joe/how-income-disparity-can-lead-to-unrest-1945416/

المطلوب من العلماء والدعاة بعد الثورة

د. هشام عقدة(*)

1

لا شك أن اندحار الباطل نعمة عظيمة تستوجب الشكر كسائر النعم، وقد سجد بعض السلف شكراً لما بلغه موت الحجاج، وقد قال – تعالى –: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] ونحن أشد ما نكون حاجة للزيادة لأن الطريق لا يزال طويلاً وشاقاً، والخطوات نحو استكمال الثورة لا تزال كثيرة وشائكة؛ فيجب استفراغ الجهد في الشكر باللسان والقلب والجوارح. أما الوقوع في الزهو والتعالي – سواء التعالي على عموم الناس أو تعالي بعضنا معشرَ الدعاة على بعضنا الآخر – والوقوف عند الإعجاب بالثورة – والتي لم نبدأها نحن وإنما بدأها غيرنا – فهو أمر لا تدوم معه نعمة ولا تستقر معه قوة، كما قال – تعالى –: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

2

ومن الأمور الهامة المطلوبة من العلماء والدعاة: التلاحم مع الشعب وتأييده في مطالبه التي تقرُّها الشريعة وإعانة جميع المظلومين في الحصول على حقوقهم.

ومما يتحقق به التلاحم المنشود حُسْن التعامل مع جمهور النـــاس؛ فذلك مما يقرِّبهم ويؤثر فيهـــم. أما الانقباض عنهم والجفاء فهما السبيل لانفضاض الناس عنا ولو كنا أتقى الناس، وقـــد قال الله – تعالى – لخير خلقه محمد ﷺ ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيـظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِـكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فلنقترب من الناس، ولنقترب للجادين من شباب الثورة ليزدادوا رفعة بتعلم الدين والالتزام بتعاليمه وينضمـــوا لقافلة الدعاة إلى تحكيم شـــريعته، وحذار حذار من ســـوء التعامل مع الناس في هذا الوقت بالذات؛ فقد يعزوه بعض العامة لارتفاع الضغط الأمني وأن حُسْن الخلق معهم قبل الثورة كان خوفاً لا تديناً.

(*) عضو الهيئة الشرعية للحقوق والإصلاح – مصر.

ومن حسن التعامل إبداء الابتسامة والبشاشة والاحترام للكبير والصغير والعالم والعامي في غير موطن إقرار على فاحشة أو معصية أو استهزاء بالدين.

ومن التلاحم مع الشعب فضُّ النزاع بين المتنازعين، وحل مشاكل الناس، ومساعدة المحتاجين... إلى غير ذلك من الخدمات الاجتماعية التي كان النظام البائد يمنعنا منها خوفاً من ميل قلوب الناس لأهل الدين؛ حتى وصل الحال لاعتقال شباب الدعاة الذين يزورون دور الأيتام في الأعياد، أو الذين حاولوا تقديم خدمات إغاثية للمنكوبين في الزلزال.

ومن التلاحم مع الشعب الالتفاف بالنصح والعون حول من تظهر استقامتهم وجديتهم من المسؤولين الحكوميين قبل أن تؤثر فيهم بطانة السوء.

3 **الانطلاق الدعوي في المساجد وغيرها:** وقد كان ذلك مجرَّماً في نظام الطاغوت المخلوع، وكم من معتقَل قد زجوا به في غياهب السجون لتحفيظه القرآن للشباب أو إنكاره بالحسنى على من سب الدين أو لقيامه بتعليم أحكام الإسلام للناس أو لذهابه مع بعض أحبابه وجيرانه في رحلة تربوية إلى غير ذلك من صور الطغيان في الصد عن سبيل الله. وقد صار كلُّ ذلك متاحاً الآن، فلا يليق بنا تضييع الفرصة أو التراخي في ذلك مهما كانت المشاغل الشرعية الأخرى؛ فالدعاة وطلبة العلم كثيرون - بفضل الله - ويمكنهم توزيع الأدوار في ما بينهم؛ فنرى دروس ومراكز العلوم الشرعية في كل مكان؛ حيث يتعايش أهل العلم مع طلبتهم ولا نكتفي بالفضائيات أو التعليم عن بعد، كما يجب النشاط في دعوة الأفراد وتربيتهم وتكثير المحاضن العلمية والتربوية، كما ينبغي أيضاً الاهتمام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح للخلق؛ لإشاعة السنة والطاعة ومحاصرة البدع والمعاصي، كل ذلك بالرفق ما أمكن والحكمة والموعظة الحسنة والبيان الواضح الذي يقيم الحجة ويزيل الشبهة. هذا كله بالإضافة لاستمرار التواصل مع الناس عبر الفضائيات والإذاعة والصحف ومواقع التأثير الاجتماعي وغيرها على شبكة «الإنترنت».

4 **الترخيص الرسمي لكل ما نحتاج له لنصرة الدين والقيام بمصالح الناس من هيئات أو أنشطة أو صحف وقنوات**، والمشاركة القوية في المجالس المحلية ومجلس الشعب - ووجوب تأييد المسلمين لأهل الدين المشاركين في ذلك بمنحهم أصواتهم طبقاً لفتاوى كبار أهل العلم الذين علَّموا الأمة منهج السلف كابن باز وابن عثيمين وغيرهما - رحم الله الجميع - تقليلاً للشر والمخالفات التشريعية دون مجاملات على حساب العقيدة، وكذلك النقابات واتحادات الطلاب والنوادي المهنية وغيرها من أماكن التأثير والتوجيه مما كان يمنعه النظام السابق عن أهل الدين إلا من شهد لهم جواسيس النظام بالاستعداد لمسايرة الظالمين. أما الآن فيمكن استثمار الفرصة في الترخيص لهيئات شرعية وجمعيات دعوية وخيرية وحقوقية، وكتاتيب لتحفيظ القرآن، ومراكز إسلامية متعددة الأنشطة، ومدارس خاصة، ودور نشر، ومعاهد علمية، وترخيصات خطابة، بل وتكوين أحزاب بشرطها الشرعي من عدم قول أو فعل الباطل ومن عدم التعصب أو عقد الولاء والبراء عليها. قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «وأما رأس الحزب فإنه رأس الطائفة التي تتحزب (أي تصير حزباً)؛ فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم. وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا، مثل التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل، والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم؛ سواء كان على الحق والباطل. فهذا من التفرُّق الذي ذمه الله - تعالى - ورسوله»[1].

ولا يشغب على هذا قول البعض: إن الحزب السياسي يختلف عن هذا لاشتراط القانون عدم قيامه على أساس ديني! فإن ذلك غير مانع من استطاعتك وضع برنامج للحزب غير مخالف للشريعة؛ وذلك بعدم كتابة الألفاظ التي يرفضها قانون الأحزاب دون أن تكتب ما ترفضه الشريعة؛ فالفرق كبير بين عدم الكتابة وكتابة العدم؛ فعدم الكتابة حصل على يد الرسول ﷺ في صلح الحديبية حين أمر الكاتب أن يمحو «بسم الله الرحمن الرحيم» ويكتب «باسمك اللهم» وحين محا «محمد رسول الله» وأمر علياً أن يكتب «محمد بن عبد الله»

(١) مجموع الفتاوى: ١١/٩٢.

لما اعترض المشـــركون على المكتوب أولاً. وأما كتابة العدم فهو مثل كتابة أن الله ليس برحمن ولا رحيم، تعالى الله عن ذلك، ومثل كتابة أن محمداً ليس برســـول الله، حاشا وكلا صلوات ربي وسلامه عليه. وأما الاعتراض بمنع كثير من الباحثين من تكوين أحزاب سياســـية مطلقاً - إسلامية أو غير إسلامية - في ظل دولة الخلافة التي تحكم بكتاب الله وشريعته ووجود أهل الحـــل والعقد، فذلك ليس في محل النزاع بل المناط قد انعكـــس حيث إن كلامنا في أحزاب تعمل على نقل البلاد من العلمانية (التي يســـمونها الآن في مصر «الدولة المدنية») إلى حكم الشريعة، ومن حياة البعد عن الدين إلى الحياة بالدين[1]. ونختم هذه النقطة بالتنبيه للموســـرين من المسلمين بضرورة دعمهم لجميع هذه المؤسسات قياماً بدورهم في نصرة الدين والتمكين له، واحتساباً للأجر والثواب عند الله تعالى.

5 التجاوب السريع مع المعطيات الجديدة على الساحة، وهو ما يقتضي خطاباً جديداً يجيب عن أسئلة الحائرين ويزيل الشبهات التي تمارسها عصابات العَلمانية وفلول النظام الساقط وإعلامه الخبيث، ومن ثَمَّ فنحن بحاجة لتناول أمور عديدة في هذا الوقت، لنقول للناس: «هذا ديننا»، أذكر منها - على سبيل المثال -:

• أن الدولة في الإســـلام ليســـت «ثيوقراطيـــة أو دينية بالمفهوم الغربي» حيث يؤلَّه الحاكم الذي هو رجل الدين، والذي يمثـــل بذاته المرجعية والمنهج فيحلـــل ويحرم بهواه كما يحلو له على النحو الـذي عليـه الأحبار والرهبان، وليست دولة مدنية لا يحكمها الدين؛ وإنما هي - تحديداً - «دولة إسلامية» يحكمها شـــرع الله الذي يخضع له الحاكم والمحكوم معاً ويحاكَمان إليه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّـا أَنزَلْنَـا عَلَيْكَ الْكِتَـابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِـي ذَلِكَ لَرَحْمَـةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُـونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]، فلا وجـود للدولـة الإســـلامية بغير تحكيم شـريعة الله، ولا يصح إيمان ولا توحيد مع الصدود عن حكم الشريعة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]؛ فلا خيار للمسلم أن يكون إســـلامياً أو ليبرالياً أو اشـــتراكياً، وما كان في أصحاب رســـول الله ﷺ إســـلامي وغير إســـلامي، بل كانـــوا يفهمون ويمتثلون جميعـــاً قول الحق - جل وعلا -: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِينًـا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فقولوا لكل من يختارون نهجاً غير إســـلامي: هل تريدون تحليل ما حرم الله؟ فإما أن يقولوا: نعـــم، فيعلنوا كفرهم وتنفضُّ عنهم الأمة، وإما أن يقولوا: نريد الإسلام وحكمه، فقد لزمتهم الحجة بتعريفهم بأحكامه، ونقول لهم: أنتم إذن إسلاميون مثلنا؛ فلماذا تتمسكون باسم ليبرالي أو اشتراكي؟

• أن الإســـلام دين العدل ولا مجال فيه للتجاوز عن ظلم الحاكم للمحكوم أو ظلم الأقليات غير المســـلمة؛ بل أمرنا الله بالبر والإقساط إليهم ما سالمونا وجعل لهم الحق في التحاكم إلى شـــريعتهم في أمورهم الخاصة إذا شـــاؤوا. وإن التاريخ الإسلامي ســـجل فصل القاضي بين أمير المؤمنين بشخصه وآحـــاد الرعية وأن الحكم ربمـــا كان لصالح فرد في الرعية غير مســـلم ضد أمير المؤمنين؛ لا لأن أمير المؤمنين كان ظالماً وإنما لعـــدم وجود بينة عنده على دعـــواه ثم تظهر الحقيقة باعتراف المدعي وتبرئته أمير المؤمنين وإعلانه من ثَمَّ الدخول في الإســـلام. بل لم ينتزع رســـول الله ﷺ حماره من أعرابي حتى جاء من يدلي بشـــهادته أنه ﷺ قد اشترى هذا الحمار من ذلك الأعرابي.

• أن الإســـلام دين الخُلُق، حتى قال المصطفى ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[2]، وهذه هي الحضارة الحقيقية وذلك عندما يسود المجتمعَ الأخلاقُ الرفيعة.

• أن الإســـلام دين الإيجابية التـــي تقتضي إيصال النفع للناس وقضاء مصالحهـــم، والاجتهاد في العمل وإتقانه، ومن ثَمَّ فهو دين النهضة والحضارة فقد قال رسول الله ﷺ: «خير الناس أنفعهم للناس»[3]، وقال: «خير الكســـب كسب يد العامل إذا نصـــح»[4]، وقال: «إن الله يحـــب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنـــه»[5]، وقال: «ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده»[6]، وحث على الاســـتمرار في العمل إلى آخر لحظة يعيشـــها الإنســـان على الأرض معلماً إيانا سعة مفهوم معنى

(١) انظر: «الأحكام الشرعية للنوازل السياسية»، رسالة دكتوراة للدكتور عطية عدلان.

(٢) صحيح الجامع الصغير، (٢٨٣٣).
(٣) المصدر نفسه، (٣٢٩٨).
(٤) المصدر نفسه، (٣٢٨٣).
(٥) المصدر نفسه، (١٨٨٠).
(٦) المصدر نفسه، (٥٥٤٦).

العبـــادة التي يحصل بها الأجر والثواب، وأن طريق المؤمن إلى الله طريق واحد يعمل فيه عمل الدنيا وعمل الدين فقال: «إن قامت الســـاعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها[1]، وقال: «أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله – عز وجل – سرور تدخله على مسلم، أو تكشـــف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً؛ ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إليَّ من أن أعتكف في المســـجد شـــهراً، ومن كف غضبه ســـتر الله عورته، ومن كظم غيظاً، ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضاً يوم القيامة، ومن مشـــى مع أخيه المسلم في حاجة حتى يثبتها له، أثبت الله – تعالى – قدمه يوم تزل الأقـدام، وإن سـوء الخلـق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل»[2].

• أن الإســـلام دين الوفاء وحفظ العهود. قال – تعالى –: ﴿ **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْـئُولاً** ﴾ [**الإسـراء**: ٣٤]، وفي حال ظهور علامات الريبة وبوادر الخيانة من العدو المعاهد وتصبح المصلحة في إنهاء العهد فلا بأس بذلك بشرط إعلامهم بإنهاء عهدهـــم قبل قصدهم بقتال حتى لا نقع في الغدر أو الخيانة ولو مع كافر، كما قـــال – تعالى –: ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِـن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَـوَاءٍ إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** ﴾ [**الأنفال**: ٥٨]، وكان ﷺ حين يبعث بالجيـــوش يوصيهم بقوله: « ... ولا تغدروا ..»، وكان ﷺ قـــد عقد جواراً لبني عامر، فلما قتل عمرو بن أمية الضمـــري رجلين منهـــم التزم ﷺ بديتهمـــا فجمعها وأداها لقومهما مع كونهم مشركين، وذلك للجوار الذي عقده لهم[3].

• أن الإســـلام دين القصد والاعتدال: وقد أنكر ﷺ على من يصوم ولا يفطر ومن يصلي فلا يرقد ومن امتنع من الزواج، فقـــال: «أما أنا فأصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأتزوج النســـاء فمن رغب عن سنتي فليس مني»، وقال «مه، عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا»، وقال: «أحب الأعمال إلـــى الله أدومها وإن قل»، وقال: «التؤدة والاقتصاد والســـمت الحسن جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة»[4]. والاقتصاد – كما قال المناوي رحمه الله –: التوســـط في الأمور والتحرز عن طرفي الإفراط والتفريط[5]. والسنة في هذا مبيِّنة للقرآن تارة ومؤكدة تـــارة؛ فالله – تعالى – يقول في كتابه: ﴿ **فَاسْـتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا** ﴾ [**هود**: ١١٢]، فالغلو في الدين بزعم الاستقامة طغيان منهيٌّ عنه كما في ظلال القرآن؛ وذلك أن المقصود بالطغيان هنا – كما في تفسير القرطبي – مجاوزة الحد، ولا يتصور ذلك في الاســـتقامة إلا على جهة الغلو، ومن ذلك التجبر علـــى الكافر في قول بعض المفســـرين، وقد ذم القرآن المســـرفين على الإطـلاق، فقـــال – تعـالى –: ﴿ **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ [**الأعراف**: ٣١]، وأكد على التوسط فقال: ﴿ **وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴾ [**الإسـراء**: ٢٩]، وقـــال – تعالى –: ﴿ **وَلا تُبَـذِّرْ تَبْذِيـرًا ۝٢٦ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّـيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا** ﴾ [**الإسراء**: ٢٦ – ٢٧] ومـــن ثَمَّ فالاقتصاد والاعتدال في الإســـلام فوق أنه منهـــج لرفض الإفراط أو الغلو فـــي الدين كرفض التفريط أو التميع، فهـــو منهج لبناء اقتصاد قـــوي للأمة بالمحافظة على مقدراتها وثرواتها لكن بالتوازن مع كفاية الرعية بما يكفل لهم الحياة الكريمة.

• إعـــلاء الإســـلام لقيمة الفـــرد: حتـــى أن الرجل من المســـلمين كان يجير المشرك أو يؤمنه فيُمضي رسول الله ﷺ جواره، وكان يقول: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهـــم...»، ومن إعلاء قيمة الفـــرد أنه ﷺ أجلى يهود بني قينقاع عن بكـــرة أبيهم من أجل امرأة آذوها، وبايع الصحابة بيعة الرضوان من أجل رجل واحد، حتى قيل: إنه بايعهم على الموت حين بلغه أن مشـــركي مكة احتجـــزوا عثمان – رضي الله عنـــه – وقتلوه[6]، ويحكي لنا التاريـــخ كذلك أن الخليفة المعتصم سيَّر جيشـــاً عظيماً إلى الروم من أجل امرأة قالت: «وامعتصمـــاه»، وبمثل هذا المنهج يعيـــش كل فرد من الرعية كريماً عزيزاً شاعراً بحماية الدولة له وإعلائها لقيمته.

• إعلاء الإسلام لقيمة المرأة: حتى أن امرأة من المسلمين أجارت مشـــركاً فقال ﷺ: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»، وقال ﷺ موصياً بالنســـاء ومكرِّماً لهن: «اســـتوصوا بالنساء خيـــراً»[7]، وقال أيضاً: «خيركم خيركم للنســـاء»[8]، والحديث في هذا يطول.

• مراعاة الإسلام للواقع والظروف الاستثنائية: كحالات

(١) صحيح الجامع، (١٤٢٤)، والسلسلة الصحيحة.
(٢) صحيح الجامع، (١٧٦).
(٣) سيرة ابن هشام: ٣/١٤٣.
(٤) صحيح الجامع، (٣٠١٠).
(٥) فيض القدير: ٣/٢٧٧، حديث رقم (٣٣٨٩).
(٦) سيرة ابن هشام: ٣/٢٦٢.
(٧) الحديث في الصحيحين.
(٨) صحيح الجامع، (٣٣١٦).

الضـــرورة والإكراه وما يوقع النـــاس في الحرج؛ فجعل لذلك أحكاماً تتضمن التيســـير ورفع الحـــرج وإباحة المحظور عند الضرورة ورفع الإثم عن المكره، مع تفصيل في كل ذلك تذخر به كتب الفقه الإســـلامي العظيمة وتراثه الضخم، بما يقطع الألســـنة الخبيثة ولا يُبقي مجالاً لمتنطع يريد أن يشغب على المسلمين بأن هناك مسائل سيصطدم بها الفقه الإسلامي ولا يجد لها حلاً.

• حرص الإســـلام على حُسْـــن المظهر والنظافة وصحة البدن: فالرســـول ﷺ يقول: «إن اللـــه جميل يحب الجمال»؛ وذلك لما خشـــي أحد الصحابة أن يكون حبُّه للنعل الحســـن والثوب الحســـن من الكبر، وكان لرسولنا ﷺ حلة يتجمل بها للوفود وكان يحث المســـلمين على اتخـــاذ ثوب خاص للجمعة وعلى التنظف للجمعة بالاغتسال، فضلاً عن الوضوء للصلوات وغسل اليد عند القيام من النوم قبل وضعها في الإناء، وتقليم الأظافر، وحلق شـــعر العانـــة والإبط، وإكرام شـــعر الرأس بتنظيفه وتســـويته، فقال ﷺ: «من كان له شعر فليكرمه» كل ذلك دون غلو أو تشبه في شكل أو هيئة بالمشركين أو الفساق لقوله ﷺ: «من تشـــبه بقوم فهو منهـــم»[1]. كما كان ﷺ يهتم بنظافة المساجد والدور بل بالطريق أيضاً فيأمر بإماطة الأذى عنه، وينهى عن قضاء الحاجة في طريق الناس أو ظلهم وعن التبول في الماء الراكد، وقد اشـــتد غضبـــه حين رأى نخامة بالمســـجد... إلى غير ذلك من مظاهر الحرص على النظافة. كمـــا أَوْلَى ﷺ الصحة والبدن عناية خاصة فثبت عنه ﷺ أنه مارس أنواعاً من الرياضة كالمســـابقة في الجري والمصارعة، كما أرشد لما يحافظ به المرء على بدنه وصحته فقال: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، حسب الآدمي لقيمات يقمن صلبه؛ فإن غلبت الآدمي نفســـه، فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنَفَس»[2]، وحث على التداوي من المرض فقال: «تداووا عباد اللـــه؛ فإن الله – تعالـــى – لم يضع داء إلا وضع له دواء، غير داء واحد، الهرم»[3].

• أن الإســـلام دين الرحمة: الرحمـــة بالرعية، والرحمة بالخدم والعبيد، والرحمة بالأطفال، والرحمة بالبهيمة ولو كانت تساق للذبح، والرحمة بالحيوانات غير الفواسق التي أمر بقتلها، فأخبرنا ﷺ عن امرأة دخلت النار في هرة حبســـتها؛ فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشـــاش الأرض. كما أخبرنا عن بغيٍّ من بغايا بني إســـرائيل غفر الله لها بسقيها الماء لكلب كان يلهث الثرى من شدة العطش. ويضيق المقام عن الاستطراد وسَوق النصوص الكثيرة في ذلك، وصدق الحق – جل وعلا – إذ يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

مما ســـبق يتبين أمر هام يجب التأكيـــد عليه، وهو: أن الإسلام دين شـــامل للحياة، لم يدع جانباً منها إلا غطاه بما يكفيـــه من الأحكام والآداب، ومـــا ذكرت إلا غيضاً من فيض بقدر عدد الصفحات المتاحة للمقال في مجلتنا الغراء.

6 المحافظة على أهم مكتسبات الثورة، وهو تحرر الدعاة من هيمنة الأجهزة الأمنية وضرورة إدراك خطورة انفراد بعض من بيدهم السلطة في هذه الآونة من مدنيين أو عسكريين بكل فصيل من فصائل الحركة الإسلامية على حدة في مجالس خاصة قد تؤدي إلى فصل الإسلاميين عن الشارع والحالة الثورية من جهة، وكسب النظام المترنح والمرتبك لتأييدهم وتقويتهم له من جهة ثانية، وترويج التهم عنهم بالخيانة للثورة وعقد الصفقات مع النظام القائم للحصول على بعض المناصب على حساب استكمال الثورة من جهة ثالثة، وتفتيت كلمة الحركة الإسلامية ووحدتها من جهة رابعة، ثم يصبح كل فصيل بعد ذلك أسيراً للنظام متهرباً من إخوانه، ثم يؤول الأمر في نهاية المطاف بعد استقواء النظام واستقراره للتضييق على كل هذه الفصائل وإقصائها عن دائرة التأثير واتخاذ القرار وأخيراً البطش بهم والعودة إلى قهرهم في ظل الضعف والتشرذم الذي أرادوه لأنفسهم.

ولذلـــك فالواجب علـــى من دعي لمثل هـــذه المجالس أو اللقاءات الخاصة أن يرجع لإخوانه ويكون للحركة الإسلامية قرار موحد وترتيب متفق عليـــه لما ينبغي أن يقال وما ينبغي أن يرفـــض وما يمكن أن يقبل في هـــذه اللقاءات، مع رفض الاستسرار بها عن سائر الشعب.

وليس عيباً بالمشايخ ورموز الدعوة الإسلامية أن يستفيدوا من المتخصصين الأمناء في قراءة المشـــهد السياسي، بل حكم الشـــريعة يقضي علـــى المجتهدين بالرجوع لمستشـــارين في

(١) صحيح الجامع، (٦١٤٩).
(٢) صحيح سنن ابن ماجة (٢٧٠٤)، والسلسلة الصحيحة، (٢٢٦٥).
(٣) صحيح الجامع، (٢٩٣٠).

التخصصـــات المختلفة المتعلقة بالنازلة؛ فهم فيها أهل الذكر. وعلـــى كل عالم أو داعية الحذر مـــن الخطاب الارتجالي أو الانفعالي في هذه المرحلة، ومن الأحادية في الرأي التي يتبنى فيها كل شيخ ما ظهر له من آراء دون اعتداد بالرجوع لأصحاب التخصص ومراكز الأبحاث والدراسات الاستراتيجية والنبهاء المخلصين الذين عاشـــوا على الأرض وخبروا مختلف الفئات عن قـــرب وأحاطوا علماً بخبايا رجـــالات النظام وعلاقاتهم المختلفة، بل يجب تفعيل طريقة التفكير الجماعية والتشـــاور مع كل هؤلاء؛ فنوازل ما بعد الثورة مسألة إدراك واقع بمؤثراته المختلفة قبل أن تكون مسألة إلمام بالأحكام الفقهية يستأثر بها حملة الشريعة، وإذا نجحنا في ذلك فستصبح حركة المشايخ فـــي التجاوب مع الأحداث ســـريعة وقوية؛ بحيث يكونون في المقدمة والشباب وراءهم وليس العكس.

ولذلـــك لا بد من دراســـة الواقع الحالي وحُسْـــن فهمه وكيفية التعامل الأمثل معه دون خلط بين سلامة المنهج ومنهج السلامة، ومعرفة ماذا حققت هذه الثورة وأين مواقع أقدامها الآن، ومـــن أعداؤهـــا، ومن يحاولون اســـتغلالها لصالحهم، والدراســـة الواعية للأطـــراف الموجودة فـــي حلبة الصراع فـــي الداخل والخـــارج، وما هي الخطوات اللازمة لإفشـــال (الســـيناريو) الأمريكي المتكرر في إجهاض الثورات من خلال تنصيب أحد عملائهم؛ سواء أكان عسكرياً أو مدنياً.

بل ينبغي أيضاً من خلال دراسة الواقع على النحو السالف الوقوف على الفتاوى أو التوجهات التي ينبغي للعلماء والدعاة البت فيها في مرحلة لاحقة كبناء قوة اقتصادية ضاغطة ذات ثقل لصالح الحركة الإســـلامية، وتحديد مدى جواز انخراط الشـــباب المتدين من عدمه في صفوف الجيش والشرطة... إلى غير ذلك مما تدعو نتائج دراسة الواقع إلى تناوله.

ومما ينبغي أيضاً أن نخرج به من هذه الدراســـة: تحديد سلم الأولويات لقضايا المرحلة القادمة على المستوى السياسي والإعلامي والاجتماعي مع الأخذ في الاعتبار في حال ضلوع (الإســـلاميين) في التأثير أو الظهور في مؤسسات الحكم أن قبول الشـــعب لهم ولكل ما يريدون تقريـــره من أمور الدين والشـــريعة في البلاد سيكون ميســـوراً إذا نجحوا في إشعار الناس بالأمن، وتوفير المعيشـــة الكريمة لهم بما في ذلك رفع الأجـــور وتوفير الوظائف، وتقـــديم الخدمات الطبية اللائقة بكرامة الإنســـان مجانـــاً ودون تراخٍ، ومن ثَـــمَّ فلا غنى عن سياســـة عمر بن عبـــد العزيز - رحمه اللـــه - في الانتظار والتأنـــي قبل إخراج المُـرَّة للناس حتى تأتي الحلوة فيخرجها معها، ولا بد أيضاً مـــن التدرج وعدم حمل الناس على الحق جملة فيدمغوه جملة كما قال رحمه الله؛ بل يكفيه أن يقيم في كل يوم سُنة أو يميت بدعة حتى يستقيم الناس على الجادة.

7 وختاماً فلا بد من لجان التنسيق والتواصل بين فصائل الحركة الإسلامية، ومد جسور التعاون والتفاهم بينها، ليكون لنا ثقل ومواقف قوية موحدة، ونعمل على إذابة الاجتهادات الفردية من خلال هذا التواصل ومنع التعارضات، وهو ما يحقق لنا الاستمرار في قطف ثمار هذه الثورة، بل ويحقق لنا قوة ووجاهة كأصحاب موقف واحد وكيان اعتباري واحد في التواصل أيضاً مع التيارات الوطنية المختلفة التي أصبحت جزءاً من الساحة السياسية والتمكن من التأثير عليها والتنسيق في اتخاذ المواقف الموحدة الجالبة للمصالح والمانعة للظالمين من ظلمهم والمحبطة للمؤامرات الدولية وخطط العملاء. وفي ما يتعلق بمن دخلوا مجلس الشعب فلا بد من تحرُّكهم كتلة واحدة، ولا يصح بحال أن يتحركوا كتلاً مختلفة؛ فلا بد من الشعور بالمسؤولية والعمل على تجاوز هذا التحدي الكبير.

ثم فـــي خطوة لاحقة قد نتمكن بالســـعي الجاد المخلص من تطوير التواصل ولجان التنســـيق إلى هيئة جماعية قوية أو تقوية إحـــدى الهيئات الموجودة لتكون كذلك ولا تكون أقرب للشـــرفية، وينبغي أن تضم نخبة متميزة من كافة فصائل أهل السنة - الذين لم يسيروا في ركاب الحكام الذين لا يحكمون بشرع الله - والذين يتميزون بكونهم من أهل العلم الشـــرعي، أو من أصحاب النشاط الدعـــوي، أو من أهـــل الخبرة والفهم للواقع، ويـــزداد أفراد هذه الهيئـــة وتخصصاتهم وأوجه تأثيرهم شـــيئاً فشـــيئاً بالتوازي مع حصول التآلف واستقرار التنســـيق بينهم حتى تصبح كياناً قائداً للأمة ذا طابع مؤسسي يكون بمثابة أهل الحل والعقد في المجتمع.

هذا والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

حدود التعاون المشروع

بين الأطياف أو الأحزاب المختلفة داخل البلد الواحد

هشام برغش

بدايةً، هذا الموضوع لا يقصَد به تلك الأحزاب والأطياف ذات المرجعية الإسلامية؛ التي تعددت اجتهاداتها ورؤاها وبرامجها لتحقيق هدف واحد وأصيل؛ وهو سيادة الشريعة الإسلامية وتدشين نهضة إسلامية شاملة في كافة مجالات الحياة، كما لا يقصد به أيضاً تلك الأحزاب والأطياف التي لم تتبنَّ تلك المرجعية في برامجها وواقعها غير أنها لا تعاديها ولا تأخذ موقفاً مناوئاً لها ومحرضاً عليها، وهي في الوقت نفسه تسعى لتحقيق أهداف وطنية متفَق على مشروعيتها وأهميتها في النهوض بالأمة في نواحي الحياة المختلفة، إضافة إلى دورها في محاربة الفساد والمفسدين، وليس لها أهداف وتوجهات خارجية مريبة تُلبِسها لبوس الوطنية والشعارات الزائفة.

أقــول: لا يقصد بهذا الموضوع هــذه ولا تلك باعتبار أن هذا التعاون بين هــؤلاء وأولئك هو من بديهيات السياســة الشــرعية وحتميات المرحلة الراهنــة، وكذلك هو من طبيعة فروض الكفايات التي لا يســع كل أحــد القيام بها جميعها؛ فيقوم ببعض ما يحسنه ويســعه القيام به، ويتعاون مع غيره في ما لا يحسنه أو لا يسعه القيام به.

كما أنه بدون هذا التعاون وذلك التنسيق يفتح الباب على مصراعيه لرموز الفساد وأعداء المشروع الإسلامي والوطني لتحقيق مآربهم واستنســاخ الأنظمة البائدة والفاســدة التي أضاعت البلاد وأفســدت حياة العباد وعاثت في الأرض بكل صور الفساد.

بل إن مشروعية هذه الأحزاب وتلك الجماعات والأطياف المختلفــة تكون محل نظر إن لم تدرك هــذه الحقيقة نظرياً وتطبقها عملياً، وينال أصحابَها عندئذٍ نصيب وافر من قوله - تعالى - محذراً من التشيع والتفرق في الدين: ﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١ - ٣٢].

كما أنهم يتهددهــم التحذير الوارد فــي قول النبي ﷺ لحذيفة: «فَاعْتَزِلْ تلكَ الفِرقَ كُلَّهَا»[١].

ومما لا شك فيه أن التعددية السياسية المشروعة لا تعني التشــرذم، بل بينها وبين التشــرذم والاحتراب السياسي بون شاسع.

إذن مقصود الحديث إنما هو عن حدود التعاون المشــروع بين الأطيــاف صاحبة المرجعية الإســلامية، وبين تلك التي لــم تعلن صراحة قبولها بهذه المرجعية ابتداء، لكنها حســنة الرأي في الإسلام والمسلمين ولا تقف موقفاً رافضاً للإسلام ومحارباً له.

ومما لا شــك فيه أن أصول الإسلام وقواعده وما تمهد من هديه ﷺ القولي والعملــي تدل على أن الأصل العام في ذلك أنه لا إشــكال في التعاون معهم في كل ما كان من جنس التعاون على البر والتقوى: من محاربة الفساد ودفعه وتقليله، ورفع الظلم أو تخفيفه، والتصدي لأنظمة القهر والاســتبداد، ومناصرة لحقوق الإنســان، والســعي الحثيث لتحقيق العدل الاجتماعــي، والعمل على إحداث نهضة شــاملة في المجتمع في كافة المجالات ونواحي الحياة، والتعاون في ذلك مع سائر القوى الوطنية.

فهذا تؤيده قواعد الشريعة وكلام أهل العلم؛ والأصل في ذلك كله ما تمهد في قواعد الأصول من أن مبنى الشــريعة تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، واحتمال المفســدة المرجوحة تحصيلاً للمصلحة الراجحة، وأن الميسور لا يسقط بالمعسور، وأنه ما لا يدرك كله لا يترك جلُّه.

بل قد قرر العلماء في سبيل تحقيق المصالح الكلية أو دفع المفاسد الكبيرة أنه قد تجوز الإعانة على المعصية لا من جهة كونها معصية؛ بل لما تتضمنه من دفع معصية أكبر، كما ندفع الأمــوال إلى الكفرة نفتدي بها أســرانا من بين أيديهم، وقد أشار إلى هذا المعنى أئمة العلم من قبل[٢].

ولا شك أن صور التعاون مع هذه الأطياف كثيرة ومتعددة ومتفاوتة، ويمكن أن يتجاوز هذا التعاون مجرد التنســيق في بعض المواقف أو الاســتعانة الجزئية إلى درجة التحالف مع بعض هذه القوى والكيانات تحقيقاً لمصلحة أو دفعاً لمفسدة.

وقد تحالــف النبي ﷺ مــع خزاعة واســتعان بهم في ما هــو دون القتال[٣]، وهذا يعطي دلالة قوية على شــرعية التحالف السياسي مع المخالفين إذا اقتضت المصلحة ذلك، دون التخلــي عن جزء من هذا الدين؛ فالنبي ﷺ يقبل حلف خزاعة دون شرط واحد؛ حيث أظهر الموقف الثابت وَفْق خط الإسلام الذي لا يعين ظالماً، وإنما ينصر المظلوم.

وتظهر شــرعية التحالف السياســي في هذا الصلح من خلال بنــود ميثاقه، وهي من أقوى الأدلة على مشــروعيته؛ حيث جاء فيه: «أَنَّهُ مَنْ شَاءَ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ، وَمَنْ شَــاءَ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَهْدِ قُرَيْــشٍ وَعَقْدِهَا دَخَلَ»؛ حيث دخلت خزاعة حليفة لرســول الله ﷺ، وكانت تحمل كل مودة وتعاون له، وكانت خزاعة عَيبة[٤] رسول الله ﷺ مسلمها ومشركها، لا يخفون عليه شيئاً كان بمكة، وفي المقابل كانت

(١) جزء من حديث صحيح، أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة (٦/٢٥٩٥) ح (٦٦٧٣)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين (٣/١٤٧٥) ح (١٨٤٧).

(٢) ينظر: قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام: (١/٨٦).

(٣) حديث تحالفه ﷺ مع خزاعة أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجزية، باب نقض أهــل العهــد أو بعضهم العهد: (٩/٣٩٠) ح (١٨٨٥٩) من حديث ابن إسحاق، وأصله في صحيح البخاري؛ كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب: (٣/١٩٣) ح (٢٧٣١).

(٤) عَيبة الرجل: موضع سره، والذين يأتمنهم على أمره، ينظر: غريب الحديث، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم (١/١٣٨)، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الدكن، ط١ - ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

تحمل كلَّ عداء لقريش[1].

قال ابن حجر: « وفيه جواز استصحاب بعض المعاهدين وأهل الذمة إذا دلت القرائن على نصحهم، وشهدت التجربة بإيثارهم أهل الإسلام على غيرهم، ولو كانوا من أهل دينهم، ويستفاد منه جواز استصحاب بعض ملوك العدو استظهاراً على غيرهم، ولا يعد ذلك من موالاة الكفار ولا موالاة أعداء الله، بل من قبيل استخدامهم وتقليل شوكة جمعهم، وإنكاء بعضهم لبعض، ولا يلزم من ذلك جواز الاستعانة بالمشركين على الإطلاق »[2].

فالتحالف السياسي مع المخالفين: من تشكيل كتلة لخوض الانتخابات البرلمانية أو نحوها، أو تحديد موقف سياسي، أو تشكيل معارضة سياسية، أو التحالف على الإطاحة بنظام ظالم مستبد، فذلك مما تشهد له أصول الشريعة وقواعدها، وَفْق ضوابط شرعية استند إليها النبي ﷺ في تحالفاته.

وشرعية التحالف السياسي لا تقتصر على وجود دولة للمسلمين؛ فهو مشروع في كل مرحلة إذا اقتضت المصلحة ذلك؛ سواء كان بعد إقامة الدولة كتحالف النبي ﷺ مع يهود المدينة وخزاعة، أو في مرحلة الدعوة كتحالفه مع عمه أبي طالب، وشهوده لحلف الفضول، الذي أثنى عليه بعد بعثته.

ولا شك أن الأمر في هذا التحالف يحتاج إلى تفصيل ومحددات وضوابط، و اعتبار واقع هذه الجماعات، وطبيعة الشعوب، واختلاف الظروف المعاصرة، ومن ذلك:

- أن ما كان من هذه التحالفات على تحقيق أمر مشروع، التقت مصلحة الجميع في تحقيقه: كإسقاط طاغية أذل البلاد والعباد، أو دفع صائل، أو إخراج عدو داهم بلاد المسلمين فجأة؛ فاستباح بيضتهم أو بصدد أن يفعل ذلك، ولم يتضمن التزاماً على الاتجاه الإسلامي يغلُّ يده عن تبليغ دعوته أو إقامة دينه، فالأصل في هذا التحالف هو الإباحة. ويبقى النظر بعد ذلك في دراسة جدواه ومدى ما يمكن أن يحققه من مصلحة أو يدفعه من مفسدة، وفي ضوء نتيجة هذه الموازنة تكون الفتوى لصالح هذا التحالف أو ضده؛ فهو إذن على هذا النحو مما يدور في فلك السياسة الشرعية، وتتقرر شرعيته في ضوء الموازنة بين المصالح والمفاسد والعبرة فيه لما غلب.
- أما ما كان من هذه التحالفات على أمر غير مشروع: كالإعانة على الظلم، أو تدعيم نظم الجور، أو إطالة أعمار السياسات غير الإسلامية، أو إضفاء مشروعية زائفة على نظم غير مشروعة، أو إعطاء صبغة إسلامية مزورة لأعمال وممارسات غير إسلامية، أو تضمَّن التزاماً يضر بالمسلمين أو يغل يد الدعاة عن الصدع بالحق وإقامة الدين فهذا هو التحالف الممنوع، الذي تظاهرت النصوص الجزئية والقواعد الكلية على رده[3].

كما يجب التأكيد على ألا تكون في هذه التحالفات مع الأحزاب العَلمانية غير الغالية وغير المتطرفة موالاة ولا تودداً لها، ولا تكون مناصرتها من أجل إعزازها ورفع شأنها، بل من أجل رفع الظلم عن المسلمين فحسب[4].

ومن نافلة القول النصُّ على عدم مشروعية التحالف مع الأحزاب العلمانية الغالية والمتطرفة التي ترفض الإسلام جملة وتفصيلاً وتحاربه ولا يُختَلَف على كفرها؛ حيث إنه لا وجه للقول بجدوى مثل هذا التحالف مع مثل هذه الأحزاب؛ حيث إن هذا يتناقض ويتنافى مع ما تقرر من شروط الاستعانة بالمشركين، أن يكون المستعان به مأموناً حسن الرأي في المسلمين، فأما إذا لم يكن حسن الرأي في المسلمين، لم يُستعن به؛ لأن ما يخشى من ضرره أكثر مما يرجى من نفعه[5].

(١) ينظر: فتح الباري: (٥/٣٣٧)، ونيل الأوطار: (٨/١٨٨)، والاستيعاب، لابن عبد البر: (٣/١٤٢٨).
(٢) ينظر: فتح الباري: (٥/٣٣٨).
(٣) ينظر: التعددية السياسية، د.صلاح الصاوي، ص١٤١– ١٤٢، وهل الإسلام هو الحل؟ د.محمد عمارة، ص٩٢.
(٤) ينظر: الاستعانة بغير المسلمين في الفقه الإسلامي، د. عبد الله الطريقي، ص٢٥١.
(٥) ينظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية: (٣٥/١٥٥)، والأم: (٤/١٧٥)، ومختصر المزني ص٢٦٩ – ٢٧٠، و الكافي في فقه الإمام أحمد: (٥/٤٧٢)، وينظر ما تقدم، ص٦٧٧ وما بعدها، وص٧٢٨ – ٧٣٠.

ثم لا بد عند عقد التحالفات من التأكد من كون المسلمين أقوياء يصعب احتواؤهم أو تذويبهم، وأنهم قادرون على المحافظة على ذواتهم، فالتحالفات التي عقدها النبي ﷺ كانت شوكة المسلمين فيها ظاهرة، وهيمنة الإسلام متحققة.

ومما ينبغي استحضاره والانتباه إليه أن التحالفات التي عقدها النبي ﷺ مع الآخرين كانت لتغطية منعطف كبير في حياة الجماعة المسلمة، فتحالفه مع أبي طالب كان لحماية الدعوة والداعية، وحلفه مع اليهود في المدينة كان لحماية الدولة في بداية عهدها، وحلفه مع قريش في الحديبية كان للاعتراف بالدولة المسلمة كقوة حقيقية على مساحة الجزيرة العربية، والانطلاق بالدعوة نحو آفاق عالمية خارج الجزيرة[1].

وأخيراً فإنه ينبغي مراعاة أن حال السعة والاختيار يختلف عن حال الشدة والاضطرار، وأن حالات القهر والاستضعاف يسع الجماعة فيها ما لايسعها في حالة القوة والتمكين.

مع التأكيد على أن هذه الموازنات حمَّالة ذات أوجه، وأنها من دقائق الفقه وحقائقه وأغواره؛ فهي مزلة أقدام ومدحضة أفهام، ومن ثَمَّ فقد اختص بها أهل الحل والعقد من العلماء الربانيين والدعاة العاملين عند غياب الإمام الشرعي، وكذلك يرجع فيها إلى اجتهاد أهل الاجتهاد والنظر من قادة تلك الجماعات والأحزاب الإسلامية، مع الأخذ في الاعتبار مجموعة من الضوابط كما تقدم.

كما ينبغي التنبُّه إلى أن هذه من المسائل التي يتغير مناط الحكم فيها، ومن ثَمَّ يتغير الحكم فيها تبعاً لذلك؛ لأن حكمها جاء مرتبطاً بالضرورة أو الحاجة العامة التي تنزل منزلتها، أو المنفعة الظاهرة المأمونة.

وعلى القائمين على الأمر في التيار الإسلامي ممن يضطلعون - بحكم مواقعهم - بهذه الاجتهادات وتنتهي إليهم مسؤولية البت فيها؛ ألا يستبدُّوا فيه بقرار قبل استفراغ الوسع في الشورى وطلب النصيحة من كل قادر على إسدائها من أهل العلم وأهل الخبرة.

ويجب عليهم أن يدركوا أنهم يعالجون أمراً يحدد مستقبل العمل الإسلامي ومستقبل الأمة كلها من ورائه، ورُبَّ قرار راشد يُتخَذ في هذا المجال يقفز بالعمل الإسلامي سنوات إلى الأمام، وعلى النقيض من ذلك رُبَّ قرار أهوج يجهض مسيرته ويرمي بها إلى الوراء بضعة عقود.

وكم من مغلِق لهذا الباب بالكلية، وما درى أنه يعطل على الأمة كثيراً من المصالح الشرعية! وكم من فاتح لهذا الباب على مصراعيه وما درى أنه يُدخِل في دين الله ما ليس منه، ويميع القضية الإسلامية ويدخلها في عالم المزايدات والمساومات!

واللهَ - عز وجل - نسأل أن يجمع على الحق قلوب العلماء والدعاة، وأن يؤلف بين قلوب المسلمين وأن يجنبهم الفتن وأسباب النزاع والشقاق والفشل؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

(١) ينظر: الفكر الحركي بين الأصالة والانحراف، مصطفى الطحان، ص٣٨ - ٣٩، والمشاركة في الحياة السياسية في ظل أنظمة الحكم المعاصرة، د.مشير المصري ص٣١١.

الربيع العربي... إلى (الأسلمة)... أم (اللبرلة)...؟!

فهد بن صالح العجلان
Fsalehajlan@hotmail.com

بعد عقودٍ متوالية من السنين، جاء الربيع العربي لينفض (الحقوق والحريات) من تحت ركام الظلم والفساد والجبروت الذي خلفته تلك النظم الفاسدة، فأصبحت هموم الناس وأحاديثهم تدور حول تلك الحقوق التي كانت مغيبة في ما مضى؛ فلا حديث يعلو في مجتمعات المسلمين الآن فوق حديث الحقوق والحريات.

ولئن اتفقت كلمة كافة الناس على مبدأ (الحقوق والحريات) فإن ثَمَّ اختلافاً جذرياً بيِّناً حول الفلسفة التي تنطلق منها هذه الحقوق، والإطار الكلِّي الذي يحكمها ويضع حدودها؛ فكل اتجاه يسعى لتقديم نموذجه الفكري حاكماً وموجهاً لهذه الحقوق، ويوجِّه كافة الوسائل لإقناع الناس لتبني هذا النموذج الخاص.

كل المعطيات الواقعية تكشف أن إرادة جمهور الناس تبحث عن النموذج الإسلامي للحقوق والحريات، قد تختلف في تحديده وفي حجم تفاعلها معه لكن يبقى النموذج الإسلامي – أيّاً كان تفسيره – هو النموذج المحبَّب لتلك الشعوب؛ فالانتماء العميق للإسلام في نفوس أكثر الناس غرز فيها مغناطيساً جاذباً لأي رؤية حقوقية تنطلق من أحكام الإسلام ومبادئه.

لكن هذا لا يكفي، فالفكر الليبرالي يملك من المقومات الفكرية والحشد الإعلامي والسياسي والمالي والدعم الخارجي ما يجعله قادراً على تغيير مفاهيم الناس وإقناعهم بالنموذج الليبرالي؛ فحالة الحقوق والحريات التي أظهرت العمق الإسلامي الشعبي يمكن أن تكون نافذة لتسلل الليبرالية في نفوس المسلمين.

يستدعي هذا من الدعاة والعاملين للإسلام العناية بأمرين:

الأول: توضيح المفهوم الإسلامي للحقوق والحريات وإظهاره بشكل جلي وبيِّن حتى يكون الناس على بيِّنة من أمرهم، فلا تلتبس عليهم المفاهيم، فوضوح المعنى الشرعي كافٍ لأكثر الناس؛ لأنهم مؤمنون بالإسلام فيسلِّمون بكلِّ أحكامه ديانة وانقياداً لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، ولا تحتاج معهم سوى أن توضِّح المفهوم الشرعي وتكشف أيَّ لبس أو انحراف عنه؛ لأن حالهم ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وابتعاد كثيرين عن الإيمان بالمفاهيم الشرعية راجع بشكل أساسي إلى جهلهم بها أو التباسها عليهم.

الثاني: إقناع الناس بأن النموذج الإسلامي للحقوق والحريات هو الأقدر على حفظ حقوقهم، وعنده من الضمانات ما ليست عند غيره، وفيه من الخصائص ما يعمِّق من تأثيره بما تعجز عنه بقية النماذج، وهذا الخطاب نافع جداً لكثيرٍ من الناس الذين لديهم شكٌّ أو تردُّدٌ في تبنِّي النموذج الإسلامي فيضعفون عن المطالبة بالحقوق الشرعية لضعف قناعتهم به، كما أن مثل هذا الخطاب الواقعي العقلاني سيحفظ المسلِّمين لأحكام الإسلام من تسلل المفاهيم الليبرالية جرَّاء ضغط دلائلها وبراهينها.

هذان العاملان يُختَصران في (بيان الحكم الشرعي) و (إقامة الدلائل والبراهين عليه)، ولئن كان علماء الإسلام هم الأقدر على الجانب الأول، فإن المعنى الثاني يحتاج لمشاركة فئات أخرى من المتخصصين في القانون والعلوم السياسية والفكر والاقتصاد وبقية العلوم المعاصرة لإقامة منظومة علمية متكاملة من المفاهيم والدلائل والتجارب التي تكشف تفوُّق النموذج الإسلامي؛ ليزول الغبش عمن في قلبه شيء، ويزداد الذين آمنوا إيماناً.

فمعرفة الحكم الشرعي تختلف عن القدرة على البرهنة عليه؛ فليس أحدهما مرتبطاً بالآخر؛ فقدرة الإنسان على معرفة الحكم الشرعي لا تجعله قادراً على المحاججة في إثباته وإقناع الناس به؛ إذ هذا قد يتطلَّب مهارات وعلوماً إضافية لا تكون موجودة لدى العالِم بالحكم، وهذا ما يستدعي ضرورة التكامل بين المتخصصين بالشريعة والمتخصصين في بقية المجالات ليقوم كلُّ أحدٍ منهم بواجبه الشرعي.

كما أنَّ عدم اقتناع المسلم بعقلانية حكم شرعيٍّ ما، أو قدرته على الإقناع به لا يجيز له تجاوزه وتركه ولو بدعوى أن الأحكام الشرعية لا تخالف العقل والمصلحة؛ لأنه ليس بالضرورة يكون مدركاً لكل هذه المصالح في هذه اللحظة، كما أن فهمه وإدراكه ليس هو الحاكم على العقل والمصلحة.

لا شيء سيحفظ هذه الحقوق ويحقق ضمانات عميقة لها مثل إدراجها ضمن مفاهيم الإسلام وأحكامه؛ فالمفاهيم والقيم المحكومة بالإسلام تتميز بخصائص عدة، هي:

أولاً: أنها تكتسب صفة (الثبات) و (القطع) و (الوضوح) فتكون مفاهيمَ شرعيةً ربانيةً غير قابلة للنقاش؛ فلا تخضع لتصورات معاصرة أو اجتهادات لاحقة؛ فالنص القرآني والحديث النبوي قد قضى بها ولا معقب لحكم الله، وهي قضية ربما لا تشدُّ ذهن المسلم لأنه يراها بدهية، لكنه سيعرف قيمتها وفضلها حين يقرأ في مسيرة (الحقوق) التي قد عانت مخاضاً عسيراً في الفكر الغربي خلال تاريخه الصراعي الطويل معها، فغياب القطعيات جعل تحديد الحقوق معضلة فكرية عويصة؛ فمن الذي يحدد هذه الحقوق؟ سؤال يجيبه المسلم بكل استرخاء، لكنه يسبب إشكالاً عميقاً لدى كل من حيَّد الدين عن الحكم، فجاءت نظريات (الحقوق الطبيعية) و (القانون الطبيعي) التي رفعت جملة من الحقوق فجعلتها حقوقاً غير قابلة للنقاش، وليس لهذه النظريات من مستنَد سوى فكرة خيالية تقرر أن الإنسان يولد ومعه جملة من الحقوق، ولا شيء يثبت وجود هذه الحقوق سوى أنها يجب أن تكون موجودة! فهي في الحقيقة قد تبنت المفهوم الديني في القطع بهذه الحقوق لكنهم استنكفوا عن ربطها بالدين.

الثاني: أن المفهوم الإسلامي للحقوق يجعلها حقوقاً دينية ذاتية قبل أن تكون حقوقاً قانونية نظامية، فالمسلم يقوم بها ويلتزم بها ديانة لله ووقوفاً عند حدوده، وهذا يعطي الحقوق دعماً عميقاً لا تملك بقية النماذج أن تقترب منه؛ فالنظام القانوني مهما كان محكماً ومتطوراً فهو عاجز عن الوصول إلى تلك المناطق العميقة التي يصل إليها هذا الدين، فالحقوق بهذا المفهوم ترتكز على رقابة ذاتية يراقب المسلم فيها ربه، فتكون مستحضرة في الظاهر والباطن، في ما يثبت عند القانون وفي ما لا يقدر القانون على إثباته، تنشط لها النفوس، وتمارس عليها دوراً رقابياً احتسابياً نابعاً من الدين، فتجاوُز الحقوق

منكـــر يجب إنكاره من الجميع «مـــن رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يســـتطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان».

الثالـث: أن المجتمعات المســـلمة لا يصلح لها إلا المفهوم الإســـلامي للحقوق والحريـــات؛ فلئن نجحت منظومة الفكـــر الليبرالي في المجتمعات الغربية فهذا راجع لســـياقها الثقافي والتاريخـــي، وأما المجتمعات المســـلمة فهي عميقة التدين بالإسلام لا ترضى بغير الإســـلام بديلاً؛ ففـرض نمـــوذج مخالف لهـويتها لن يكون متقبَّـلاً وســـيواجَه بمعـارضات وإشـــكالات لن تُحَلَّ إلا بالنمـوذج الذي ينســـجم مـــع ذاتها وهويتها وتاريخها.

الرابـع: أن المطالبة بحكم الإســـلام لن تتوقَّف في مجتمعات المســـلمين إلا إذا حكم بالإسلام؛ فما دام أن الحكم في المجتمعات لغير الإســـلام فلن تتوقَّف هذه المطالبات، وقد تســـلك في ســـبيل ذلك وســـائل غير صحيحة وتؤدي لمفاسد وأضرار، أو تتبنى رؤى مغالية أو مخالفة للإسلام، وكلُّ الحلول لإيقاف هذه الوسائل ستبوء بالفشل، الحل الوحيد هو في التطبيق الصحيح للإســـلام، والذي يظنّ أن المجتمعات المسلمة ستحيِّد الإســـلام في الحكم كما حيَّدت المجتمعـــات الغربية الحكم الكنســـي فهو غارق في الوهـــم لأقصى أذنيه، وهـــو بعيد عن فهم طبيعة الإســـلام وعن إدراك عمق تأثيره في نفوس المسلمين.

خامســاً: أن الراية الإسلامية هي الراية الوحيدة التي يمكن أن يجتمع عليها الناس وتســـتمر في ثبات وضمان، وأما الرايات الأخرى فيمكن أن تجمع الناس في مرحلة زمنية معنية لكنها لا يمكن أن تستمر؛ لأنها باختصار راية مؤقتة يرتهن تأثيرها بعوامل مؤقتة تزول هـــذه الراية مع زوال تلك العوامـــل، وقد جرَّب العالم الإســـلامي رايات كثيرة تلاحقت سقوطاً، وسيتلاحق غيرها، وأما الراية العميقة في نفوس الناس وتاريخهم ومستقبلهم فهي الراية المرشحة لأن تكون محل وفاق.

يبقى أن ثَمَّ عاملين مُشكِلَين قد يكونا عامل إخفاق وتعثُّر للنموذج الإسلامي المعاصر:

العامل الأول: الخلل في التســـوية بـــين الحالة المثالية والوضع الاســـتثنائي: فيعاملهما الشخص على اعتبارهما حالة واحـــدة؛ فإما يغلو فيطالب بتطبيـــق الحالة المثالية الشـــرعية في كافة الأوضاع مـــن دون مراعاة لما تقتضيه الحاجـــة أو الضرورة أو الإمكان في تلك المجتمعات، ويتهم العاملين هناك بالقصور وتضييع الدين، وإما يفرِّط فيجعل الاســـتثناء هو الأصل، فينفي عن الشريعة كلَّ ما لا يمكن تطبيقـــه من الأحكام الشـــرعية، ويعيد تركيـــب المفاهيم الشرعية على وَفْق الحاجات المعاصرة.

إنهـــا غياب الرؤيـــة الواضحة والميـــزان الصحيح في التفريق بين حالتي (الأصل) و (الاستثناء) فالمسلم مطالَب بتطبيق أحكام الإســـلام بحســـب الإمكان والاســـتطاعة، ومطالب في الوقت نفســـه أن لا يحرِّف الأحكام الشرعية ولا يقوِّل الشـــريعة ما لم تقل، وهذا الخلـــط بارز للعيان بوضوح في المشـــهد الإســـلامي المعاصر وهو مؤذن بتنازع يؤدِّي إلى الفشل.

العامل الثاني: الاختلاف في مفهوم النموذج الإسلامي وحدوده: حيث يستغل بعض الزائغين الاختلاف الفكري بين العاملين للإسلام من أجل ضرب النموذج الإسلامي بكليته، فينفي وجود نموذج إســـلامي نظراً لاختلاف الناس فيه، وهذا يتطلَّب ضرورة التأكيد على الأصول الكلية والقواعد القطعية في النموذج الإسلامي، وتحكيم الخلافات فيه إلى المنهج القطعي في التعامل مـــع الخلافات ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، ويمكن وضع كثير من الآليات لحســـم مثل هذا الخلاف حين يكون الشخص فعلاً مؤمناً وموقناً بالنموذج الإسلامي؛ لكنه سيكون موهناً للواقعين تحت ضغط آلة المفاهيم الغربية.

فالخلط بين (الأصل) و (الاســـتثناء) في فهم الأحكام الشرعية تفريطاً أو إفراطاً، والخلاف في تحديد النموذج الإســـلامي للحكم: هو من التحديات الفكرية الخطرة التي قد تحدث فجوة عميقة تخلخل أســـاس النموذج الإسلامي في نفوس الناس.

ثلاثية القوة للحزب الإسلامي

أحمـــــد فـهـمـي
afahmee@hotmail.com

الحزب السياسي الإسلامي، لافتة تُرفَع بكثرة في أغلب الدول العربية والإسلامية هذه الأيام، تعدَّدت نماذجه وأطروحاته، وتنوعت إمكاناته وآثاره. كما انضم لقائمة مؤسسيه تيارات كانت رافضة له في يوم من الأيام؛ فلم يعد حكراً على تيار بعينه، بل أصبح حقاً وواقعاً لأغلب التيارات الإسلامية (سلفية كانت أَمْ إخوانية)؛ بحيث إن التقسيم التقليدي لتلك التيارات إلى (دعوية وسياسية) لم يعد ملائماً للتطور الحادث في الساحة الإسلامية؛ فالغالبية أصبحت «سياسية» بامتياز.

في مصر وحدها تمكَّنت ستة أحزاب إسلامية من الحصول على ترخيص رسمي في أشهر قليلة، وهي تشارك في الانتخابات البرلمانية الجارية، وهناك أحزاب أخرى لا تزال تحت التأسيس.

لكن ليست كل مشاريع الأحزاب الإسلامية يمكن وصفها بـ «الناجحة» لمجرد حصولها على الموافقة الرسمية؛ فأداؤها يتراوح ما بين القوة والضعف، وهو ما يجعل تحليل «قوة الحزب الإسلامي» مسألةً غاية في الأهمية، وتفتقر إلى البحث العلمي.

وإذا كانت الأحزاب الإسلامية هي في الأصل جماعات وتيارات دعوية تحولت (أو أسست) أحزاباً، فإن تحليل قوة تلك الأحزاب لن يكون بمنأى عن دراسة قوة تلك الجماعات نفسها، أو بمعنى أدق: دراسة مدى جاهزيتها لتأسيس أحزاب قوية.

السياسة والقوة:

تتعدد تعريفات السياسة ومداخل دراستها، وأحد تعريفاتها المبسطة هو: أن السياسة تبحث في شؤون السلطة ومن يمارسها ومن تُمارَس عليه، وهناك تعريف آخر يجمع ما بين السياسة وكلٍّ من السلطة والقوة، وهو: أن السياسة هي الأخذ بالقوة واستخدام السلطة أو التهديد باستخدامها، فلا سلطة إلا بوجود القوة، ولا سياسة بدون سلطة، وهو ما يعني أن السياسة في أحد وجهيها هي عملية استخدام للقوة، وفي وجهها الآخر هي سعي لامتلاكها.

ويذكر بعض علماء السياسة أن امتلاك أحد أطراف الصراع للقوة الحاسمة من شأنه أن يساهم في اختفاء الصراع، وهذا كله يدفع للتساؤل عن معنى «القوة» وكنهها من الناحية السياسية.

نقتبس هنا تعريفين فقط: أولهما تعريف الفيلسوف البريطاني برتراند رسل، وهو: القوة هي تحقيق النتائج المقصودة، فإذا كان هناك طرفان يتماثلان في رغباتهما، فإن الأقوى هو الذي يحقق من رغباته أكثر مما يفعل الآخر.

أما عالم الاجتماع ماكس فيبر فيعرِّف القوة بأنها: إمكانية فرض إرادة الإنسان على سلوك الآخرين، وكلما كانت الإمكانات متاحة كلما كانت القوة كبيرة. وفي صياغة أخرى للتعريف: إنها قدرة الشخص أو عدة أشخاص على أن ينقلوا إرادتهم إلى حيز التنفيذ الواقعي ضد رغبة الآخرين الذين يشاركون في العمل نفسه.

ثلاثية القوة:

استناداً إلى ما سبق فإن الحركات الإسلامية التي تنبثق عنها أحزاب سياسية بحاجة إلى مراجعة موازين القوى لديها، وبحاجة إلى أن تعرف نقاط قوَّتها وضعفها، فقدرتها على تحقيق النتائج المرجوة مرتهنة بما تملكه من قوة، وكذا فإن قدرتها على فرض رؤيتها وتصوراتها عن «الدولة» و «نظام الحكم» إنما تُستمَد من موارد القوة التي لديها ومدى قدرتها على توظيفها واستخدامها في تحقيق أهدافها.

لا يعقل ولا يمكن أن تكتفي الحركة بدوافعها الدينية ورغباتها المخلصة وأتباعها المتناثرين لكي تؤسس لعمل سياسي ناجح، بل يجب عليها أولاً معرفة ما يتطلبه ذلك

العمـــل من إمكانات وقوى في حدودها الدنيـــا، ثم مقارنة ذلك بما تملكه بالفعل، فإن كانت النتيجة سالبة فعليها - إن ظلت على الرغبة في ممارسة العمل السياســـي - أن تضع لنفســـها خطة زمنية تسعى خلالها لامتلاك مـــوارد القوة اللازمة لخوض غمار السياســـة. أما إن كانت نتيجةُ المقارنة موجبةً، فلا بأس أن تتهيأ وتتوكل على الله أولاً.

مـــن الصعب في مقال كهذا أن نحصر كافة موارد القوة التي تحتاجها الأحزاب السياسية الإسلامية لكي تمارس عملها بكفاءة، لكن ننتقى ثلاثة موارد فقط، لما لها مـــن أهمية خاصة، اثنان منها يتوفران قبل بدء العمل السياسي، والثالث يتوفر للحزب بعد فترة من ممارساته السياسية.

أولاً: قوة الدعوة:

بالطبـــع لا توجد أي إشـــارة لـ «الدعـــوة» كأحد موارد قوة الأحزاب السياســـية فـــي أي مرجع لعلم السياســـة؛ لكنها في الثقافة الإسلامية تأتي في المقام الأول؛ فهي الركن الركين الذي تستند إليه الأحزاب الإسلامية، وبدونها تفقد أهم موارد قوتها؛ ولذلك يتركز الهجوم على هذا المورد من قِبَل خصوم الإسلاميين تحت شـــعارات متعددة متوالدة، مثل: إبعاد الدين عن السياسة، اســـتخدام الدعاية الدينية، اســـتخدام أماكـــن العبادة للدعاية الانتخابية، حظر الأحزاب الدينية... إلخ.

وتتمثل قوة الدعوة في المجال السياســـي في عدة أمور، من أهمها:

الباعـث العقـدي: فالعقيدة هي المحـــرك للعمل الدعوي وهي المحفز له؛ فالإســـلامي يعمل ويتحرك ويدعو ويشارك في السياســـة وهو موصول بحبل الله، معتمد على الله متوكل عليه، متَّبع لدينه ناصر له مدافع عنه؛ فهو يتحرك لله مســـتعيناً بالله يبتغي رضا الله ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَـــرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]؛ لذلك فإن حسابات السياسي الإسلامي تختلف كلياً عن حسابات السياسي العَلماني؛ فالإســـلامي يمارس السياسة وهو يردد: «لا حول ولا قـــوة إلا بالله» ومعناها: لا تحوُّل للعبد من حال إلى حال ولا قوة له على ذلك إلا بالله، فهو يســـتحضر في مســـيرته السياسية قولـــه - تعالى -: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنـــدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨] ﴿قُلْ حَسْـــبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْـــتُ﴾ [التوبة: ١٢٩]، كما يســـتحضر وهو يخوض صراعاته السياســـية مع خصومه قوله ﷺ: «وَاعْلَـــمْ أَنَّ الأمة لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَـــيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ».

الباعث التطوعي: تختص الحركات الإسلامية بأنها تمتلك مجموعات بشـــرية متنوعة وثرية، وكلها تعمل في مجال الدعوة تطوعاً واحتســـاباً للأجر عند الله تعالى، فهذا جيش من الأتباع لا يتوفر لأي قوة سياسية أخرى، وهو «جيش» يتوفر له الانتشار الجغرافي والتنوع المهني والتخصـــص العلمي والتعدد العمري، وإذا أحسنت الحركة الإسلامية توظيف هذا «الجيش» التطوعي لخدمة أهداف الحزب فإن قوتها ســـتتزايد أضعافاً مضاعفة، ولكن يبقى الســـؤال: ما هي الإســـتراتيجية المثلى لتوظيف هذه القوة البشرية الهائلة؟ قطعاً لا يمكن الاسترسال في تناول هذه الإســـتراتيجية في هذا المقال، ولكن يكفي الإشـــارة إلى محاور رئيســـية وهي: وضع منهج عملي لقياس وتقدير القوة البشرية للحركة الإســـلامية، واستخدام هذا المنهج في تحريك تلك القوة لخدمة الأهداف السياسية، واستخدام هذا المنهج في تنمية هذه القوة وتوسيع مجالاتها.

التواصل الجماهيري: لا تفتقر الحركات الإسلامية إلى وسائل للتواصل مع الجماهير، فهم - أصلاً - موضوع نشاطها ولبُّ عملها؛ فالتواصل معهم قديم، والأواصر معهم راسخة، لكنَّ طريقة التواصل السياســـي مع الجمهور تختلف عن التواصل السياسي؛ فلكل منهما أدواته ووســـائله، وإذا اســـتمرت الحركة في اســـتخدام الخطاب الدعوي نفسه لخدمة العمل السياسي، فهي بذلك تهدر قدراً كبيراً مـــن قوتها، نعم الجمهور متاح، والثقة موجودة، ولكن يبقى الخطاب السياسي المناسب الذي ينطلق من هذه الأرضية.

ثانياً: قوة التنظيم:

في هذا المورد يتضح الفارق الهائل بين حركة عريقة في نظامها وتنظيمهـا مثل جماعة الإخوان المسـلمين، وبـين غالبية التيارات السلفية حديثة العهد بالعمل السياسي، بل والتنظيمي.

الفكرة الأكثر أهمية المتعلقة بهـذا المقال، هي: خطورة أن يتم تأسيس نظام حزبي قوي يستند على تنظيم دعوي ضعيف.

فالحركات السـلفية لم تكن معنية بقوة التنظيم من قبل؛ لذلك تبدو هياكلهـا التنظيمية بدائية أو بسـيطة أو محدودة، بل يمكن القول: إنه لا توجد فلسـفة تنظيميـة – أصلاً – إلا إذا كانت فكرة «اللا تنظيم» يمكن اعتبارها «فلسـفة فـي حد ذاتها»، وذلك لدواع أمنية ظرفية.

عندما تقوم هذه الحركات بتأسـيس أحزاب سياسية، فستجد نفسها تمارس عملاً غير مألوف بالنسبة لها، وهنا يمكن أن تحدث عدة سلبيات خطيرة، مثل:

- عجز في الكفاءات والاضطرار لإسناد مهام تنظيمية حساسة إلى أشخاص ليسوا على الدرجة الكافية من الموثوقية أو الانتماء.
- اللجوء إلى استنسـاخ تجارب حركات أخـرى دون قدرة على النقد و «الغربلة».
- حدوث هوة كبيرة وتناقض واضح بين الحزب المنظم والحركة غير المنظمة.
- اختفـاء معايير الانتقاء والتكليف للمواقـع المهمة داخل بنية الحزب التنظيمية، أو وجود المعايير دون قدرة على تطبيقها.

من العوارض السـلبية كذلك في ما يتعلق بمورد «قوة التنظيم» أن بعـض الحركات لديها خلط واضح بين معنى«الحشـد» ومعنى «التنظيم»، وهو خلط عملي قبل أن يكون مفاهيمي؛ فهم يمارسـون التنظيم بعقلية الحشد، والفارق الأساسي بين المفهومين، هو: الانتقاء والتربية؛ فالذي يحشـد لا ينتقي ولا يربي، حتى وإن مارس الحشد بوسائل منظمة؛ لأن عقله مرتبط بعمل مقطوع ينتهي الحشد بنهاية العمـل. أما الذي يتحرك بعقليـة «التنظيم» فهو ينتقي ويربي؛ لأن ذهنه مرتبط بعمل مستمر على مدى الزمن.

ربما تكون بعـض نتائج جولة الإعادة فـي المرحلة الأولى من انتخابـات مجلس الشـعب في مصر، ذات دلالة فـي التفرقة بين الحشـد والتنظيم؛ فقد حقق حزب النور (السلفي) نتائج مبهرة في الجولة الأولى، لكن فـي جولة الإعادة – التي عادة ما تتراجع فيها نسبة المشاركة الشـعبية – خسـر الحزب كثيراً من مواقع تقدُّمه لصالح الإخوان، وأحد الأسباب الرئيسية هو أن المنافسة تمخضت عن مواجهة بين خبرة التنظيم وتنظيم الحشد.

ثالثاً: قوة الإنجاز:

هذا المورد لا تأثير له إلا بعد فترة من الممارسـة السياسـية وتولي مسؤوليات تشـريعية أو تنفيذية، لكـن عندما يحين وقته يصبح ذا تأثير عظيم (سـلباً وإيجاباً)؛ فقوة الإنجاز بالغة الأهمية في ميدان العمل السياسـي؛ حتى أن علماء السياسـة يضعونها كأحد تصنيفات «الشـرعية» التي يلجأ إليها الحكام لتثبيت مواقعهم على رأس النظم؛ فبعض الحكام يسـتند في إقرار حكمه واستمراره إلى ما حققه من إنجازات إلى درجة يرى أنها تسـوغ له تجميد الحَراك السياسـي جزئياً أو كلياً دون أن يلقى اعتراضاً من الشعب.

ولعل نموذج حـزب العدالة التركي هو الأبرز على صعيد الأحزاب الإسلامية التي حققت إنجازات هائلة، وهـذه الإنجازات أكسـبته قوة مضاعفـة؛ بحيث إن تركيبة مؤيديه أصبحت تضم قِطاعات من العَلمانيين.

تفعيل هذا المورد يتطلب من الحزب الإسلامي أن يضع إستراتيجية واضحة، تجيب على أسئلة مهمة:

ما هي المهام التي يمكن أن يسـعى الحزب إلى توليها؛ لأنه يرى قدرته على تحقيق إنجاز فيها؟

هل تتناسب إمكانات الحزب مع المهام التي يسعى إليها، وهل يتوائم ذلك مع النطاق الزمني المتاح؟

هل من الأفضل أن يطـرح الحزب حزمة وعود ممتدة وبراقة معتمداً على ذاكرة الناخب الضعيفة؟ أم أن الأفضل أن يحدد إنجازات محدودة تكون لديه قدرة أكبر على تحقيقها؟

ليـس مـن الحكمـة أن يرفع الحزب سـقف طموحاته أو وعوده، ثم يفاجأ ناخبوه بعد انتهاء المدة الانتخابية، أن أغلب ما قيل لم ينفذ.

لذلك يقول المختصون: إن استخدام الإنجاز في الدعاية الانتخابية يكون على ضربين:

الأول: مختزل، ويكون في مرحلة الوعود والحملة الانتخابية الأولى.

والثانـي: مفصل، ويكـون في ما بعـد انتهاء الدورات الانتخابية والبدء في حملات دعائية تالية.

بشائر الربيع العربي

أ. أحمد أبو شاور - الأردن
Osamh12@maktoop.com

سَقَطَ الطُّغاةُ، وحُطِّمتْ أصنامُ ... فاليومَ نصرٌ باهرٌ ووسامُ
يسمو على صدرِ العروبةِ واعداً ... بِغَدٍ بَهيٍّ نَهْجهُ الإسلامُ
تأوي إليه من الجموع قوافلٌ ... وعلى الدُّروبِ من الزُّحوفِ زِحامُ
جاؤوا يهنئُ بعضُهم بعضاً على ... نصرٍ، تَحارُ بِكُنْهِهِ الأفهامُ
مَنْ كانَ يأمَلُ أن تُداسَ كَتائبٌ ... في طبعها التنكيل والإجرامُ
رُصِدت ليوم وقيعةٍ بِمُعارِض ... تَمضي بِرَكْبٍ نُهوضِه الأقْوامُ
مَنْ كانَ يأمل أنْ يُزاحَ مؤلَّهٌ ... قَسْراً، وحَوْلَ حُصونِهِ الألغامُ
ما انفكَّ يخترقُ القضاءَ يَصُدُّهُ ... كَيْ لا تُصانَ مَحارِمٌ وذِمامُ
ما انفكَّ يسترعي الفَسادَ لأنَّه ... للفاسدينَ مُعلِّمٌ وإمامُ
ما بَرَّ بالقَسَمِ المُذاعِ على الوَرى ... أوْ لاحَ مِنْهُ للنُّهوض قِوامُ
خانَ العروبة في جميعِ أمورِها ... وبِهِ المشانِقُ للدُّعاةِ تُقامُ
ما في العروبة مثله متسلِّطٌ ... وهو المُبيرُ لعزِّها هَدَّامُ
رَكَمَ الدُّيونَ على العباد وعندَهُ ... ما قد تَضيقُ لِحَضْنِه الآجامُ
بَدَتِ الرَّعيَّةُ كالشِّياهِ يَسوقُها ... نَفَرٌ قليلٌ مُعْرِضٌ نمَّامُ
وَبِهِ السُّجونُ تَعاظمتْ وتعدَّدتْ ... حتى تَشكَّتْ عدَّها الأرقامُ
أرخى عناناً للطغاة ليُفْسِدوا ... وَجْهَ الحياة ، فشَوَّهوا وأضاموا
لم يقرأ التاريخَ رغمَ كهولةٍ ... سَحَقَتْ رُموزَ جَلالِها الآثامُ
الصُّلْحُ أنساهُ العروبةَ كلَّها ... فغدا يَصولُ كأنَّهُ حاخامُ
لو كانَ يُبْصِرُ في العِظاتِ مآلَهُ ... لارتابَ منه، وابتلاهُ سقامُ
لو كان يخشى ربَّه وعذابَه ... وضغوطَ قَبْرٍ ما بِها إنْجامُ
لأنان قلباً أو تَهطَّل دمعُه ... أو قالَ شيئاً ما به إذمامُ
لكنَّ أسماعَ الزَّعيم تغلَّقتْ ... عن كلِّ أمْرٍ زانَه الإسلامُ
فَرِحَ اليهودُ بيومِ أنْ سادَ الورى ... واستبشر النخَّاس والحاخام

جنحوا السلم خادعٍ عينَ الورى ... ليُزاحَ عنهم ناقدٌ لوَّامُ
جنحوا السلم شق وحدة أمة ... دأبت تُمَجِّدُ عِزَّها الأيامُ
فإذا الزعيمُ مهرولاً للقائهم ... ما همَّه لوْ أنَّه استسلامُ
مَنَحَ اليهودَ حمايةً وعنايةً ... وتحالفاً تترى به الآثامُ
بيعت حقوق الشعب في سوق الخنا ... بخْساً، ليجني ريعها الأعجامُ
لا بأس في وفد يطوِّع رافضاً ... لبنود عقد شأنه الإقدامُ
لا بأس في سفن تمر وفوقها ... كتلُ السلاحِ كأنهنَّ غمامُ
لا بأس في ما يقتضيه تحالف ... وبنود عقد حقها الإلزمُ
لكنَّ أشراطَ العُبورِ تبدَّلت ... مُذْ هبَّ شعبٌ ثائرٌ مِقدامُ
فإذا العبور إلى الأمان جريمةٌ ... وإذا البقاء بأرضهم إرغامُ
جرحى بغزة طِيْبُهم بلغ الذرى ... وتعطَّرت من نفحه الأجرامُ
هُرِعوا إلى رفحٍ تُضمِّد جرحَهم ... والموتُ فوق رؤوسهم حوَّامُ
والجرحُ يَنشُد إخوة وعروبة ... فالنزفُ يجري والضمادُ يُرامُ
لكن أجهزةَ الزَّعيم تعللتْ ... بصدور أمرٍ كمْ بهِ إيلامُ
لا شيء يعبرُ مِنْ هُنا حتى نرى ... أمراً جديداً للزعيم يقامُ
فهو المخوَّل بالبغاض لثلَّةٍ ... بدأتْ تَميلُ لِحُبِّها الأقوامُ
لا شيءَ يعبُر من هنا حتى تُرى ... تلكَ الشيوخ يَغُلُّها استسلامُ

الدكتور جعفر عبد السلام...

في حوار لا تنقصه الصراحة:

- أرفض استمرار حكم العسكر للبلاد، والإسلاميون يستطيعون قيادتها لبر الأمان.
- تطبيق الشريعة ليست «فزاعة» إلا للمفسدين ودعاة الفتنة.
- النموذج التركي جيد؛ ولكنه لا يصلح لمصر. وقادرون على تقديم الأفضل.
- نعم، هناك شك في دستورية المجلس العسكري، ولكن وجوده ضرورة.
- كل المواثيق الدولية ملزمة ما لم تتعارض مع شريعتنا الإسلامية.
- النظام البرلماني أوفق لمصر من الرئاسي؛ حتى لا نخلق ديكتاتوريّاً آخر.

حوار: جلال الشايب، وجمال سالم:

أبرز الأستاذ الدكتور جعفر عبد السلام (الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية) في حواره مع البيان، أن الإسلاميين قادرون على قيادة مصر في المرحلة الراهنة، وأنهم يستطيعون ذلك فعلياً بما يمتلكونه من قدرات عقلية وبشرية، وبما يستندون عليه من أساس عقدي وشرعي. كما أشار إلى أن الترهيب من حكم الإسلاميين، وتطبيق الشريعة الإسلامية - وخاصة ما يتعلق بالحدود - وجعلها «فزاعة» لغير المسلمين في الداخل والمجتمع الدولي مجرد أكاذيب يروِّج لها أعداء الإسلام (داخلياً وخارجياً).

وأضاف الدكتور عبد السلام: أن النموذج التركي لا يصلح للتطبيق في مصر؛ حيث إن لكل مجتمع خصائصه وأسسه التي يقوم عليها، مؤكداً على أن المصريين قادرون على تطبيق نموذج أفضل يحقق لهم مصالحهم، وينهض ببلادهم.

وحذر الدكتور عبد السلام من استمرار حكم العسكر للبلاد؛ لأنهم غير قادرين على ذلك، فضلاً عن أن ثمار تاريخهم في الحكم على مدار نصف قرن سيئة، ناهيك عن آخر عشرة أشهر؛ فهي بلا شك أسوأ.

البيان: ما تقييمكم لبَدء العملية الانتخابية البرلمانية؟ وتفسيركم لإقبال المصريين عليها بهذا الشكل؟

د. جعفر عبد السلام: هذه الانتخابات لم يسبق لها مثيل - على الأقل في المنظور القريب - من حيث الإقدامُ الكبير من طوائف الشعب المختلفة، ومن اتجاهات وتيارات لم نظن أنها ستخرج في هذا اليوم، لكن ما حدث أن الإقبال على الصناديق فاق ما كان متوقعاً؛ سواء من الأحزاب الإسلامية أو من غير الأحزاب الإسلامية.

وفي ما يتصل بالنتائج؛ فإن الأحزاب الإسلامية اكتسحت الساحة، وهذا أمر طبيعي وليس مستغرباً؛ لأن المصريين بطبيعتهم متدينون، وكانوا يتطلعون منذ وقت طويل إلى أن يحكمهم مسلمون ملتزمون بدينهم ويحاولون تطبيقه.

وأنا شخصياً متفائل خيراً من نتائج هذه الانتخابات؛ ليس لنجاح الإسلاميين فقط، بل لأن الفئات الأخرى موجودة ولم تستبعَد، ولها ممثلوها الذين حضروا من خلال الترشح والإدلاء بأصواتهم، فهذا يقيم نوعاً من التوازن حتى لا يقال: إن الساحة قد انفرد بها الإسلاميون، ولأن غير المسلمين أيضاً كان لهم نصيب يتفق مع وجودهم في الحياة المصرية، وكان لهم نصيبهم أيضاً في الذين انتخبوهم.

وأرى أن الانتخابات في جولتها الأولى رغم ما شابها من بعض القصور - وهذا أمر طبيعي - إلا أنها نجحت في النهاية في تأكيد إرادة الشعب.

البيان: بعض الناس يتخوفون من وصول الإسلاميين إلى الحكم - سواء البرلمان أو الرئاسة - كما يزعم بعض آخرون أنهم غير قادرين على إدارة المرحلة الراهنة للبلاد؟

د. جعفر عبد السلام: لأجل أن نصدر حكماً صحيحاً على هذه المسألة لا بد أن نعرف أولاً من هم الإسلاميون؟ وذلك قبل التشكيك في قدرتهم على قيادة البلاد من عدمه، وتأتي جماعة الإخوان المسلمين في المقدمة، وهي تنظيم سياسي ودعوي موجود منذ عام ١٩٢٨م، ومؤسسها الشيخ حسن البنا - رحمه الله - في بداية حياته أصدر ثلاثة كتب أوضح فيها مبادئ دعوته كاملة، أشهرها: كتاب «نحو النور»، وهو عبارة عن رسالة إصلاحية إلى الملك تُعبِّر عن فكر الجماعة في ما يتصل بإصلاح الحياة في مصر، وهي تعتبر رسالة متكاملة تشرح نواحي الحياة الاقتصادية والسياسية وكيف يصلح حال هذه الأمة، ويشرح حقيقة الدعوة الإسلامية، مُستدلاً بقول الله - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]. فكانت شعارَهم وعقيدتَهم في ما يتصل بضرورة أن يكون الإسلام هو خاتم النبوات، وأن ينتصر على من عاداه، وأنه في النهاية هو الذي سيسود.

كما تضمن الكتاب الكلام عن «إلى أي شيء ندعو الناس؟» فبين أن ذلك متصل بشرح طبيعة الدعوة، وكيف أن لها من الأسس ما يقيم دولة وجماعة تأخذ تعاليمها من القرآن والسنة، ومعروف شعارها «الله غايتنا، الرسول قدوتنا، القرآن دستورنا، الموت في سبيل الله أسمى أمانينا» فهذه هي المبادئ الأساسية التي أقيمت عليها، وهذا هو ما يقيم الدولة؛ عندما تتحول هذه الشعارات إلى أسس وقيم ومعالم واضحة.

وأعتقد أنه من الممكن أن إقامة هذه الشعارات وتحويلها إلى واقع دولة قوية، والدليل على ذلك الإسهامات الفكرية الكثيرة والعظيمة لقيادات الإخوان في شتى مناحي الحياة؛ وأنا كمسلم أرى أن هذه المبادئ هي التي يجب التمسك بها، وأن تكون نبراساً لنا في حياتنا.

كما ظهر لديهم أيضا من الأشخاص من أثبتت التجارب في حياتنا المعاصرة أنهم يستطيعون إقامة دولة في النواحي الاقتصادية، وظهروا في خدماتهم التي قدموها للناس والمستشفيات والمستوصفات والمراكز الاجتماعية التي استطاعت أن تسد فراغاً أحدثته الأنظمة الحاكمة في النواحي الاجتماعية والاقتصادية لدرجة جعلت الناس يُقبلون عليها، ولا ننسى أن الإخوان في انتخابات عام ٢٠٠٥م كان يمكن أن يأخذوا نصيباً كبيراً في المجلس التشريعي، لكن لاعتبارات سياسية وغير سياسية آثروا ألا يدخلوا بقوة في هذه المساجلة، وأيضاً في انتخابات عام ٢٠١٠م المزورة كان من الممكن أن يكون لهم نصيب فيها، ولكن لم تشأ الإرادة السياسية التي انتهت - بفضل الله - أن تعطيهم شيئاً حتى لا يتغلب الاتجاه الإسلامي. وأنا شخصياً أرى أنهم قادرون على حكم البلاد بجدارة مع وقوف بقية التيارات الإسلامية بجانبهم.

البيان: يرى البعض أن حكم العسكر – على الرغم مما هم عليه – أفضل من حكم الإسلاميين، لدرجة أنهم يطالبون باستمرارهم لمنع وصول الإسلاميين إلى الحكم؛ فماذا تقولون؟

د. جعفر عبد السلام: بل على العكس تماماً الإسلاميون أفضل من العسكر بكثير؛ فلقد رأينا النتائج السلبية الرهيبة لحكم العسكر على مدار ما يقرب من نصف قرن؛ وأعتقد أن كشف خسائرهم في مجتمعنا كبير؛ وبناءً على ذلك فإن حكم الإسلاميين أفضل بلا جدال لأنه يعرف الحلال والحرام، ويحاول تطبيق الإسلام، وجعلَه منهاج حياة؛ لهذا يجب أن نثق فيه طالما أنه يحاول ويتفانى في إقامة المجتمع والدولة على أسس إسلامية.

البيان: أليس من المنتظر أن يتعرض الإسلاميون لضغوط خارجية؛ قد تصل إلى الحصار أو المقاطعة أو غير ذلك لإفشال مشروعهم؟

د. جعفر عبد السلام: لا يعني بُعْد التيارات الإسلامية عن الساحة الخارجية أنهم فاقدوها تماماً؛ وإنما هناك بعض التيارات الإسلامية قد اكتسبت خبرة لا بأس بها في هذا المضمار؛ وذلك من طول فترات الاضطهاد واللجوء أحياناً إلى التجمعات الدولية القوية، بل احتكاكهم الدولي اقتصادياً وسياسياً جعلهم يعرفون كثيراً من معطيات الحياة السياسية التي نحياها.

ولست مُبالغاً إذا قلت: إنهم استطاعوا بالفعل أن يُقيموا تعاقدات في النواحي الاقتصادية والسياسية مع القوى الكبرى حتى مع الولايات المتحدة الأمريكية نفسها.

فالاحتكاك الدولي لا ينقص التيارات الإسلامية، وكذلك القوة الاقتصادية لا تنقصهم، فلديهم قوة اقتصادية يعتمدون عليها ولهم علاقاتهم العربية؛ لأن معظمهم لجأ قديماً إلى السعودية ودول الخليج بوجه عام، بل إنهم من الناحية الاقتصادية استطاعوا أن يقيموا تكتلات اقتصادية وتجمعات اقتصادية نجحوا بها ونجحت بهم في أن تكون لهم قوة في المجتمع المصري، وكذلك نعلم أن لهم تنظيمات دولية، وهم موجودون في غالبية الدول العربية لهم كياناتهم وقدرتهم بشكل أو بآخر.

البيان: فضيلتكم تقصدون الإخوان؛ فماذا عن السلفيين وغيرهم؟

د. جعفر عبد السلام: الكلام عن التيار الإسلامي بوجه عام، فالكل وقتها كيان واحد. وحتى إن كان الإخوان عندهم من الخبرات الكبيرة، فلا ننسى أيضاً الأزهر فإن له في كل الكيانات الدولية مكان، وهو يستطيع أن يقود مجتمعاً إسلامياً سياسياً ودعوياً، والمسألة بشكل عام تتوقف على بلورة الفكر الإسلامي في ما يتصل بهذه الزوايا، ويمكنهم تقديم ذلك للناس على المنابر وتطوير الخطاب الديني، ومن ثَمَّ يمكن للأزهريين والسلفيين وغيرهم مساندة الإخوان في القيام بالواجب الشرعي في ما يتصل بإقامة مؤسسات الدولة.

والسلفيون أنفسهم بماذا ينادون؟ وماذا يريدون؟ أليس كل ما يريدونه هو أن يكون الإسلام مرجعية وأساساً للبلاد والعباد على نهج الصحابة الأجلاء، والسلف الصالح، مع تطوير وسائل تلك الدعوة بما يتناسب مع عصرنا ووقتنا؛ ولذلك فهم مع الإخوان ومع الأزهر في ما يتصل بالنظام الاسلامي الذي سيقوم، وفي تصوري أنه ليس هناك من يحاول الانفراد بالساحة.

البيان: ما رأيكم في الجدل الدائر حول الدولة الدينية، والمدنية؟ وتخوف بعض الناس من أن الإسلاميين لو وصلوا للحكم أقاموا دولة دينية، وتصبح القاهرة قندهاراً الأخرى؟

د. جعفر عبد السلام: أولاً: هذا التخوف مُبالَغ فيه جداً، وهناك من يعمل على تضخيمه؛ فالرسول ﷺ أقام دولة

الإسلام الأولى في المدينة، وما كانت دولة دينية، ولكنها دولة إسلامية لها خصائصها، وقد ألَّفتُ كتاباً عن «نظام الحكم في الإسلام»، وأوضحت فيه أن هناك مبادئ وأسساً لتجربة الحكم الإسلامي منذ دولة المدينة الأولى التي وضع الرسول ﷺ دستورها؛ فكانت هذه مبادئ وأسس أقيمت عليها دولة بالفعل، واستمدت أصول قيامها من القرآن والسنة، ومِن عمل الرسول ﷺ والسلف الصالح في المدينة وبعد ذلك توسعت خارج المدينة.

ولهذا علينا أن نستبشر خيراً بنجاح الإسلاميين. وأنا شخصياً سعيد أن كثيراً من آمالي تتحقق الآن وأن الإسلام بفكره وبمبادئه وبالأسس التي وضعها للحياة ستبدأ – إن شاء الله – في التحقق، وأرجو أن يهدي الله هؤلاء الناس لأن يحققوه.

البيان: ما رأيكم في من يقوم بتخويف المصريين من تطبيق الشريعة الإسلامية في مصر؟ ولِمَ يخافون هؤلاء من الشريعة في نظركم؟

د. جعفر عبد السلام: الشريعة الإسلامية شريعةٌ سمحة، وإن شاء الله – تعالى – سينجح الناس في تطبيقها؛ وخاصة أن الفوارق في مسائل القانون المدني بينها وبين القوانين الأخرى ليست كثيرة في ما عدا نصين أو ثلاثة؛ فالقانون المصري نعم مأخوذ من قوانين مختلفة، ولكنه في كثير من مواده يعتمد على التشريع الإسلامي، والنص الخاص بمبادئ الشريعة مثل العدالة والمساواة والإخاء يعني أن كل ما يتصل بالأسس العامة للتشريعات موجودة في الشريعة، ولا فروق أساسية بين الشريعة الإسلامية وبين الشرائع الأخرى في ما يتصل بمجمل الحياة القانونية، ويكفي أن المادة التاسعة من النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية تجعل مبادئ التشريعات الأخرى الرئيسة مصادر قانون دولي، واختارت الشريعةَ الإسلامية مع القانون اللاتيني والأنجلو والجرماني على أنها تشريعات رئيسة تحكم العالم الآن، وتشترك في الأسس العامة للتشريع.

وأنا لا أشارك أحداً من غير المسلمين التخوف من تطبيق الإسلام وشريعته، مع العلم أن الأشياء التي ترفضها الشريعة وتختلف فيها عن باقي الشرائع هي الأمور التي تضر بالإنسان؛ فلماذا التخوف إذن؟ ماذا يوجد في الشريعة الإسلامية وفي الأحكام الإسلامية يضر بالآخر؟ لا أدري أساساً لهذا التخوف.

حتى قضية الحدود التي يعلقون عليها كل انتقادهم وخوفهم من تطبيق الشريعة؛ فهي أمور لا يخاف منها إلا من يرتكبها؛ فمن منا يريد أن يرى زانياً، أو سارقاً، أو غير ذلك مما وجب فيه إقامة حد؟ بل كيف نقيم مجتمعاً صالحاً يفعل فيه هؤلاء ما يفعلون من تخريب وإفساد ونشر للرذيلة والمنادة بها؟

فالحدود واجبة التطبيق لا تضر بل تفيد المجتمع بحمايته من اللصوص والفاسدين أخلاقياً، ودعنا نتأمل – مثلاً – حد القاتل؛ فالقصاص من القاتل هو قمة العدل، ورغم أن التشريعات الدولية الآن تميل إلى عدم قتل القاتل إلا أنني أرى أن قتل القاتل أوجب في كل المجتمعات؛ لأن عدم القتل يثير الضغائن ويجعل أصحاب الدم يحاولون أن يأخذوا بأيديهم الثأر وهو عادة بذيئة يرفضها الإسلام ومع ذلك هي ليست حداً كما قلت.

أما حد السرقة والقذف والزنا فلهم شروط وضوابط وليست أمراً عشوائياً. وإني أتساءل: لماذا التعاطف مع سارق أو زانٍ أو قاذف للمؤمنات المحصنات بالباطل؟ هل يريدونها فوضى أو أن نكون ممن قال الله فيهم: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [النور: ١٩]. والإسلام عندما يُقيم الحدود فهو إنما يميل إلى تطهير المجتمعات الإسلامية من الموبقات والفساد بكل صوره، وهو ما تحقق في كثير من المجتمعات التي طبقت الحدود.

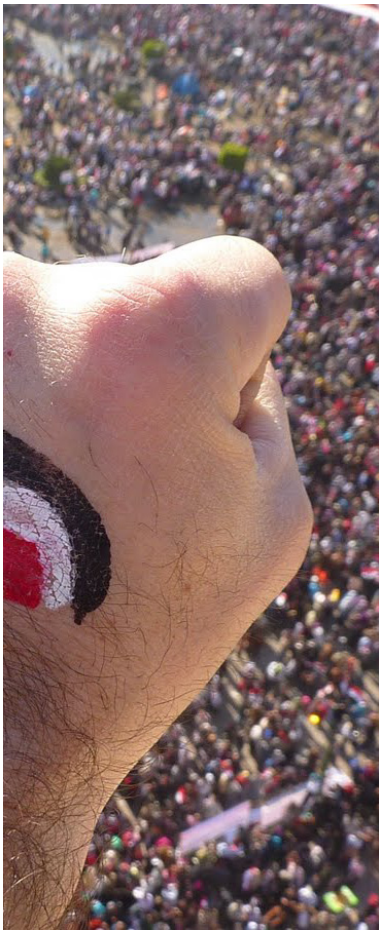

البيان: ماذا سيفعل الإسلاميون - إذا حكموا الدولة - في التشريعات والمواثيق الدولية التي وقَّعت عليها مصر في السابق؛ وخاصة أن بعضها قد يتعارض مع الشريعة؟

د. جعفر عبد السلام: هناك مبدأ عام في كل الاتفاقات الدولية تقريباً؛ وهو أننا نوافق على أي ميثاق دولي بشرط عدم تعارضه مع الشريعة، ويكاد يكون هذا قاسم مشترك في كل التشريعات والاتفاقيات الدولية التي وافقت عليها مصر وحتى إذا حدث استثناء فنحن غير ملزمين به طالما يتعارض مع الشريعة الإسلامية.

البيان: هناك من يطالب بتطبيق النموذج التركي على مصر للتقليل من المخاوف الداخلية والخارجية؛ فما رأيكم؟

د. جعفر عبد السلام: أنا شخصياً لا أؤيد النموذج التركي ولا غيره؛ لأن لكل دولة ظروفها، وأهدافها، ومصالحها. ويجب أن نطبق نموذجاً إسلامياً نابعاً من إسلامنا، ولدينا أسس تجعلنا قادرين على ذلك إذا وضعنا دستوراً على أسس إسلامية، والأتراك ليسوا أكثر منا اجتهاداً في فهم الدين؛ وهم نجحوا بوسائلهم لأسباب معينة نعرفها جميعاً.

البيان: هناك من يشكك في دستورية المجلس العسكري الحالي لأنه تولى بناءً على قرار الرئيس المخلوع؛ فهل هذا صحيح؟

د. جعفر عبد السلام: أنا متفق مع هذا الرأي؛ لأن المجلس العسكري ليس له أي أساس دستوري لأنه تولى بناء على قرار مبارك الذي تم خلعه، وهو الآن في ذمة التاريخ، وعلى أي الأحوال فالمجلس العسكري من المفروض أن لا يمتد به المقام كثيراً عندما يخرج حكم مدني وانتخاب مجلس نيابي ورئيس، ويجب أن يسلِّم السلطة، وأن يحمي الدولة من أي عبثٍ خارجي، وأن لا يتدخل في الشؤون الداخلية؛ لأنه ليس له شأن بالحكم والنظام المدني الذي يجب أن يسود في الدولة وأتمنى أن يوفِّقه الله لأن يرحل وأن يترك الحكم بسلام.

البيان: حاول البعض إضفاء الدستورية على المجلس العسكري انطلاقاً من موافقة الشعب عليه وتنفيذه لدعوته إلى الاستفتاء على المبادئ الدستورية في مارس الماضي، فكيف ترد؟

د. جعفر عبد السلام: الاستفتاء لم يكن على وجوده أصلاً، وقد استجابت الناس لأشياء أخرى ليس لها صلة بوجود المجلس العسكري؛ ولكن يمكننا أن نعطيه دستورية مؤقتة على أساس بعض النظريات القانونية في الموقف الفعلي، وأنه يقوم بالمحافظة على تماسك الدولة لأنه لا يعقل ترك البلاد بلا حاكم، وهذا غير جائز وَفْقَ القوانين أو الدساتير، وبصرف النظر عن الشرعية لا بد أن يكون فعلياً هو الذي يتولى السلطة ويسيرها حتى توجد السلطة الحقيقية، وهنا نستند إلى نظرية الموظف الفعلي في القانون الإداري، التي تسمح بأن يتولى السلطة مؤقتاً لا أن يحكمنا مرة ثانية كما حكمونا من قبل؛ وخاصة أن مصر عانت كثيراً تحت حكم عسكري منذ ثورة ١٩٥٢م. وتجربتهم في الحكم سيئة، وفي العشرة أشهر الأخيرة كانت أسوأ.

البيان: في رأيكم ما الأفضل لمصر: النظام البرلماني، أم الرئاسي؟ ولماذا؟

د. جعفر عبد السلام: في تقديري أن الأفضل لمصر في الفترة القادمة هو النظام البرلماني؛ حيث إن الشعب المصري ضليع في صناعة الدكتاتور والفرعون، كما أن أصل النظام الرئاسي والقائم في أمريكا - مثلاً - هو لمساندة رجل الله المختار؛ فرئيس أمريكا هو رجل الشعب المختار، ورجل الشعب الأول، ولذلك ينتخب من الشعب.

لقد جربنا هذا النظام الفاسد من قبل، ولم يترك للبلاد ولا العباد إلا فرعوناً متكبراً ومتجبراً في كل مرة، وكانت التجربة فاشلة؛ فالحاجة ملحَّة لنظام برلماني، لا يكون فيه رئيس، بل رئيس وزراء، والوزارة هي التي تتولى الشؤون الداخلية والخارجية بالدولة، وبناءً على ذلك فهذا النظام هو الأوفق لوضع مصر. في تصوري مصر تحتاج إلى حكومة وليس إلى شخص.

[المسلمون.. والعالم]

السلفيون وآفاق المشاركة السياسية (حالة مصر)
د. كمال السعيد

انعكاسات الثورات العربية على الوضع في العراق
حارث الأزدي

سورية... بشار والجماهير
د. بشير زين العابدين

موقف الغرب من الثورات العربية... رؤية سياسية
محمد سليمان الزواوي

مشروع التغيير في اليمن بين الحكمة اليمانية وحماس الشباب
الخضر عبد الملك الشيباني

(بابا عمرو) قلب الثورة السورية النابض
محمد الملحم

مرصد الأحداث
جلال سعد الشايب

السلفيون وآفاق المشاركة السياسية (حالة مصر)

د. كمال السعيد حبيب(*)

سوف نشير هنا إلى «السلفيون» على أنهم تلك القوى السياسية التي دخلت إلى ساحة العمل السياسي المصري بعد ثورة ٢٥ يناير وتمايزت عن بقية القوي الإسلامية الأخرى باعتبارها تعبيراً عن السلفية، ولن يكون الإخوان هنا معبرين عن التيار السلفي، كما لن يكون المنتسبون للتيار الجهادي – ممثلين بالجماعة الإسلامية أو جماعة الجهاد – داخلين في معنى التيار السلفي، وهما يؤسسان لحزبين سياسيين: أحدهما اسمه «البناء والتنمية» وقد رفضت لجنة شؤون الأحزاب تسجيله مؤخراً، والثاني: «السلامة والتنمية» وهو لجماعة الجهاد ولم يستكمل توكيلاته بعد(١).

ويمكننا القول: إن التيار السلفي في مصر تعبر عنه المدرسة السلفية في مدينة الإسكندرية الساحلية، وقد أسس حزبَ النور وتم قبوله من جانب لجنة الأحزاب، كما أنهم أصدروا جريدة باسم الحزب.

وهناك حزب آخر يعبر عن التيار السلفي واسمه «حزب الأصالة» ويعبر عما يمكن أن نطلق عليه تجاوزاً المدرسة السلفية في القاهرة، ونشير إلى أن حزب الأصالة كان انشقاقاً عن حزب الفضيلة بسبب خلافات بين مؤسسيه حول طريقة إدارة الحزب وطبيعة تحالفاته وتحركاته. ولا يزال حزب الفضيلة حتى اليوم لم تكتمل أوراقه للتقديم إلى لجنة الأحزاب(٢).

وإن تأخرت المشاركة السلفية في ثورة ٢٥ يناير لبعض الوقت فإنهم سرعان ما دخلوا لساحة العمل السياسي والتعاطي معه بسرعة، وجاوزوا المقولات القديمة التي كانت تتحفظ على العمل السياسي؛ وخاصة تأسيس الأحزاب السياسية والدخول في البرلمانات والترشُّح لها والنضال السياسي حول الاستحواذ على قَدْر من المقاعد البرلمانية.

ويمكن القول: إن سقوط نظام مبارك قد مثَّل فرصة تاريخية للحركة الإسلامية المصرية بجميع تياراتها وفصائلها ونقلَها من الحظر والمنع إلى الوجود والشرعية والمشروعية(٣).

سوف تلتزم هذه الورقة بالعناصر المحددة والمقترحة من المؤتمر ومن ثَمّ فإنها ستعالِج العنوان من خلال العناصر الآتية:

(*) كاتب صحفي من مصر، متخصص في شؤون الجماعات الإسلامية.

(١) البناء والتنمية: حزب للجماعة الإسلامية المصرية التي انتهجت العنف في مواجهة الدولة المصرية في ثمانينيات وتسعينات القرن الماضي، ثم قامت بعمل مراجعات فكرية انتهت فيها إلى عدم استخدام العنف، ومراجعة فقه الجماعة القديم في كتب عديدة بلغت ثلاثين كتاباً، وبعد الثورة حدث انشقاق داخل الجماعة بين الفريق الذي قاد المراجعات داخل السجن والفريق المعارض له وحدثت انتخابات داخلية جاءت بمجلس شوري جديد ترأسه عصام دربالة وأسس لحزب البناء والتنمية. أما الفريق الآخر والذي يقوده كرم زهدي وناجح إبراهيم فقد أكد أنه سيعمل بالدعوة ولكنه سرعان ما أعلن أنه يؤسس حزباً جديداً اسمه حزب الأمة الجديد وكيل مؤسسيه اللواء سامي حجازي.

(٢) تقارير صحفية كثيرة تحدثت عن الخلافات بين الحزبين السلفيين، ونقد أعضاء من حزب الفضيلة الطريقة التي يدار بها الحزب بما في ذلك سيطرة الشيخ محمد عبد المقصود على الحزب من خارجه، وعدم التزام معايير الكفاءة في تقديم القيادات.

(٣) مقال كمال حبيب: عصر جديد للإسلاميين، ومقال كمال حبيب: سلفيون وثوار وقد كتبه إبَّان ثورة التحرير وكلاهما على الشبكة العنبكوتية.

أولاً: حدود المشاركة في الواقع السياسي:

يعني مفهوم المشـــاركة السياســـية: الاهتمام بالشأن العام والانخراطَ فيه عبر المؤسســـات السياســـية المختلفة كالانتماء للأحـــزاب، كما يعني المشـــاركة في التصويت وفـــي النقابات المهنية وفي النوادي والمشاركة في جمعياتها العمومية التي تقرر مســـيرتها واهتمامها وتوجهاتها، وتُعَد المشاركة السياسية في تقديرنا هي التعبير المعاصر عن مفهوم «الأمر بالمعروف والنهي عـــن المنكر»؛ خاصة لو ذهبنا إلى أن ممارســـة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المفهوم المعاصر تتم من خلال المؤسســـات وليس عن طريق العمل الفردي.

وكمـــا هو معلـــوم فإن الســـلفية تمتعت بشـــرعيتها لدى الجماهيـــر في مصر والعالم العربي مـــن خلال قيامها بالعمل الدعوي والاحتسابي والتربوي والتزكوي، ومن ثَمَّ فإن المشاركة في العمل السياســـي يجب أن تكون بالقدر الذي لا يطغى على العمل الدعوي والتربوي والتزكوي[1].

ولذا فإن المدرســـة السلفية في الإســـكندرية التي يمثلها الشيخ ياسر برهامي والشيخ سعيد عبد العظيم والشيخ محمد إسماعيل المقدم ترى أن حزب النور هو ذراعها السياسي.

وفي ظل التاريخ القصير نســـبياً لحزب النور فإن المدرسة الســـلفية تعبر عن القـــوى التي تكاد تحرِّك الحزب وترســـم توجهاته، وهو ما يطرح إشـــكالية العلاقـــة بين العمل الدعوي والعمل السياســـي وطبيعة كلٍّ منهما التـــي تختلف عن الآخر، فبينما يتجه العمل الدعـــوي للإفصاح عن الحق والبيان الذي ربما لا يجوز تأخيره عن وقت الحاجة، فإن العمل السياسي قد يسلك مسالك مختلفة حول الأخذ في الاعتبار الواقع السياسي وأنـــه قد يؤخر بعض البيان، كما قد يجري عامل المصلحة التي هي جوهر السياسة الشرعية، وقد يذهب إلى إعمال المقاصد واعتبار المآلات وأخذ العرف والعادة والاستصحاب في اعتباره، وهنـــا أحد التحديات الكبرى، وهـــي: كيف يمكن إدارة العملية السياسية ومواجهة تحديات الواقع؟

كما أن إدارة الواقع السياســـي ســـوف تعني بالضرورة أن يعبر الفاعلون السياسيون المنتخَبون عن عموم الأمة وليس عن التيـــار الذي يمثلونه، ومن هنا فهناك فرق بين مفهوم الجماعة أو المدرســـة وبين مفهوم الحزب السياسي الذي يعبر عن معنى أوسع قد يدخل ضمنه مخالفون للجماعة السلفية في العقيدة؛ كمـــا هو الحال في العلاقة مع الأقباط في مصر مثلاً. كما أن الفاعلـــين المنتخَبين من المفروض أنهم يعبـــرون عن الأمة كلها بدرجـــة من الدرجـــات وليس فقط عن أولئـــك الذين ينتمون للجماعة السلفية وحدها[2].

وهذا في الواقع أحد التحديات التي تواجه التيار السلفي؛ فهو تيار يقوم على التماثل العقدي بينما السياســـة تقوم على التعدد وربما التخالف في الرؤى السياســـية، والتيار الســـلفي يقوم على التوحد في الرؤى بينما السياســـة تقوم على التعدد والتنوع، والتيار الســـلفي يقوم على الثقة في مشايخه واتباع ما يرونه بينما السياسة قد تعني مناكفةً ومغاضبةً وجدالاً.

ويواجه التيار السلفي اليوم – خاصة حزب النور والمدرسة السلفية التي تقف خلفه – مشكلة التحالف السياسي والانتخابي مـــع أحزاب عَلمانية؛ وذلك حتى لا يواجه الإســـلاميون الواقع وحدهم؛ وإنما تكون هناك مظلة مشـــتركة مع قوى عَلمانية قد تخفف الضغط عليهم في مواجهة قوى العَلمانية الداخلية وقوى الضغط الخارجية، وبينما لا يشعر التيار السلفي بالراحة لهذا التحالف لأسباب متصلة بما يعتبره التيار السلفي حماية لنفسه من التلوث السياســـي من ناحية، كما أن قواعده تضغط عليه باتجاه عدم التحالف مع تلك القوى العَلمانية.

وهنـــا فإن أبواب المشـــاركة قـــد فُتِحَت بينمـــا حدودها ومجالاتهـــا وقواعدها وضوابطها لا تزال غائمة بَعْد لم تتحدد بالنســـبة للتيار؛ وهو ما يُعَد أحد التحديـــات التي تواجه هذا التيار بتقديرنا.

وحتـــى الآن فإن حزب النور يســـتنكف من المشـــاركة مع التحالف الديمقراطي بســـبب ما يعتبـــره اتجاهات عَلمانية لا يجوز العمـــل معها. أما حزب الأصالة فإنـــه يبدو وكأنه ليس لديـــه تصورات واضحة عن طبيعة العمل السياســـي بســـبب غياب المخططين ومراكز البحوث، كما أنه يفتقد للمؤسســـات والعناصر التي تقوم على بناء هذه التصورات.

(١) هناك آراء في مصادر عديدة لكاتب هذه السطور تقول: إن مهمة التيار السلفي الرئيسية يجب أن تكون في مهام الدعوة والتربية والتزكية والاحتساب، وأن السياسة يجب أن تكون بالقدر الذي لا يتسع إلى حد طغيانه على وظيفة الدعوة السلفية الرئيسية.

(٢) في الواقع يجب أن نميز بين مستوى الجماعة ومستوى الدولة؛ ففي مستوى الجماعة نجد أن العقيدة الواحدة والخطاب الواحد هو الذي يتم اعتماده أسلوباً للتربية، بينما في حالة الدولة فإن هناك عقائد أخرى ضمن الدولة ومنهم غير المسلمين، ومن ثَمَّ فإدارة الشأن العام هنا تتطلب ما نطلق عليه في العلوم الاجتماعية society؛ أي العقد القائم على المصلحة بينما الجماعة تعبر عن الـ community. وراجع في توضيح هذه المعاني كمال السعيد حبيب: الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٢م، ط١.

ثانياً: العمل السياسي والفرص الضائعة:

إحدى أهم الفرص الضائعة بالنسبة لدى الإسلاميين في ما يتعلق بالعمل السياسي، هي موقف الإسلاميين من الدولة المصرية؛ فمنذ عام ١٩٥٤م وعدم إدراك الإخوان المسلمين أن عبد الناصر ومن معه بعد أن أصبحت الدولة في أيديهم لم يعودوا أولئك الفاعلين ضمن حركات اجتماعية خارج السلطة، ومن هنا فإن شعور الدولة التي أصبح يملكها عبد الناصر بالتهديد من الإخوان جعله ومن معه يستخدمون إمكانيات الدولة في مواجهة الحركة الإسلامية.

وهنا دخلت مصر في نفق المواجهة بين الدولة والحركة الإسلامية، ولذلك فإن المسؤولية تقع على الدولة والحركة ممثلة في الإخوان وقتها، كان يمكن أن تكون هناك صيغة توافقية تفتح الباب لما نطلق عليه «الإسلام المشارك» وليس «الإسلام المواجه».

وبالطبع تطور الصراع بين الدولة المصرية والحركة الإسلامية؛ فظهر اتجاه سيد قطب وتحولت فكرة جاهلية الدولة والمواجهة معها إلى إحدى مسلمات الحركة الإسلامية في مصر.

حاول الإسلاميون أن يبنوا عالماً خارج الدولة موازياً لها، وأصبحت الدولة رجساً من عمل الشيطان يجب مقاومتها والخروج عليها والثورة في مواجهتها عبر المواجهة المسلحة التي كلفت الإسلاميين كثيراً.

ضاعت فرصة أخرى من الحركة الإسلامية في السبعينيات حين حاولت الدولة المصرية أن تفتح الباب لحوار مع الإخوان وشباب الإسلاميين الجدد ذوي التوجه السلفي، بَيْد أن رفض الإخوان من ناحية وغياب مرجعية هادية لدى الشباب في ذلك الوقت بالإضافة للتحولات غير المنطقية للدولة المصرية في سياستها الخارجية نحو التصالح مع العدو التقليدي والأبدي لعالم العرب والمسلمين وهو الكيان الصهيوني فتح الباب لمواجهة جديدة مع الدولة المصرية عام ١٩٨١م، ثم المواجهة المسلحة بين الدولة المصرية وحركات الجهاد السلفية المصرية وهو ما حرم مصر من بناء تقاليد لمشاركة ودمج الإسلاميين في السلطة وفرض أن يبقوا محظورين خارجها[1]، وبعد ثورة يناير فإن هناك فرصة تاريخية للحركة الإسلامية عامة وللتيار السلفي خاصة للتأسيس للإسلام المشارك الذي يصبح جزءاً من الدولة وليس عنصراً خارجها أو مواجهاً لها كما هو الحال - مثلاً - في الحالة التركية التي ناضلت على أساس أن الحركة الإسلامية هي جزء من الدولة وأن استئثار العَلمانيين بالدولة لن يكون سهلاً، ومن ثَمَّ رأينا ظاهرة الأفرع الإسلامية داخل الأحزاب السياسية المعارضة للكمالية.

وبعد ثورة ٢٥ يناير فإن هناك فرصة كبيرة لدى التيارات السلفية لتصبح جزءاً من الدولة المصرية، وهناك تحديات لا بد من أخذها في الحسبان. أهم تلك التحديات هي:

١ - قدرة التيارات السلفية على بناء خطاب جامع يعبِّر عن آمال المواطنين المصريين في الكرامة الإنسانية وفي العدل الاجتماعي وفي الحرية السياسية.

٢ - قدرة التيارات السلفية على بناء خبرتها السياسية الجديدة القائمة على الرشد والعقلانية والتوفيق باعتبار أن السياسة في النهاية هي العمل في إطار الممكن من ناحية وأخذ التناقض والتنوع في الاعتبار لتحويله لقوة سياسية واجتماعية.

٣ - قدرة التيارات السلفية على بناء تحالفاتها داخل المجتمع وَفْق برامج الحد الأدنى التي تحقق للمجتمع قدراً من التماسك وتخفيف الاستقطاب داخله.

٤ - أخذ التيارات السلفية للعامل الخارجي في حسبانها وهي تتحرك على الساحة السياسية، ومن ثَمَّ فإن العامل الداخلي يجب النظر إليه في ضوء تأثير العامل الخارجي عليه.

٥ - التعامل مع السياسة باعتبارها تدبير أمور الناس وتحسين معاشهم وأخذ إدارة أمور حياتهم اليومية في الاعتبار؛ وأن ذلك سيكون مدخلاً مهمّاً لتعزيز ثقة الناس في التيارات السلفية من ناحية، كما سيكون

---

(١) كمال السعيد حبيب: الحركة الإسلامية من المواجهة إلى المراجعة، مدبولي، ٢٠٠٢م، فصل بعنوان «الحركة الإسلامية والدولة المصرية تاريخ من الفرص الضائعة».

السبيل نحو رغبة الناس للتحاكم إلى الشريعة.

٦ - إرسال خطاب تطمين للقوى الاجتماعية والسياسية في المجتمع وأخذها في الاعتبار؛ وخاصة في حالة وجود أقباط في الحالة المصرية وفي حالة وجود تيارات ليبرالية وعَلمانية علينا أن نفرق داخلها بين الأصوليين المتطرفين وبين الذين يحترمون الدين وأهله ويسعون لبناء جسور معه.

٧ - بناء مصادر القوة السياسية عبر التحالف مع الإسلاميين الآخرين وإن كانت هناك بعض الاختلافات وعدم الشعور بالغرور والقوة الذاتية؛ فمصر اليوم بحاجة إلى تحالف إسلامييها جميعاً في الانتخابات البرلمانية القادمة؛ وأن تكون هناك رؤية إسلامية موحدة بين تلك القوى ليس في الانتخابات فقط وإنما في ما بعدها؛ حيث تحتاج المرحلة لوحدة الصف والرؤية الإسلامية كسباً لثقة الناس التي منحتها للإسلاميين والسلفيين منهم خاصة.

٨ - التركيز على البرامج التي تحل المشكل الاقتصادي والاجتماعي لمصر من منظور إسلامي، والتركيز على العمل التزكوي والدعوي والتربوي للأخذ بيد الناس من قِبَل الدعاة إلى الخير تمهيداً وتهيئة وحرثاً يفتح الباب واسعاً لعودة الدولة الإسلامية التي تحكمها الشريعة الإسلامية.

٩ - التحول من الرؤى البسيطة إلى الرؤى المركبة عبر البحث والدراسة ومن ثَمَّ فإن الحديث عن قوة للإسلاميين وقوة غيرهم يجب أن تكون محسوبة على أسس علمية وليست وصفية وكلامية أقرب لروح الاستهتار وعدم أخذ الأمر بجدية؛ فسياسة الدول غير سياسة الجماعات وتحمُّل مسؤوليات الملايين من الخلق غير تحمُّل مسؤوليات العشرات أو المئات المنتمين للجماعات.

١٠ - الأحزاب والجماعات هي وسائل لتحقيق الأهداف السياسية وليست غاية في ذاتها؛ ومن ثَمَّ فإنه لا ينبغي أن يكون الولاء والبراء قائماً على أساسها؛ فهي أشبه بخطوط وهمية للتعريف أو التمييز دون أن تكون تعبيراً عن تترس خلفها في مواجهة مبادئ إسلامية حاكمة مثل اختيار الأكفأ والوقوف خلف الأمناء من خارج تلك الأحزاب والجماعات.

ثالثاً: مراعاة الواقع والضرورة:

يشير ابن القيم إلى علاقة الواجب بالواقع وأن نعطي الواجب حقه من الواقع كما نعطي الواقع حقه من الواجب؛ فمراعاة الواقع هي الفضاء الذي يتحرك فيه الفاعلون لتطبيق الأحكام أو يتحركون فيه من أجل تهيئته لتطبيقها نحو مزيد من الإسلام والاقتراب من الشريعة وَفْق قواعد المصالح والمفاسد التي تقول بدفع أعلى المفسدتين وإن تحققت أدناهما وتقول بتحقيق أعلى المصلحتين وإن فاتت أدناهما.

كما لا بد من مراعاة العرف والعادة وإعمال مبادئ الاستصحاب والاستصلاح كمداخل رئيسية في العمل السياسي.

وهنا فإن الحديث عن تطبيق الجزية على النصارى المعاصرين قد يواجَه بتحديات لا بد من أخذها في الاعتبار وإعمال المصلحة الشرعية بالقول بإسقاط الجزية إذا التزم غير المسلمين بالمشاركة في الخدمة العسكرية، باعتبار أن الجزية هي بدل عن الدفاع عنهم ومن ثَمَّ فإن مشاركتهم في الدفاع ومع جيش المسلمين فإنها تسقط[١].

كما أن القول بعودة نظام الخلافة الإسلامية بمعناه القديم الذي كان يقوم على أساس وجود خليفة هو جوهر السلطة المركزية بينما تبدو السلطات الأخرى غير واضحة بالنسبة له، ومن ثَمَّ فإن ذهاب التوجهات السياسية إلى نظم تقيد سلطة الحكام لصالح مؤسسات البرلمان ومؤسسات القضاء ومؤسسات المجتمع الأهلي قد يكون مفيداً اليوم[٢].

كما أن القول برفض الأحزاب السياسية باعتبارها تعبيراً عن التجزئة والتفتت لم يعد مقبولاً اليوم، وأن هذه الأحزاب هي أدوات للتدبير وأنها مؤسسات لا يخلو مجتمع منها ومن ثَمَّ فإنها تقوم بوظائف مثل التثقيف السياسي والتنشئة السياسية والحشد والتعبئة، ومن ثَمَّ فلا بد من القبول بالصيغ الجديدة للمؤسسات التي لم تكن موجودة في الاجتماع العربي القديم وأذكر أنني كنت أحضر في المحكمة الإدارية العليا تضامنا مع الجماعة الإسلامية في رد محكمة الأحزاب لحزبهم (البناء والتنمية) ووجدت المحكمة بهيئتها وأمامها المحامون وإلى جانبها جلس مفوض الدولة فقلت

(١) كمال السعيد حبيب: قضايا الأقليات في المنظور الإسلامي.. رؤية مقاصدية، مجلة التجديد، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، العدد الثامن والعشرون، المجلد الرابع عشر.

(٢) شرعية الحاكم في المجتمعات الإسلامية القديمة كانت تقوم على قدرته على قيادة الأمة بالسيف والقتال لحماية مصالح الأمة وحدودها، ومن هنا تحدث الأئمة القدامى عن شرعية المتغلب بالسيف. أما اليوم فإن الشرعية تتحقق بشيء مختلف هو شرعية المشاركين في الثورة وشرعية الجماهير، ومن ثَمَّ فإن نظاماً سياسياً يقوم على المشاركة وليس على الفتح يحتاج منا إلى العمل الاجتهادي لنظام مختلف يحقق العدل للناس بصرف النظر عن اسمه أو شكله.

لمن يجلس إلى جواري: هذا الشكل من المحاكم هل عرفه التاريخ الإسلامي؟ فقال لي: لا. وأظنه كذلك، ومن ثَمَّ فإن الأشكال المؤسسية الجديدة التي لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية وتنجز للمظلومين حقوقهم وتراقب سلوك الإدارة المتسلطة لتضعها في مكانها منحازة لحقوق الأفراد والجماعات في مواجهة دولة قومية تميل للاستبداد والعسف... هذه الأشكال المؤسسية تتوافق مع قواعد الشريعة الإسلامية ومقتضيات قواعد أصول الفقه ومقاصد الشريعة الإسلامية ومآلاتها، ومن ثَمَّ فإنه لا معنى لأن يضع الإسلاميون السلفيون أنفسهم في خصام معها؛ لأن النظام السياسي الإسلامي يقوم على المقاصد ومراعاة الواقع وفهم الضرورات والمآلات، كما أن قواعد السياسة الشرعية التي تُعمِل مصلحة الخلق وتدبيرهم هي المفتاح الحقيقي للاجتهاد في هذه المسألة، وعلينا متابعة ما أشار إليه ابن قيم الجوزية في كتابه القيم «الطرق الحكمية» من أن السياسة هي تدبير شؤون الخلق؛ بحيث يكون أمرهم أقرب إلى الصلاح منه إلى الفساد وإن لم ينزل بذلك نص أو وحي[1]، وذكر أبو يوسف في كتابه الخراج أبا حنيفة يقول: من أحيا أرضاً ميتة فهي له إذا أجازه الإمام ، فأضاف إلى النص ما يضبط تحقُّقه في الواقع ويدفع الفساد والاقتتال بين الناس، فهو هنا أضاف ما يعطي للنص وظيفته الواقعية بمنع الفساد بين الخلق وضبط سلوكهم؛ بحيث لا يدفعهم التنافس إلى الاقتتال والفوضى[2].

ومن ثَمَّ فإن مسائل التحول في المجتمعات من حالة البداءة الأولى والفوضى والتردي التي هيأتها لهم النظم الاستبدادية إلى المجتمع الإسلامي سيكون أمراً بالغ الصعوبة والتعقيد، ولن يكون هيناً، ومن ثَمَّ فإن التسلح بفهم جيد للواقع والتزود بوعي يقدر الضرورة ويرعاها هو أحد أهم المفاتيح المطلوبة للتعامل مع فترة الانتقال في مصر نحو نظام سياسي مدني (غير عسكري)، ثم فترة الانتقال نحو نظام سياسي يتحاكم إلى الشريعة الإسلامية.

وهنا نستحضر الحوار الذي دار بين الخليفة الراشدي الخامس عمر بن عبد العزيز وابنه عبد الملك حين قال له: ما لك يا أبي تبطئ في إنفاذ الأمور؟ فوالله ما أبالي أن القدور غلت بي وبك في الحق فقال: لا تعجل يا بني فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة، وإني أخشى أن أحمل الناس على الحق جملة واحدة فيدفعوه جملة ويكون من ذا فتنة، وفي موضع آخر قال: يا بني إن قومك شدوا هذا الأمر عقدة عقدة وعروة عروة ومتى أردت مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا على فتقاً تكثر فيه الدماء، والله! لزوال الدنيا أهون عليَّ من أن يراق بسببي محجمة من دم، أو ما ترضى ألا يأتيك على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعه ويحي فيه سنة حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين، وقال: إني أروض الناس رياضة الصعب، فإن أبقاني الله مضيت لرأيي وإن عجلت على منية فقد علم الله نيتي، إني أخاف إن بادهت الناس بالتي تقول أن يلجئوني إلى السيف، ولا خير في خير لا يجيء إلا بالسيف[3].

وهنا نقول بوضوح: إن الدخول إلى معترك السياسة وتدبير شأن الخلق يختلف عن اعتراك الفتاوى والكلم والجدال، فمعترك السياسة والتدبير يحتاج إلى وعي المدبر وحنكة السياسي وخبرته، ومعترك الفتاوى والكلم والجدل يستدعي مزيداً من الكلم وعمق الجدال وربما تشدُّد الفتاوى.

رابعاً: تأخر التأصيل الشرعي عن مواكبة التطورات السياسية:

التطور السياسي هو تعبير عن انخراط قطاعات جديدة من الشباب الغاضب في السوق السياسي، وهو ما يفسر لنا نشوء حركات اجتماعية جديدة تطالب بمطالب ذات طابع متصل بما يطلق عليه تحسين الحياة اليومية أو everyday-life ثم ظهور حركات اجتماعية جديدة تطالب برفض التمديد والتوريث كحركة كفاية في مصر والحركات الشبابية التي ظهرت في مصر بعد عام ٢٠٠٤م وحتى عام ٢٠٠٧م؛ حيث ظهرت للوجود حركة ٦ أبريل، ثم حركة الدفاع عن حقوق الإنسان مثل «كلنا خالد سعيد»، ولم يكن هناك تحرُّك واضح من التيار السلفي تجاه هذه الحركات على مستوى المشاركة فيها أو على مستوى التأصيل الشرعي للمشاركة فيها، واكتفى التيار السلفي بتأصيل شرعي حول عدم الانخراط في البرلمان باعتباره يعبِّر عن مؤسسة التشريع ومن ثَمَّ فهو يناقض العقيدة لأن الله هو المشرع، كما أصَّل التيار السلفي لرفض الأحزاب السياسية وظل يمارس العمل الدعوي والتربوي.

(١) ابن قيم الجوزية، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، حيث قال بالحرف: قال ابن عقيل: السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح منه إلى الفساد وإن لم يضعه الرسول ﷺ ولا نزل به وحي، فإن أردت بقولك: إلا ما وافق الشرع؛ أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح، وإن أردت لا سياسة إلا ما نطق به الشرع فخطأ. مخطوطة من على الشبكة العنكبوتية، ص ٥.

(٢) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، الخراج (القاهرة: المكتبة السلفية – ١٣٩٦ هـ، ص ٦٩ – ٧٢)، فقيل لأبي يوسف ما ينبغي لأبي حنيفة أن يقول هذا إلا من شيء؛ لأن حديث النبي ﷺ «من أحيا أرضاً ميتة فهي له» فبين لنا ذلك الشيء فرد حجته هي قطع المنازعة، ثم قال: وليس ما قال أبو حنيفة يرد الأثر؛ وإنما ردُّ الأثر أن يقول: وإن أحياها بإذن الإمام فليست له. أما أن يقول فهي له فهو اتباع للأثر.

(٣) سيرة ومناقب عمر بن العزيز لابن الجوزي، وسيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لابن رجب الحنبلي.

وبدت الثورة وكأنها فاجأت التيار السلفي الذي تأخر في إعلان انحيازه للثورة أو التأصيل الشرعي لها؛ حتى بدأ السلفيون في مصر يلتحقون بالثورة في أواخرها وربما بعد نجاحها في إزاحة نظام مبارك.

تبدو برامج الأحزاب السلفية – ومنها حزب النور على سبيل المثال – أقرب للكتابة الإنشائية وليس فيها عمق يعبِّر عن تصوُّر شرعي مؤصِّل للبرنامج، ومن هنا فإن السلفية تأخرت في التأصيل الشرعي حول مقاومة فساد مبارك والخروج عليه والدعوة إلى الثورة، وكان يمكن في تقديرنا لو وضعت السلفية عينها على مقاومة فساد مبارك والتأسيس لقيادة الخروج عليه عن طريق العصيان المدني أو عن طريق الخروج الجماعي في مظاهرات عبر الفتاوى والتأصيل الشرعي لأمكن للثورة المصرية أن يكون لها مسار مختلف.

وتواجه التيارات السلفية اليوم أسئلة كثيرة حول الموقف – مثلاً – من تدخُّل الناتو في ليبيا، وحول التدخل الغربي في سورية، وحول المرأة في مصر، وحول الأقباط في مصر، وحول التعامل مع الكيان الصهيوني، وحول السياحة وحول الفنون وحول البنوك والاقتصاد. وحول الموقف من الدول العَلمانية كتركيا والتعامل معها، وغيرها من القضايا التي تحتاج لنوع من التأصيل الشرعي.

خامسا: الأحزاب السلفية... عوامل النجاح والإخفاق:

لأول مرة في تاريخ مصر يكون هناك حزبان سلفيان ضمن بنية الدولة المصرية التي لم تقبل أبداً بمشروعية وجود الإسلاميين ضمن مؤسساتها، وهو ما قاد إلى مواجهات عنيفة بين الدولة والإسلاميين من التيارات الجهادية السلفية.

وبعد ثورة ٢٥ يناير قبلت لجنة الأحزاب حزبان سلفيان، هما: (حزب النور) الذي تدعمه المدرسة السلفية في الإسكندرية، و (حزب الأصالة) وهو الحزب الذي يدعمه الداعية السلفي المعروف الشيخ محمد عبد المقصود ويترأس الحزب أخوه الذي كان لواءً في وزارة الداخلية بمصلحة الجوازات كما أنه كان عازفاً للموسيقا لمستويات دولية.

وفي الواقع فإن انشقاق حزب الأصالة عن حزب سلفي آخر هو حزب الفضيلة يشير إلى أحد التحديات الكبرى التي تواجه الأحزاب السلفية وهي القدرة على بناء تفاهمات داخلية تركز على المشترك العام أكثر من التركيز على مسائل الخلافات.

ولا يزال في الطريق حزب متعثر بسبب الخلافات بينه وبين الأصالة وهو حزب الفضيلة كما توجد أحزاب أخرى لم تستكمل توكيلاتها، مثل حزب الإصلاح.

أولاً: عوامل نجاح الأحزاب السلفية:

هناك عوامل لنجاح هذه الأحزاب يمكن إيجازها في الآتي:

أولاً: وجود قاعدة سلفية كبيرة في الشارع المصري تثق بدعاة هذا التيار وتعتبره تياراً نقياً يمكن منحه الفرصة ليجرب حظه في عملية السياسة والإصلاح السياسي بعد الثورة.

ثانياً: أن هناك وجوداً سلفياً حقيقياً شبه منظم هو نتاج الجهد السلفي العلمائي والدعوي إبان فترة حكم مبارك، وأن هذا الوجود يشعر بالرغبة في العمل السياسي وتوظيف الفرصة التي أتاحتها الثورة لهذه الأحزاب.

ثالثاً: دعم دعاة التيار المشهورين لهذه الأحزاب؛ فقد كان الشيخ محمدحسان يدعم حزب النور ودعاة مدرسة الإسكندرية يدعمونه، كما أن دعاة القاهرة دعموا حزب الفضيلة والأصالة، ولهؤلاء الدعاة تأثير كبير على القطاعات السلفية الشعبية، وأكبر دليل على ذلك أن الأصالة استطاع بعد انفصاله عن الفضيلة أن يأتي بخمسة آلاف توكيل في وقت قصير.

رابعاً: هذه الأحزاب يبدو أنها تمتلك قدرات مالية وتنظيمية لا بأس بها ومن ثَمَّ فقد استطاع حزب النور في وقت قصير أن يكون له مقر في العاصمة ومقرات في العديد من المحافظات الأخرى، كما استطاع أن يخرج جريدة له هي جريدة النور.

خامساً: اشتغال التيار السلفي بالعمل الدعوي والعلمي والخدمي في المناطق المحلية لوجوده من ناحية وعدم انخراطه في العمل السياسي أو أعمال العنف التي ذهبت إليها التيارات الجهادية حفظت له قوته وعافيته، كما حفظت له سمعته وهيبته في نفوس عامة المصريين، ومن ثَمَّ فإن هذا أحد مصادر قوة الأحزاب السلفية.

ثانياً: عوامل إخفاق الأحزاب السلفية:

عوامل النجاح السابقه يقابلها أيضاً تحديات قد تمثِّل عوامل للإخفاق نذكرها في ما يلي:

أولاً: الشعور بالقوة الزائدة لدى الأحزاب السلفية التي لم تختبر قوتها بعد، والشعور الزائد بالقوة في السياسة والحرب قد يكون عامل خطر على من يتملكه.

ثانياً: ضعف الخبرة لدى الأحزاب السلفية؛ فهي لم تمارس العمل السياسي من قبل، ومن ثَمَّ فإن أدوات العمل السياسي ومرانه ومكره لم تملكها هذه الأحزاب.

ثالثاً: قلة العناصر المدربة لدى الأحزاب السلفية؛ فأغلب العناصر القادمة إلى عالم السياسية غالب خبرتها هي في الدعوة والعمل في المساجد وفي أوساط المتدينين.

رابعاً: تأثر الرؤية السلفية بمنطق العقيدة القائم على التوحد والوحدة والإجماع بينما الرؤية السياسية والحزبية قائمة على التنوع والاختلاف وربما التضاد والتناقض.

خامساً: عدم إعطاء منطق التدرُّج والتغيير مكانته في العقل السلفي؛ فالتغيير دفعة واحدة يأباه منطق التحول الاجتماعي والسياسي، والشريعة الإسلامية يحتاج تطبيقها أولاً إلى تغيير في عقل ونفس الإنسان المصري وتهيئة تستدعي عملاً دعوياً وتربوياً كبيراً.

سادساً: تركيز العقل السلفي على مناطق الاختلاف أكثر من تركيزه على مناطق التوافق والمشتركات، وهو ما قد يُفْقِده القدرة على بناء التحالفات السياسية أو الانتخابية، وهي إحدى المطالب الرئيسية للعمل السياسي والحزبي.

سابعاً: غياب خطة واضحه لدى الأحزاب السلفية لإدارة ما نطلق عليه التنوع داخل الحركة الإسلامية؛ بحيث تقوم هذه الخطة على الاعتراف بالتعدد والعمل على إثرائه وتوظيفه لصالح صدقية الأحزاب السلفية عند جمهورها؛ وذلك بعدم إظهار التناقضات الداخلية للإسلاميين على العامة وعدم مواجهة الإسلاميين لبعضهم في المواقع التي يجب أن يتحدوا فيها مثل الترشيح في الانتخابات مثلاً.

ثامناً: غلبة العاطفة على الأحزاب السلفية، بينما السياسة تقوم على الصرامة والدراسة الجادة للواقع ومن ثَمَّ تقديم الكفاءات وليس أهل الثقة والولاء، وقد حدثت انتخابات داخلية في بعض المناطق السلفية لاختيار مرشحين وقف فيها المنتخبون خلف أبناء مناطقهم وقرابتهم رغم عدم كفاءتهم وتركوا الكفاءات، بل إن حشد الناخبين تم بطريقة هي أقرب لطرق الحزب الوطني، كما أن طريقة الانتخابات لم تراع المعايير الموضوعة.

تاسعاً: جدة العمل الحزبي في المحيط الدعوي السلفي الذي لم يتعود على انتماءات داخلية ذات طابع سياسي، ومن ثَمَّ فإن إعادة تحديد الحدود والعلامات والانتماءات داخل المحيط السلفي كله يحتاج إلى نوع من الجهد؛ بحيث لا يؤدي العامل الحزبي إلى ارتباك داخل الساحات السلفية القائمة على فكرة الترابط المجاوز للعمل الحزبي.

عاشراً: ارتباك العلاقة بين العمل الدعوي والحزبي؛ فهناك أحزاب تبدو وكأنها جزء من عمل الدعوة كما هو الحال في علاقة حزب النور بالمدرسة السلفية في الاسكندرية، ومن ثَمَّ قد يضعف ذلك من قدرة الحزب على المنافسة والمنازلة السياسية واتخاذ ما يراه من خطوات عبر قراراته هو، لا شك أن الدعوة السلفية وقادتها أعطوا زخماً في مرحلة التأسيس للأحزاب، بَيْد أن المراحل التالية تفترض أن تستقل الأحزاب عن العمل الدعوي بسبب الطبيعة المختلفة لكل من المجالين من ناحية، وحتى يمكن بناء خبرة حزبية مستقلة لهذه الأحزاب وحتى لا تتحمل الدعوة الممارسات السياسية والحزبية.

حادي عشر: عدم وضوح القيود الإقليمية والعالمية في التفكير السلفي؛ بحيث يبدو العامل الداخلي هو الأكثر تأثيراً في تشكيل الواقع السياسي؛ بينما في حالة دول رخوة كمصر فإن العامل الدولي والعامل الإقليمي لا بد أن يتم أخذه بعين الاعتبار وبقدر كبير من الصرامة والجدية، وهذا يتطلب عقلاً سياسياً كبيراً ومحنكاً لا تأسره العاطفة ولا تغرُّه اللحظة الحاضرة؛ وإنما يفكر ويدبر للمستقبل، كما لا تستهويه الكلمات والخطب الرنانة؛ وإنما يحكمه التخطيط المحكَم والعمل المضني والتنفيذ الصارم.

خاتمـــة:

التوصيات والمقترحات العملية:

هناك فرصة جديدة للتيار السلفي لخوض غمار العمل السياســي، وهناك ظاهرة جديدة في مصر تتشــكل لأول مرة في تاريخها، وهي: تحوُّل الإسلاميين عامة والسلفيين خاصة إلى جزء مــن الدولة المصرية لاختبار إمكانية قدرة الإســلاميين على ممارسة الإسلام المشارك وليس الإسلام المواجه وفي هذه السياق نطرح هذه التوصيات والمقترحات العملية:

أولاً: تدريب العناصر السياســية الســلفية عن طريق دورات سياســية جادة في المعاهــد والكليات المتخصصة في ذلك ككلية الاقتصاد والعلوم السياســية ومعاهد العلوم السياسية؛ بحيث يمكن لهذه العناصر أن تتعرف على العالم المعاصــر وأن تعرف المنطق الذي يســيطر عليه والقوانين الذي تحكمه للتعامل معها بمهارة واقتدار.

ثانياً: توســيع مشــاركة الســلفيين مع بقيــة القوى السياســية؛ وأن لا يمارســوا وحدهم العمل السياسي دون الآخرين؛ فكلما كانت المشــاركة عبر التحالفات في مرحلة الابتداء ممكنة ذهب السلفيون إليها.

ثالثاً: الوعي داخل التيار السلفي بأن هناك تطوراً كبيراً يواجهه هــذا التيار، وهو: أنه ينتقل مــن مرحلة الجماعة إلــى مرحلة الدولة وأن مرحلة الدولة تفترض دراية وخبرة لمواجهة مشــاكل مجتمعات معقدة ومن ثَمَّ فإن ذلك يتطلب خبرة ودراية.

رابعاً: بناء عناصر سلفية عبر العمل من خلال المجالس المحلية التي تعبِّر عن فضــاء يبني القدرة على التعامل مع مشاكل الناس على المســتوى المحلي، واعتبار أن ذلك أهم بكثير من المســتويات العليا على المستوى القومي، والتجربة التركية هنا مهمة.

خامســاً: التركيز على العمل الدعــوي واعتباره العمل الرئيسي للتيار، والتركيز على العمل الاجتماعي والحقوقي، وعدم الاندفاع غير المحســوب إلى عالم السياسية؛ وإنما يكون التعامل معه بقدر من الحذر والمحاســبة والحساب؛ لأن السياسة ليست وحدها هي أداة تغيير المجتمعات بقدر ما يتوازى معها عمل لمجتمع قوي وطبقة وسطى واسعة.

سادســاً: محاولــة تطمين القوى السياســية المعادية؛ وخاصة العلمانية والقبطية والغربية والتي تأثرت بالدعاية المضادة من قِبَل أعداء الإســلاميين في مرحلة الاستبداد وفي مراحل علو الأصولية الإنجيلية والمحافظين الجدد.

سابعاً: التركيز على إدارة التنوع داخل الحالة الإسلامية؛ بحيــث يكون ذوو القربى من الإســلاميين بينهــم تفاهماتهم وتحالفاتهــم الخاصة التــي تحميهم من تقلبــات التحالفات خارجهم من العلمانيين وغيرهم، وتجاوز الانتقادات التي كانت تطلقها التيارات الإســلامية ضد بعضهم بعضاً، والبحث عن مشــتركات وتفاهمات حول نقاط الخلاف؛ بحيث يتم تعريف العدو الرئيسي والصديق الرئيســي، وبحيث تبنى التحالفات بناء على أولويات واضحة بعيداً عن العاطفة والتخبط.

ثامناً: خوض التجــارب الإعلامية؛ وذلك عن طريق بناء مصادر إعلامية مســتقلة للإســلاميين والســلفيين؛ بحيث تكون هذه التجارب بعيدة عن الشــخصية والمشاريع الخاصة التي تعــود بالربح على أصحابها دون مشــروع الســلفيين والإســلاميين. وهنا لا بد أن تكون تلك المشاريع قائمة على التخطيط والمعرفة والعلم ومشاركة واجتذاب عناصر يمكن أن تمثل غطاءً يحمي الفاعلين السياســيين؛ بحيث تكون الكفاءة والمهنية والرقابة هي المعايير التي تؤهل للقيادة والترقي.

تاسعاً: خوض تجارب المراكز البحثية والأكاديمية التي تقوم على الاحتراف والعمل السياســي الحقيقي، وليست تلــك المراكز المترهلة التي لا تجمع بين المتابعة السياســية اليومية وبين التأصيل العلمي السياسي للمشاريع المتوسطة وطويلة الأجل، وأن تكون تلك المراكز أوســع أفقاً ورحابة؛ بحيث تعبِّر عن رؤى للدولة وللإقليم وللعالم وليســت رؤية للتيار السلفي وحده.

عاشراً: بناء الأوقاف والمشاريع الاقتصادية التي تحرر الأحزاب الإســلامية والمشــاريع الدعوية والإعلامية من الحاجة إلى الأموال؛ وخاصــة أن الأموال هي الرافعة في مثل هذه المشاريع، وأن يكون دعم هذه المشاريع غير مشروط متى علــم الداعمون أنها تعمل في المســار الصحيح وأنها تبتغي رفع راية الإسلام في صراعه الطويل مع أعدائه.

موقف الغرب من الثورات العربية...

رؤيــة سياســـــية

محمد سليمان الــزواوي(*)
zawawy@yahoo.com

بالرغم من أن الثورات العربية اندلعت لهدف واحد في معظم دول الربيع العربي - ألا وهو حق الشــعوب في تقرير مصيرها وامتلاك زمــام أمورها - إلا أن الــرؤى الغربية تجاهها تباينت تباينــاً حــاداً؛ فبينما كان رد الفعل ســريعاً وواضحاً مع الحالة التونســية بضرورة تخلــي بن علي عن الســلطة، كان رد الفعل الغربي بطيئاً ومتلكئاً في حالة مبارك في البداية، وصرحت وزيرة خارجية الولايات المتحدة أن نظامه مستقر ولكنه يجب أن يجري إصلاحات، وذلك قبل أن ينهار النظام بكامله وتؤيد أمريكا الثورة بعد ذلك. أما في الحالة الليبية فكان ردُّ الفعل حاســماً وسريعاً وإيجابياً بتدخُّل عسكري كامل، وبدعم لوجيستي، وبفرض حظر طيران وبتوفير السلاح للثوار، وأما في الحالة السورية فقد ظل ردُّ الفعل الغربي يراوح مكانــه وكان بطيئاً ومتلكئاً وبدا أنه غير عابئ بشلالات الدماء المستمرة التي يريقها نظام الأسد، وبينما خيــم الصمت الغربي على الحالة البحرينيــة؛ إلا أنه كان فاتراً وخافتاً في ما يتعلق بالحالة اليمنية، وظلت العلاقات مع الرئيس اليمني متواصلة وممتدة حتى اللحظة الأخيرة.

(*) باحث ماجيستير في العلوم السياسية.

وذلــك التباين في الرؤى الغربية تجــاه الثورات يؤكد لنا أن التحــركات الغربية لا تنطلق بناء علــى مبادئ ولكن بناء على مصلحة تدور وتتغير وتتباين؛ فالمبادئ لا تتجزأ، والمبادئ الغربية واضحة في ما يتعلق بحقوق والإنسان والديمقراطية وحقوق الشــعوب في تقرير مصيرهــا، ولكن المصلحة تتغير وتتبايــن تبايناً حــاداً من بلد إلى آخر؛ وهو ما يفســر ذلك الصعود والهبوط في التعامل مع الثورات العربية؛ فبالرغم من الشعارات الواضحة للغرب في ما يتعلق بتطبيق الديمقراطية منذ حقبة بوش الابــن، إلا أن واحداً من أكبر مفكري الغرب وهو نعوم تشومســكي يؤكد على أن الغرب لم يكن يوماً يريد تطبيق الديمقراطيــة في العالم العربــي، فيقول في إحدى الندوات مؤخراً: «الولايات المتحدة ســتفعل كلَّ ما في وسعها لمنــع ديمقراطية حقيقية في العالم العربي، والســبب واضح للغاية؛ وهــو أن الغالبية العظمى من شــعوب المنطقة تعتبر الولايات المتحدة مصدراً أساســياً لتهديد مصالحهم، بل إن الغالبية معارضة لسياســات أمريكا الخارجيــة»؛ لذا تباين التعامل الغربي مع الثورات العربية كالتالي:

مصر:

يقول نعوم تشومسكي: إن نسبة المعارضة الشعبية للولايات المتحـــدة «في مصر – وهي أهم دولة – تبلغ ٨٠٪؛ ولذلك فإن أمريكا وحلفاءها لا يريدون حكومات تعبِّر عن إرادة الشعوب؛ فلو حدث هذا فلن تخسر أمريكا فقط سيطرتها على المنطقة ولكنها ســـتُطرَد منها أيضاً»، ويضيف: «مصر وتونس والدول المثيلة لها التي لا تُعَد مصدراً أساسياً للنفط فتوجد لها خطة يتم تطبيقها نمطياً ولا تحتاج عبقرية لفهمها؛ فإذا كان لديك ديكتاتوراً مفضلاً يواجه مشاكل فقف بجانبه حتى آخر مدى، ولكن عندما يســـتحيل الاستمرار في دعمه لأي سبب مثل أن يتوقف الجيش عن دعمه، فقم بإرساله إلى مكان ما، ثم أصدر تصريحات رنانة عن حبك للديمقراطية ثم حاول الإبقاء على النظام القديم ربما بأســـماء جديدة، وقـــد حدث هذا مراراً وتكراراً، حدث مع سيموزا في نيكاراغوا ومع الشاه في إيران ومع ماركوس في الفليبين وديفيلييه في هاييتي، وزعيم كوريا الجنوبية ومابوتو في الكونغو وتشاوشيسكو مفضل الغرب في رومانيا وســـوهارتو في إندونيسيا. إنه أمر نمطي تماماً وهذا بعينه ما يحدث في مصر حالياً».

فالولايـــات المتحدة تعلم أن الثورة المصرية ســـوف تخرِج أنظمة غيـــر ودودة تجاهها إذا ما أجريت انتخابات شـــعبية نزيهة؛ لذلك فإن المصلحة العليـــا للغرب حالياً هي الحفاظ على ديكتاتورية عســـكرية من أجل الضغـــط عليها بتصدير الســـلاح وبالدعم المالي والمعونات العســـكرية، كما كانت تلك هي الحالة مع عدة دول حول العالم الإسلامي من بينها مصر في حقبتَي الســـادات ومبارك، وباكستان منذ استقلالها حتى حقبة مشـــرف، وكذلك تركيا قبل الحقبة الإردوغانية؛لذلك فإن الخيار الأمريكي الأول هو الإبقاء على الحكم العســـكري المصـــري. أما إذا فشـــل ذلـــك الخيار وبعـــد أن رأينا نتائج الانتخابـــات المصرية فـــي مراحلها الأولى قـــد أفرزت فوزاً إسلامياً كاسحاً فإن الولايات المتحدة يمكن أن تسير مع مصر في ثلاثة مسارات:

المسار الأول: دعم الحركات الليبرالية ومنظمات المجتمع المدني ووســـائل الإعلام الجديدة والقنوات الفضائيـــة الليبرالية المعادية للإسلاميين، بهدف تقويض النفوذ الإسلامي السياسي والحد من تأثيره والمحافظة على أسهمها في التحكم في خيوط اللعبة داخلياً والإبقاء على فرصها في تشكيل الحياة السياسية المصرية.

المسار الثاني: الحوار مع التيارات السياســـية الإسلامية ومحاولة الضغط عليها والتوصل إلى حلول وســـطية معقولة بقبول الديمقراطيـــة والتعددية وحقـــوق الأقليات والمواطنة وكافة مكونات الحضارة الغربية.

المسار الثالث: في حالة فشـــل الخيارين السابقين فإن الولايـــات المتحدة ســـوف تلجأ إلى قوتهـــا الصلبة بأن تقوم بإجبار الأنظمة المصرية على الســـير في الطريق الذي تريده الولايات المتحدة عن طريق التضييق عليها اقتصادياً وعسكرياً بأن يتم منع المعونة العســـكرية والتحكم فـــي عملية تصدير الســـلاح إليها، وكذلك العمل من خلال المنظمات الدولية من أجل تقليم أظافر السياسة المصرية ونفوذها في حقبة ما بعد الثورة، والتعامل مع أي نظام سياســـي إسلامي مستقل يخرج من العملية السياسية المصرية بصورة مؤلمة اقتصادياً من أجل أن يدفع الشـــعب المصري ثمـــن اختياراته كما كان الحال مع تجربة حركة حماس بعد فوزها في الانتخابات الديمقراطية.

تونس:

الأمـــر في تونس لا يختلـــف كثيراً عـــن التعامل الغربي مع الحالة المصريـــة؛ إلا أن قدرة النظام التونســـي الجديد وتركيبتـــه المجتمعية يمكن أن تؤديا إلى انتهاء التعامل الغربي معها في المرحلة الثانيـــة للتعامل الغربي مع الحالة المصرية؛ وذلك لتركيبة حزب النهضة الإسلامي وكذلك تركيبة المجتمع التونســـي المنفتحة بصورة أكبر على الغرب واستعداد تونس حكومة وشـــعباً علـــى التعاطي مع العَلمانية ومـــع الليبرالية الغربية؛ فتونس لا تمثـــل معضلة للغرب لأنها بلد غير نفطي واقتصادها يعتمد بصورة كبيرة على السياحة الغربية، وخروج نظام سياســـي على النمـــط التركي لن يؤثر بصـــورة تُذكَر على السياسات التونســـية الخارجية ولا على توجه السفينة التونســـية؛ إلا أن الغرب سوف يســـتمر في المسار الأول وهو دعم الحركات الليبرالية، وقناة نسمة الفضائية نموذج واضح لذلك عســـى أن تصبح تونس نموذجاً للمزج ما بين الليبرالية والديمقراطية والسياسات الإسلامية على النمط التركي.

ليبيا:

تختلف ليبيا عن مصر وتونس في أنها تأوي حقولاً نفطية غنية وقريبة مـــن أوروبا والولايات المتحـــدة؛ فالنفط الليبي يســـير في مســـارات آمنة في البحر المتوسط كما أن المحيط الإقليمي لا يشـــهد توترات بعكس نفط الخليج العربي – على سبيل المثال – الذي يمر بمشكلات سياسية في كلٍّ من العراق وإيران بالإضافة إلى المسارات البحرية غير الآمنة في القرن الإفريقـــي؛ لذا كان الغرب واضحاً منـــذ بداية الثورة الليبية وتدخَّل عسكرياً ودعم الثوار بالسلاح والعتاد ولم يتردد حتى في ظل وجود إســـلاميين يسيطرون على الثورة الليبية؛ فكان خيار الإطاحـــة بالقذافي هو الخيار الأول من أجل نزع صفة الجنون عن السياسات الليبية وتذبذب ضخ النفط إلى الغرب لأي عـــارض يـــراه القذافي الذي كان غيـــر مأمون الجانب؛ واســـتمر الغرب في التواصل مع ليبيا بعـــد الثورة في كافة مراحلها السياســـية، ولا يبدو أن الغرب لديه خيار آخر، كما أن النظام الليبي هو الآخر يبدو أنه ليس أمامه خيار ســـوى ربط مســـتقبله بالغرب؛ وذلـــك لأن الاقتصاد الليبي اقتصاد غير متنوع ويعتمد بصورة كاملة على النفط، ولا تتحمل الدولة الليبية الناشـــئة رفاهية اختيار من الدولة التي ستصدر إليها نفطها؛ لذلك فإن صفقة وحيدة يمكن عقدها مع الغرب، هي: النفط الليبي مقابل الدعـــم الغربي لأي حكومة كانت، تخرج من رحم الثورة الليبية.

اليمن:

تُطِـــل اليمن على واحدة من أهـــم المجاري الملاحية في العالم (خليج عدن وبـــاب المندب) الذي يعد بمثابة بوابة ما بين الشرق والغرب؛ فمن يمتلك ذلك المجرى الملاحي يمتلك بوابة التجارة ويستطيع أن يمثل تهديداً للتجارة العالمية إذا ما حدثت فوضى في البلاد أو سقط الحكم في الأيادي الخطأ. لـــذا فإن الولايات المتحدة كانت متأنية للغاية في التعامل مع الثـــورة اليمنية برغم الدماء الكثيرة التي ســـالت هناك؛ بل إن التواصل الغربي الســـري والمعلن مع نظام علي عبد الله صالح ظل موجوداً حتى النهاية؛ فاليمن دولة فقيرة لا تمتلك مصادر طبيعية، ولكنها تمتلك موقعاً إســـتراتيجياً؛ لذا فإن مـــن مصلحة الولايات المتحدة ألا يحـــدث تحوُّل جذري في

وجهة السفينة اليمنية، حتى لو امتلأ سطحها بالانفجارات والدماء والأشلاء؛ طالما أن ذلك لا يتخطى حدود اليمن! والولايات المتحدة تمتلك مفتاح الحل السحري للمعضلة اليمنية بصرف النظر عن النظام السياسي القادم؛ فاليمن دولة تعتمد بصورة كبيرة على المعونات الخارجية؛ لذا تمتلك الولايات المتحدة رفاهية الانتظار والتوقف والتبين، فبصرف النظر عن مخرجات الثورة اليمنية فسوف يكون النظام القادم بحاجة ماسة إلى المعونات الأمريكية، وهنا تستطيع واشنطن أن تملي شروطها، بعيداً عن الديمقراطية وعن المبادئ الغربية.

سورية:

يقول الأمريكي توماس فريدمان (كاتب النيويورك تايمز): إن كل دول الربيع العربي تنفجر إلى الداخل، عدا سورية فإن انفجارها سيكون إلى الخارج؛ فسورية بمثابة البركان الذي ستصلي حممه كافة دول الجوار في حالة سقوطها في أتون صراع مسلح (تركيا، العراق، الأردن، لبنان، والكيان الصهيوني)، فالتدخل العسكري الغربي في سورية التي تُعَد من أكبر الدول المعادية للولايات المتحدة في الربيع العربي سيؤدي إلى تقسيم البلاد وإنشاء ملاذات آمنة للأكراد في الشرق، بتدخُّل إيراني واضح لدعم نظام الأسد، وسيكون ذلك موجَّهاً بالضرورة إلى تركيا التي استضافت الجيش السوري الحر وقياداته، كما أن حزب الله سيحرك ميليشياته هو الآخر وسيحاول إشعال حرائق متفرقة في دول الجوار من بينها تركيا انطلاقاً من شمال سورية بالإضافة إلى الكيان الصهيوني من أجل استدراجه إلى مواجهة على الجبهتين (اللبنانية والسورية)، ومن ثَمَّ تغيير محددات اللعبة وإيقاع المنطقة في أتون توترات كبرى تسقط عدة دول في دوامتها؛ ولذلك ظل الغرب يراوح مكانه ما بين مبادئه ومصالحه في سورية، ولم يحرك ساكناً سوى بضعة عقوبات اقتصادية على نظام الأسد، بينما ترك الموضوع برمَّته في يد أنقره عضو الناتو؛ حيث إن المصلحة العليا للغرب هي إسقاط نظام الأسد بالوسائل السلمية مثل العقوبات والضغط السياسي على النظام.

التحريض ضد الإسلاميين في الصحافة الغربية (مصر نموذجاً):

منذ اندلاع الثورة المصرية نشطت المراكز البحثية الأمريكية من أجل استقصاء آراء المصريين السياسية لمعرفة اتجاهات الرأي العام المصري، وقد نشرت مجلة فورين بوليسي هذا الاستقصاء فور تنحِّي مبارك في العاشر من مارس الماضي، والذي يظهر مدى تمسك المصريين بالإسلام كمصدر وحيد أو أحد مصادر التشريع (٨٧,٤٪).

	الرجال	النساء
الإسلام يجب أن يكون المصدر الوحيد للتشريع	٥٠,١٪	٤٤,١٪
الإسلام يجب أن يكون مصدر للتشريع ولكن ليس الوحيد	٣٧,٣٪	٣٧,٧٪
يجب ألا تكون الشريعة مصدراً للتشريع	٢,١٪	١,٤٪
لا أدري	٩,٧٪	١٦,٤٪

فورين بوليسي بتاريخ ١٠ مارس[1] ٢٠١١م.

ويبدو أن تلك المراكز الغربية عملت منذ ذلك الوقت على الاستعداد للنجاح الإسلامي المتوقع في الانتخابات، وبدأت الصحافة الغربية والمراكز البحثية تشن حملة ممنهجة للتفزيع من فوز الإسلاميين؛ فقد وجهت افتتاحية النيويورك تايمز في الأول من ديسمبر ٢٠١١م ثلاث كلمات بمناسبة الانتخابات المصرية: الأولى للإخوان المسلمين، والثانية للأحزاب المصرية، والثالثة لإدارة أوباما؛ حيث حذرت الإخوان المسلمين من أن المصريين غير مستعدين أن يستبدلوا حاكماً ديكتاتورياً عَلمانياً بحاكم ديكتاتوري ديني - وكأن الجريدة تتحدث نيابة عن الشعب المصري - والرسالة الأخرى كانت للأحزاب العَلمانية ودعتهم إلى التكتل وأن الوقت ليس وقت التفرُّق لعدم تشتيت الأصوات؛ لأن النتائج ستكون كارثية. أما كلمة لأوباما فقالت الجريدة: إنه ينبغي على أوباما توصيل رسائل واضحة لمصر أن أمريكا مع الحكم المدني وليس مع الدولة الدينية[2].

(1) http://www.foreignpolicy.com/articles/201110/03//what_egyptian_women_and_men_want?page=0,3
(2) http://www.nytimes.com/201102/12//opinion/egypts-vote.html

أما في الواشنطن بوست فكتب جاكسون ديل عن الانتخابات المصرية قائـلاً: إن المصريين لم يصوتـوا للديمقراطية، وإن الشعب سيأخذ البلاد إلى طريق غير ديمقراطي[1].

في حين طالب كلٌّ من ستيفن كوك ومارك لينش - في مقال نشـر بمجلس العلاقات الخارجية - الإدارةَ الأمريكيةَ بأن تعيد النظر في سياستها تجاه مصر بالكامل؛ والمطلوب منها هو التخلي عن الحذر في التعامل مع تأييد الديمقراطية فـي مصر، وأنه لا بد أن تكون أكثر وضوحاً في تعبيرها عن تأييدها للحكومة المدنية. أما في معهد واشـنطن لدراسات الشـرق الأدنى وهو الذراع البحثي للوبي الإسرائيلي آيباك الذي يمثل اليمين الإسرائيلي فكتب روبرت ساتلوف صراحة: أن واشنطن لم تمارس دورها المطلوب، وأنها كان يجب عليها أن تمارس مزيداً من الضغوط على المجلس العسكري الحاكم في مصر، وتسـاءل الكاتب قائلاً: «هل اسـتخدمت الإدارة الأمريكية جميع وسائل النفوذ للضغط على (المجلس الأعلى للقوات المسـلحة) لإجراء انتخابات رئاسية قبل الانتخابات التشريعية؟ لماذا صادقت الإدارة الأمريكية علناً يوم الجمعة الماضي على فكرة إجراء الانتخابات وَفْق موعدها في الثامن والعشـرين من نوفمبر رغم وجـود بدائل أخرى؛ مثل وقف التصويـت في القاهرة في ضوء أحـداث العنف الأخيرة أو إعادة تنظيم الجدول الزمني للانتخابات بشكل كامل لتغيير موعد انتخابات الرئاسة إلى وقت أسبق بكثير؟ هل تواصلت الإدارة الأمريكية عند أية نقطـة في العملية الانتخابية مع الناخبـين المصريين بطريقة مدروسـة وغيـر مهددة حول التداعيات المحتملة لاختياراتهم؟»[2]، وذلك في تدخل صارخ في الشـؤون المصرية؛ بل وبتحريض للإدارة الأمريكية على مزيد من التدخل وممارسة ضغوطها على المجلس العسكري مـن أجل أن يتم حرف الانتخابـات عن وجهتها لكيلا يصل الإسـلاميون إلى البرلمان بأي حال من الأحـوال، والأمثلة كثيرة لذلك التحريض الغربي السافر ضد العملية الانتخابية المصرية بعد أن حقق الإسـلاميون نجاحاً غير مسبوق في المرحلة الأولى من الانتخابات البرلمانية؛ لذلك فإن المستقبل القريب يجب أن يشـهد حذراً إسـلامياً فـي التعاطي مع السياسة وخاصة الخارجية منها.

(1) http://www.washingtonpost.com/opinions/in-egypt-a-revolution-denied/201128/11//gIQAHEPj4N_story.html
(2) http://arabic.washingtoninstitute.org/templateC05.php?CID=3196&portal=ar

كيف يتعامل الإسلاميون مع التحريض الغربي؟

من أول ما يتم تدريسـه لطلبة العلوم السياسية: هو أن السياسـة قائمة على المصلحة، وأنه لا توجد صداقة في العلاقات ما بين الدول، وكما قال وينسـتون تشرشل سـابقاً: «لا يوجد شـيء اسـمه الصداقة الدائمة ولكن هناك شيء اسـمه المصلحة الدائمة»؛ لذلك فإن تحقيق كل طـرف لمصلحته هو الأسـاس فـي العلاقات ما بين الدول؛ ولذلك فإن الأولولية الملحة للسياسيين الإسلاميين فـي حقبة ما بعد الثورات هي تحقيق مصلحة شـعوبهم ودولهم؛ بالمحافظـة على المكتسـبات الثورية: من حرية وقبول بالتعددية السياسـية وحرية ممارسة الإسلاميين للسياسة وللتنظيم ولإنشاء الأحزاب والجمعيات الخيرية؛ لذا من غيـر المقبول أن يتم اسـتعداء الغرب في الفترة الراهنة التي تشهد إعادة بناء دول الربيع العربي من جديد وإعادة بناء المؤسسـات الفاعلة فيها؛ لذا يجب أن يتمتع الإسلاميون بالحنكة لعدم استدراجهم إلى معارك جانبية تضيع مكتسـابتهم، ويجب أن يتفرغوا في المقابل إلى بناء الداخل مع عدم استعداء الخارج.

كما أثبـت الغرب أنه يمكن الاسـتفادة منه عندما تتقاطع المصلحة مثل الحالـة الليبية؛ حيث كانت قوات الناتـو هي الحاسـمة في وقف حمامـات الدماء التي كان القذافي مسـتعداً أن يسـكبها حتى آخر قطرة من الشـعب الليبي، ولم يكن ليردعه شيء، وقد أبدت بعض المؤسسـات الغربية نيتها التعاون مع الإسـلاميين إذا فازوا في الانتخابات البرلمانيـة؛ مثل الاتحاد الأوروبي في تصريحات لكاثرين أشـتون الممثلة الأوروبية العليا للسياسـة الخارجية والأمن[3]. فالكـرة الآن في ملعب الإسـلاميين الذين يجب عليهم أن يعملوا معاً من أجل توحيد أجندتهم ومواقفهم لتقوية آراء المحللين الغربيين المؤيدين للتعامل مع الإسـلاميين، ومن أجل نزع شوكة الكتَّـاب الغربيـين المؤيدين للكيـان الصهيوني والذين يريدون وَأد التجربة الإسـلامية السياسية في مهدها، ويرون أن السياسـات الإسـلامية شـر محض يجب محاربته بكافة الوسائل.

(3) http://digital.ahram.org.eg/Policy.aspx?Serial=721548

انعكاسات الثورات العربية على الوضع في العراق

حـــارث الأزدي(*)

لا شك أن تعاظم الإرادة الشعبية المعبرة عن طموح الشباب المثقف من أصحاب القضية والانتماء لهذه الأمة يحدوهم الأمل والتصميم والإصرار العنيد في النضال المتواصل، للوصول إلى أهدافهم المرجوَّة من وراء هذا الحَراك؛ فبعد تعاظُم وتغول الأنظمة القمعية وتربُّعها على صدور شعوبها لم يكن بدٌّ إلا أن تنزع هذه الجموع ثوب الاستكانة والتدرع بدرع الثورة الجديد، التي لم يكن لها سلاح سوى صداح الحناجر بشعارات الثورة المحبوكة بإتقان شديد في رباعيات يعجز عن مواجهتها الظالمون، ولم يكن لها من دروع المواجهة سوى استقبال رصاص هذه الأنظمة بصدور عارية لا تخشى على حياتها بقدر خشيتها على إجهاض ثورتها، فالثورة تشكل اليوم ميلاد حياة امة غابت عن مسرح الأحداث بعد أن استحوذت مجموعات مستبدة بالسلطة على نشاطات الحَراك السياسي؛ فلم يعد شيء منه معبراً عن طموح أبناء الأمة، بل والأدهى من ذلك والأمَرُّ هذا التزاوج غير الشرعي بين السياسة والاقتصاد فعادت المؤسسات الاقتصادية للدولة رهينة بالحاكمين ومن ينتمي إليهم بصلة قرابة أو تملُّق جعلت من ثروات البلاد غنيمة لهم ومن القرارات المصيرية لعبة لا يشاركهم بها أحد.

(*) كاتب ومحلل سياسي عراقي.

وإذا حاولنا قراءة ما يجري في الساحة العربية عموماً في الدول التي شهدت هذه الثورات فسنجد أن الإصرار والتصدي بحزم لكل ما يُطرَح من مشاريع وتسويات وتنازلات لا تأبه بها جموع الثائرين بل تزيد من عزمها وديمومتها وتَعُدَّها مؤشراً لصدق توجُّهاتها وقوَّتها فتزيد من حَراكِها أملاً في الإسراع للوصول إلى أهدافها بأقل قَدْر من الوقت والتضحيات. لقد أينعت ثورة تونس وأبدعت منهجاً جديداً في التصدي للظلم، وأنارت أرجاء مصر ثورتُها التي أبدعت في إنتاج نموذج التلاحم المصيري في مواجهة مؤسسة حاكمة لأكثر من أربعين عاماً، ربما كان بعض العادين يرى أن من غير المتصور أن يحدث تغيير في تونس، تلك الدولة التي حُكِمَت بالحديد والنار مؤتزرة بالأنظمة الإلكترونية لتحصي أنفاس الناس جيئة وذهاباً، ومثل ذلك حدث في مصر التي كانت حكومتها ترتب للتوريث الجمهوري وتسليم السلطة من الأب إلى الابن لتبقى رقاب المصريين رهينةً بنظامهم الذي استحكم حلقات التضييق على الناس في السياسة كما التجارة فلم يَعُد للشعب رأي ولا يجد مساحة للتعبير عما في داخله تجاه المعاهدات المريبة التي تعقدها الحكومة بمعزل عن الشعب.

إن موضوع التأثُّر والتأثير بين الثورات العربية والوضع في العراق لا يعني أن العراق بمعزل عن الدول العربية ولا الدول العربية ذاتها تتحرك في فلك غير فلك العراق؛ بل إن العراق والدول العربية في كلا الدائرتين (التاثير والتأثُّر) يقعون، ولو أن منصفاً رصد الحَراك العراقي في مستواه الميداني منذ الاحتلال الأمريكي وإلى يومنا هذا لوجد أنه يخوض في بحر من الأرقام المهولة في قتل وجرح جنود الاحتلال وتدمير آليات الاحتلال وإسقاط طائراته بطياريها وتلك التي تنطلق من دون طيار، وهذا يعني أن بداية الرفض لمشروع الاحتلال الأمريكي المتمثل بالشرق الأوسط بتسميتَيه (الجديد والكبير) إنما كانت عراقية. وعلى الرغم من أن الاحتلال الأمريكي استطاع بشِق الأنفُس – بالنسبة إليه لتعاظم الرفض الشعبي لصفحاته – أن يواصل تنفيذها بالاعتماد على أدواته وعملائه الأذلاء، غير أن الإصرار الشعبي العراقي أفشل جميع هذه الصفحات بدءاً من صفحات الشحن الطائفي ومروراً بعدم الاعتراف بالدستور الملغَّم وليس انتهاءً بمشروع التقسيم باستخدام آلية الفدرلة.

إن ما حدث في العراق من احتلال وتوالي صفحاته وما جرى للعراقيين ألهب مشاعر العرب بالثورة ضد الجلادين، وإن ما حدث في السودان من تقسيم وإثارة الفتن العرقية والطائفية وإدامة النزاعات الداخلية جعل من الشباب العربي شعلة وضاءة لإعادة إنارة الطريق للخلاص من هذا الواقع المؤلم فالتأثر والتأثير متبادَل بين ما حدث في العراق وما يحدث اليوم من ثورات في البلاد العربية؛ فمطلب الثورات التخلصُ من تركة ثقيلة جثمت على صدور هذه الشعوب فما عادت تطيق النطق بحق، فكان لا بد من ثورة شبابية تعيد لهذه الشعوب هويتها الحقيقية.

إن العراق على مرِّ العصور موصوف بأن من يحكمه يحكم الجهات الأربع؛ لما يمتلكه من موقع إستراتيجي، ولما يتمتع به أبناؤه من حصافة الرأي. فليس غريباً عن العراقيين رجاحة العقل فهم الموصوفون في كتب الفقه الإسلامي بأنهم أهل الرأي والمنطق ورجاحة العقل في إيجاد الحلول لأصعب المسائل وأكبر المشكلات، وعلى الرغم من أن صفحات الاحتلال الأمريكي في العراق أجهدت العراقيين وأخذت من جهدهم كثيراً إلا أن العراق على مدى ثماني سنوات عجاف – هي عمر الاحتلال – يعيش حالة من الارتباك والتخبط والصراعات السياسية التي يغذِّيها المحتل، وتعمل على إدامة صراعها دولة الإقليم المتمددة بمخالبها الشيطانية. هذا الصراع وتلك الأجندات الغريبة عن المجتمع العراقي جعلته يعيش أوضاعاً متدهورة نتيجة المحاولات المتكررة وإدامة الطرق على وتر إلغاء الطابع الانتمائي للعراق من خلال ممارسة السياسة الإقصائية، وفي مقابل هذا كله كان الجهد المناهض للاحتلال الأمريكي حاضراً وله بصمته في ذهنية الشارع العراقي؛ بل إن ثوابت القوى المناهضة للاحتلال صارت أرجوزة يرددها أبناء العراق من خلال تعبيرهم عما يجري من صراعات في الساحة السياسية العراقية؛ فالعملية السياسية الجارية تحت رعاية المحتل ومنذ تأسيسها على يد الحاكم المدني المعيَّن من إدارة الاحتلال عقب غزو العراق (بول بريمير): مرفوضة بالكامل، ومرفوض من يسلك مسالكها، والدستور الملغَّم الذي استوردته إدارة الاحتلال من اليهودي نوح فيلدمان مرفوض مهما حاولوا (عرقنته) بإضافة ديباجة طائفية أو تحصينات عرقية على اعتبار أن من تولى صياغته وإقرار فقراته هي

مجموعة عرَّابي الاحتلال الأمريكي، ومع كل هذا الجرم الموجود في الدستور الحالي فإنهم قدَّموا له ليمرروه من خلال الإقرار أن استفتاء شعبياً سيحصل عليه الدستور، وها هي اليوم جحافل المحتلين تخرج من العراق ولم يحدث أي استفتاء؛ بل إن الأوضح في مشاكل الدستور ما عمد إلى ترديده بعض أقطاب العملية السياسية في ظل الاحتلال من أن الدستور يحتاج إلى إعادة كتابة؛ فيا للعجب قبل سنتين كان الدستور مقدساً لا يسمح أحد منهم التعرُّضَ له! فما الذي تغير؟ إن الذي تغير هو أن المؤسسات التي رعاها أذناب المحتل صارت بيدهم بالكامل ويريدون التغيير لمحاصرة كل من يعترض عليهم؛ فالأقاليم التي كانوا ينادون بها اليوم ليسوا بحاجة لها إذا استتب الأمر لهم وصاروا قادرين على فرض أجندتهم على كل العراق؛ إذن العملية السياسية القائمة على المحاصصة بنِسَبها الاحتلالية والدستور الملغَّم بمشاكِلَ طويلة الأمد: تديم الصراع في العراق ليتسنى لهم حكم الضعفاء.

كل هذه الفقرات تدعو أبناء العراق الغيارى الذين تصدوا للاحتلال بصفحته العسكرية ومرغوا أنف الإمبراطورية الموهومة بالتراب العراقي، وكشفوا زيف المؤامرات وما وراء المخططات ليرسموا بوعيهم الأفق الجديد للعراق، فكان لهم حَراكهم المتميز عن بقية التحركات وإن كان استلهم مقومات الثورة العربية في البلدان التي حكمتها دكتاتوريات لعقود من الزمن، كيف استطاعت هذه الشعوب سحب البساط من تحت هؤلاء الظالمين وجعلتهم كالريشة في مهب الريح؟ هذا النجاح في التحركات الشعبية وهذا الإصرار الشبابي المؤطر بالوعي العالي وعدم الانجرار إلى محاولات الاختراق والتمييع والتجميد والتسويف التي تسوقها الأنظمة ومثيلتها في العراق (مجموعة أدوات الاحتلال)، جعلت من الشباب العراقي يديم حَراكه الذي ابتدأ في الخامس والعشرين من شهر فبراير شباط من عام ٢٠١١م ليشكل بمجموع أبناء العراق حركة عراقية قوية زلزلت الأرض من تحت المتدرعين بقوات الاحتلال الذين يستخدمون شماعة الإرهاب وتخريب العملية السياسية المهترئة - أصلاً - تمهيداً لاعتقالات بالجملة وزجِّ العراقيين وحشرهم في كانتونات مناطقية وأخرى طائفية وثالثة عرقية لا يخرج منها أحد ولا يدخل إليها أحد إلا عبر بوابات تقف عليها عناصر القمع الحكومي للتضييق على أي حَراك عراقي يريد أن ينتشل العراق من حالة الاختطاف التي قامت بها زمرة العملاء بالتعاون والإسناد من قوات الاحتلال الأمريكي.

في ظل ظروف كهذه كان لا بد للعراقيين من استلهام الفكرة التي حررت الشعوب في المنطقة من رِبقَة الانصياع للحاكم الظالم، ورفع الصوت عالياً في ساحات البلد لتكون صرخة تدوي في أرجائه يتصدع منها البناء المتهالك لمؤسسات الطائفية والمتاجرات العرقية التي ظنت أن بمساندتها من المحتل سيكون لها ما تريد من إقامة إقطاعات طائفية وعرقية وسرقة قرار البلد وتجييره لمصالح ومنافع الاحتلال وأدواته ودولة الإقليم المتمددة بواسطة الأدوات التي رعتها لعقدين من الزمن قبل الاحتلال وحان سداد ما بذمتها لهذا الإسناد بخراب العراق وتمزيق لحمته.

لقد قرأ العراقيون تجارب إخوتهم في البلاد العربية الثائرة واستلهموا نقاط نجاحهم وقوة تأثيرهم واستنسخوا الأسلوب والطريقة والكيفية وصاغوها عراقية بما يتناسب وطبيعة الشخصية العراقية فكان لهم ما أرادوا؛ فسرعان ما ظهرت تجمعات وائتلافات وروابط تجمع العراقيين وتنسق حراكهم، فلم يكن من مجموعة الأدوات إلا التصدي لهذا الحَراك بوحشية فاقت كلَّ تدابير الظالمين في مناطق أخرى من بلاد العرب؛ إلا أن التحدي الذي ينفرد به العراقيون عن غيرهم في حَراكهم الثوري التغييري أنهم يتصدون لمنظومة ثلاثية الأبعاد:

الأول: الاحتلال وانتهاكاته.

والثاني: هي مجموعة عملاء المحتل الذين أدركوا أن الشعب بوعيه وحَراكه إنما يمثل جرس الإنذار الأخير قبل أن تعاد صورة هروبهم كما فعل أسيادهم في سايغون؛ ولذلك استنفروا كل طاقتهم في التصدي للعراقيين وحاصروا ساحاتهم التغييرية في بغداد والموصل والرمادي والكوت والديوانية والناصرية والبصرة وغيرها من ساحات العراق التي تجلت فيها لحمة العراقيين وعصيانهم عن تنفيذ مخططات التقسيم و(الفدرلة) والتمزيق مهما اختلف منفذوها.

والثالث: هو تمدُّدات دولة الإقليم التي تحاول جاهدة في السيطرة على القرار العراقي من خلال

اعتماد الأدوات نفسها التي اعتمدها المحتل؛ وذلك بمدهم بأسباب استقوائهم على الشعب.

إن الشعب العراقي بشتى أطيافه وتوجهاته أدرك تمام الإدراك أن محتلاً لن يبني بلداً، وأن لصوصاً لن يأتوا له بأي خير، وأن دولة الإقليم الطامعة بالعراق تحاول من خلال عملائها الإبقاء على الصراعات الداخلية للإفادة منها في الإبقاء على قرارها في المنطقة وإقامة هلالها الموعود في ظل الرعاية الأمريكية وإن كانت التصريحات الإعلامية تقول غير ذلك.

إن الثورة العراقية لم تَحِد عن منهج الثورة الشبابية؛ بل إنها تسير وَفْق تخطيط وإدراك ووعي منقطع النظير؛ فلم تُرفَع لافتة في الثورة الشبابية العراقية تطالب الولايات المتحدة بالتدخل وإيجاد الحماية لها - وهذا مؤشر قوي على استقلالية الثورة - ولم يسجَّل على مدى الحَراك العراقي في ساحات التغيير العراقية فرزاً طائفياً أو عرقياً؛ بل إن أحد أيام الثورة العراقية كان يوم جمعة أزادي وهو اسم كردي بمعنى الحرية، ولم يلتفت جموع الشباب إلى محاولات الحكومة الاحتلالية بالتسويف والانتظار لمائة يوم وبعدها يكون ما يستدعي الثورة إن ثبت فشل الحكومة؛ بل إن الإصرار ازداد وصار أكثر صلابة في التصدي للفساد الحكومي والارتماء بحضن المحتل. ومن توفيقات الحَراك العراقي أنه لم يستمع إلى محاولات التمييع التي أطلقها من يزعم أنه قائد تيار في المجتمع العراقي لإنقاذ الحكومة، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن الثوار العراقيين لم يعودوا يأبهون بالعناوين الفارغة وأن الفعل الحقيقي صار في ساحات التغيير.

ولا شك في أن الثوار في تونس ومصر واليمن وغيرها من البلاد التي تشهد حركات ثورية شبابية على تواصل مع القائمين على الثورة العراقية؛ وذلك بإرسال الرسائل وتبادل المعلومات وكتابة المقالات والبحث في سبل إدامة الحَراك وتشكيل الهيئات والائتلافات والتنسيق بينهم.

يقول أحد الكتَّاب التونسيين[1] عن بطولة أبناء العراق في التصدي للاحتلال بالعمل الميداني ويحثهم على الحَراك الثوري الجماهيري بمقالة جعل من كلمة رسالة عنواناً لها وجَّهها إلى العراقيين يبارك حراكهم فيقول: (واجهتم كل ذلك بأدوات بسيطة ولكنها كانت فاعلة ومؤثرة في قوة العدو؛ حتى أنه ضج من صبركم وقدرتكم على التحمُّل؛ فأصيب أكثر من نصف جيش الولايات المتحدة بعاهات نفسية مستديمة قبل تدمير معظم آلياته ومعدَّاته بفعل عبواتكم الناسفة المطوَّرة عراقياً، واستهدفت أكثر ما استهدفت كاسحات ألغامه نوعاً من التحدي التكنولوجي لشعب علَّم كلَّ العالم الكتابة واخترع الحروف؛ فكيف لرعاة البقر أن يهزموا إرادته لقد برهنتم أنكم أقوى من جلاديكم ولقنتموهم دروساً في الوطنية والفداء والثورة في كل مكان من العراق الأشم: من الفلوجة الأسطورة إلى الرمادي وتلعفر واليوسفية واللطيفية إلى تكريت والموصل وسامراء والناصرية والبصرة وبغداد إلى كل ذرة تراب في العراق تحكي بطولاتكم وعنفوانكم).

هذا الفهم والوعي المتكامل للتجربة العراقية يعطيها بُعداً عربياً تكاملياً تأخذ من أخواتها الثورات العربية كما أخذت أخواتها منها فالعراق اليوم وفي ظل الاحتلال الأمريكي وما خلَّفه وأنتجه من مؤسسات تأتمِر بأمره يحوي دكتاتوريات مزدوجة وبأنواع مختلفة، أنتجتها الفوضى الخلاَّقة التي رعتها كونداليزا رايس فكان نتاجها المِسخ كل هذه الدكتاتوريات المسوخة والمشوهة للمشهد السياسي في العراق؛ ففي العراق اليوم مشروع دكتاتورية فردية تقوم على أساس استقواء الحزب الحاكم، تسعى للتخلص من المنافسين بطرق متعددة (قتل بكاتم الصوت، أو اتهام بالإرهاب، أو ملفات فساد ملفقة وغير ملفقة)، وتوجد أيضاً دكتاتورية عائلية تريد تأسيس دويلة في شمال العراق تساندها أمريكا ومن خلفها الصهيونية العالمية، وهناك دكتاتوريات حزبية استقوائية بالمناصب السيادية التي نالتها نتيجة المحاصصة الحزبية والفئوية تسعى لتأسيس قوة تبقى تهدد اللحمة العراقية. ويشمل المشهد السياسي في ظل الاحتلال دكتاتوريات واستقواءات متعددة أخرى تجمعها منافعها الفئوية والفردية والحزبية، وتفرِّقها قسمة الغنائم واستلاب الأموال، والحَراك العراقي الدائر على الأرض العراقية يتصدى لكل هذه الأنواع من الدكتاتوريات ومن يقف مسانداً لها من الاحتلال الأمريكي ودولة الإقليم المتمددة في ظله (إيران).

(١) مقال منشور في موقع الهيئة نت بعنوان: رسالة من ثوار تونس إلى ثوار العراق، للكاتب التونسي ناصر الخشيني.

إن العامل الرئيسي الذي يقرؤه المتابعون: أن المقاومة العراقيـــة بتصدِّيها البطولي وكســـر شـــوكة الاحتلال الأمريكي في العراق، ألهب شـــعور المجتمع العربي في التوجه نحو جلاديه وظالميه والإطاحة بهم؛ فالعراقيون بكل فخر كانوا الحلقة الأولى في كســـر حاجز الخوف وانقـــلاب الهـــرم المجتمعي بتوجيه حركة الشـــارع إلى الأهداف الرئيســـية التي تمهِّد لولادته من جديد، وإذا كان للعراقيـــين هذا الفخر فمن باب الاعتراف بالفضل فإن شعب تونس وشـــعب مصر الكنانة كان لهما السبق فـــي جني ثمرة الحَراك الثـــوري المجتمَعي وميلاد عهد جديد يعيد للشعوب حياتها وتأثيرها.

إذن التأثيـــر متبادَل بين الحَـــراك العراقي وباقي الحـــراكات العربية ســـواء التي أنتجت تغييـــراً أو تلك التـــي لا تزال تناضل من أجل التغيير وإعادة الحياة إلى قرارها السياسي.

خلاصة القـــول: إن تحالـــف النيتـــو والصهيونية والولايات المتحدة الأمريكية تفاجـــؤوا جميعاً بالثورات العربية، وهم في محاولات متكررة وجادة من أجل خرق هذه الوحدة الجماهيرية بإيجاد مناطق تأثير تســـندها هـــي وتنفذ هـــذه المناطق أجنداتها، هـــذه القوى تريد حرف البوصلة العربية عن أهدافها، وســـتحاول ابتعاث الأقليات والمجاميع وإدامة الصراع تحت عناوين مختلفة لتنمية الصراعات ودفعها إلى أبعد نقطة مخافة الالتقاء وتحطُّم الفوارق؛ وبذلك يســـقط مشـــروعهم المشترك الذين يعملون عليه جميعاً وهو مشـــروع الشرق الأوسط الكبير والجديد.

إن مـــا جرى في الدول العربيـــة من ثورات نجحت بالإطاحة بحكامها المستبدين أقلق دوائر القرار في إدارة الحـــرب الأمريكية فما كان منهـــا إلا أن دفعت باتجاه اعتماد عمـــلاء (المنطقة الخضراء) ومدِّهم بأســـباب البقاء بإصدار الإشـــارات إلى العالـــم بالتغاضي عما يحصل في العراق؛ وإلا بماذا تفسر السكوت عن خمسة وعشـــرين شـــهيداً في تظاهرة يوم الخامس والعشرين من فبراير شباط الماضي؟ ولماذا السكوت عن انتهاكات واعتقالات شـــملت الناشطين؟ وكيف نفهم إشادة ممثل الأمـــين العام للأمم المتحدة بإنجـــازات حكومة المالكي بمعية هـــذه الانتهـــاكات الصارخة لحقوق الإنســـان؟ وربما ليس من نافلة القول أن نذكر أن في شـــهر واحد كان تعـــداد المعتقلين قد تجـــاوز الألفين، ومع هذا نجد السكوت المطبِق من منظمات حقوق الإنسان ومنظمات المجتمع المدني، وكيف وكيـــف...؟ ولا أدري إذا أطلقتُ العنان لقلمي كم يسطر من هذه الكيف؟

ومع كل مـــا يحصل في العراق فـــإن تناغم الحَراك المجتمعـــي بطبيعته الثورية مع الثـــورات في بلاد العرب إيجابي وسينتج بإذن الله – تبارك وتعالى – تغييراً للوضع في العراق، يكون أبطاله الشـــباب الثائـــرون على نظام المحاصصة الطائفية والعرقية، الرافضون للاحتلال وما نتج عنه، العامدون إلى تغيير الدستور وإعادة كتابته على أســـس الانتماء للبلد لا كما تمليـــه عليهم إدارة الاحتلال ودولة الإقليم المتمددة (إيران). هؤلاء الشـــباب يستمدون قوتهـــم من الله القـــوي العزيز ثم مـــن انتمائهم لدينهم وتواصلهم العربي مع بقية الشـــعوب، وكيف لا وهم كانوا طليعة من أســـقط المشـــروع الأمريكي في العراق؟ فليس من الحصافة والفهم أن يتغافل المتغافلون عمداً حَراكهم، بالتعامل على أساس الأمر الواقع مع حكومة عميلة صنيعة للاحتلال، ومثلما أعادت الثورات العربية الاهتمام بقضية فلســـطين والقدس عاصمتها، وجعلتها تعود إلى الواجهة فسيكون للعراقيين شـــأنهم في إعادة العراق قوياً عزيزاً معافىً من أدران الاحتلال ونجس عملائه التابعين الأذلاء.

إن مرحلة الثورات العربية ســـتُنتج فهماً جديداً وإعادة صحيحة لترتيب أوراق الشعوب، وستمنع – بإذن الله – ظهور دكتاتوريات جديدة كالتي شهدناها خلال العقود الماضية؛ إذا ما أحسنت هذه القوى أحكامها في تنظيم العقد الاجتماعي الذي على أساســـه يكون التجمـــع والاجتماع والحركة داخل المجتمع الذي تنتمي إليه، ولا شك إن لكل مجتمع خصائصه ومميزاته فعلى القائمين على هذه الثورات أن يضعوا البصمة الواضحة لهم لكي يتجاوزوا اختلاط الأوراق وضياع المفاهيم؛ فكما يقال: إن الذي أوله شرط آخره نور.

نوَّر الله لهذه الأمة طريقها وجعلها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

مشروع التغيير في اليمن
بين الحكمة اليمانية وحماس الشباب

الخضر عبد الملك الشيباني(*)

لا يمكن الحديث عن الانتفاضة الشعبية في اليمن، أو ما اصطلح على تسميته (ثورة الشباب السلمية في اليمن) من خلال زوايا معدودة؛ نظراً لتشعُّب العوامل المؤثرة عليها والمكونات الداخلة فيها.

بينما لا يزال بعض الناس يطرح السؤال التالي:

هل كان الوضع باليمن بحاجة إلى انتفاضة الشعب أو ثورة الشباب، أم أن هذا جاء تقليداً وتبعاً لما حصل في بلاد تونس ومصر؟

لقد حاول كثيرون الإجابة على هذا السؤال بشكل مباشر، بل وبصيغة تسطيحية مكشوفة، مفادها: أن ما حصل في اليمن إنما هو مجرد أزمة سياسية مجردة، وأن القضية برمَّتها صراع بين الأطراف السياسية في اليمن (سلطة ومعارضة).

وقد حاول النظام الحاكم في اليمن استغلال هذا الوصف إلى آخر لحظة قبيل توقيع المبادرة الخليجية في الرياض قبل أكثر من أسبوعين، وبالتحديد في ٢٠١١/١١/٢٣م، واستمر خلال الأشهر التسعة التي سبقت التوقيع محاولاً تحميل أحزاب اللقاء المشترك المعارِضة مسؤولية ما يحصل في البلاد من الفوضى ونتائج الصراع المسلح بجميع أشكاله وصوره، ولعل هذا الأسلوب المتعنت من قِبَل الحزب الحاكم – وفي مقدمته الرئيس علي عبد الله صالح، رئيس المؤتمر الشعبي العام الحاكم – هو الذي جعل أحزاب المعارضة تعلن انضمامها ودعمها لثورة الشباب بعد نحو شهر من إعلان الانتفاضة في ٢ فبراير ٢٠١١م، وبذلك تكون قد تخلَّت عن جزء من برنامجها السياسي السابق للثورة، الممتد لأكثر من أربع سنوات لصالح ساحات التغيير الشبابية.

وقد جاءت تطورات الأحداث لتقدم مزيداً من المؤيدين للساحات، فها هي (هيئة علماء اليمن) التي يرأسها الشيخ عبد المجيد الزنداني، والتي كانت تقوم بدور الوساطة بين الطرفين السياسيين، تتحول نتيجة محاولات الاحتواء والتوجيه

(*) مدير عام مركز الكلمة الطيبة للبحوث والدراسات، ورئيس تحرير مجلة المنتدى (اليمن).

المباشـــر من قِبَل الرئيس وتحكُّمه المزاجي بشروط التفاوض، وهـو ما جعلها تقف في صف شـباب السـاحات معلنة أنه لا يجوز بحال التعدي عليهم ما دامت ثورتهم سـلمية، وأن ما يقومـون به هو أداء لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولم يمضِ وقت طويل حتى أعلن الشـيخ صادق الأحمر - شيخ قبيلة حاشـد، المنتخب بعد بضعة أشهر شيخاً لمشايخ اليمن - تأييده لثورة الشباب السلمية، وإعلانه ذلك على منصتها بعدما أحبط الرئيس كل محاولات المصالحة والمراجعة.

واكتمل المشـهد بعد (جمعة الكرامة ١٨ مارس ٢٠١١م) التـي قتل فيها ما يزيد عن خمسـين شـخصاً من شـباب الساحات على يد القوات الأمنية الموجَّهة من النظام وأعوانه (البلاطجـة) والمجرمـين، وهو ما حدا باللواء علي محسـن الأحمر (قائد الفرقة الأولى مدرع وقائد المنطقة الشـمالية الغربية) أن يعلن انضمامه لثورة الشـباب السـلمية، وتحمُّله مسـؤولية حماية سـاحة التغيير في صنعاء، التي تقع ضمن منطقة سيطرته العسكرية مباشرة.

وكان مـن تداعيات جمعة الكرامة اسـتقالة عدد كبير من المنتمين للنظام؛ سـواء كانوا في حزب المؤتمر الشعبي الحاكم، أو المحسوبين عليه من المستقلين ممن يشغلون مناصب عُليَا في الدولة، أو يمثلون الحزب في مجلس النواب والشورى، وقد شكل ذلك ضربة موجعة للنظام، ونتج عنه انقسام الشعب اليمني تجاه الثوار في ساحات الحرية والتغيير إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الموالون للنظام.

القسم الثاني: الموالون للثورة.

القسم الثالث: الصامتون.

وفي المقابل كانت الإجابة الثانية على السؤال آنف الذكر أكثـر واقعية ومنطقية، فهي لا تتنكر للدور التي أحدثته ثورتا تونـس ومصر في نفوس الشـعوب العربيـة قاطبة وخاصة الشـباب في اليمن؛ لكنها تؤكد على أن الأسـباب الحقيقية وراء انتفاضة الشـعب اليمني كانت متوافرة بدرجة لا تخفى على أحد، بل إن اليمن قبل أشهر قليلة من الانتفاضة الشعبة وبالتحديـد في منتصف عام ٢٠١٠م كانـت مهددة بالتدخل الخارجـي من قِبَل الولايـات المتحدة الأمريكيـة وحلفائها، نتيجة المزاعم المروجة حينئذٍ لتعاظم دور القاعدة في اليمن، ومحاولـة تفجير الطائرة الأمريكية (بان أمريكان) بواسـطة النيجيري عمر الفاروق عبد المطلب.

وكان العام الذي سبقه عام المواجهة مع دعوات الانفصال للمناطق الجنوبية في اليمن؛ سـواء كانت هذه الدعوات عبر ما يسـمى بـ (الحَراك الجنوبي) أو دعوات المطالبة بالحكم الفدرالي المستقل جسراً للانفصال.

وأما الحرب مع الحوثيين - التي ابتدأت بالحرب الأولى عـام ٢٠٠٤م وصولاً الحرب السادسـة (٢٠٠٩ -٢٠١٠م) - فهـذه مما يصعب تجاوزها أيضاً لعظـم ما خلَّفته من الآثار نتيجة التلاعب السياسـي بهذه الحـرب، وجَعلها أحد أوراق تصفية الحسـابات بين النظام وخصومه السياسـيين، بينما يُظهِر الخطاب الإعلامي الرسـمي أنـه حريص على وحدة البلاد ومحاربة الأفكار والعقائد المنحرفة كما كان يزعم.

وإذا كانـت هذه القضايا الكبرى والإسـتراتيجية كافية كلٌّ واحدة منها لاسـتفزاز الشـعب وإثارة القلق فـي حياته، نتيجة عدم القدرة على معالجتها بشكل جذري واستمرارها في التوسع والانتشار، فما بالك إذا اجتمع معها عدد من العوامل التفصيلية.

نحاول من خلال المؤشرات التالية لفت النظر إلى بعضٍ منها:

أولاً: مؤشرات ظاهرة الفقر في اليمن:

يقدر عدد سـكان اليمن في عام ٢٠١٠م بحوالي (٢٣,٣) مليون نسـمة، كما تتميز اليمن بأدنى معدلات العمر المتوقع عند الميـلاد ٦١,١٪، وتدنِّي معدل الإلمـام بالقراءة والكتابة ٦٩٪، وأعلى معدل للوفيات الرضع ٧٥ مولود لكل ١٠٠٠ ولادة حي، وأعلى معدلات الخصوبة عند النساء ٦,٢٪.

وتعتبـر اليمن من البلدان منخفضـة الدخل؛ حيث يقدر نصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي عام ٢٠٠٩م بحوالي ١١٨٣ دولاراً سنوياً.

كما كشف المؤشـرات الخاصة بخدمة الطاقة الكهربائية عن تدنِّي حصة الفرد؛ إذ لم يتجاوز متوسط نصيب الفرد من الكهرباء سوى (٢٠٢) (ك. و/س) عام ٢٠٠٧م، ويعد ذلك من أدنى المعدلات على مستوى المنطقة العربية والعالم؛ حيث بلغ نصيب الفرد من الكهرباء في الأردن في العام نفسـه حوالي (١٩٥٦) (ك. و/س)، وفي الإمارات (١٦١٦٥) (ك. و/س). إن انخفاض نصيب الفرد من الكهرباء يدل على ضعف معدلات التنمية وانخفاض مسـتوى الرفاه الإنسـاني، ومن ثمَّ زيادة معاناة الموطنين فـي جميع المجالات المتعلقة بخدمات الطاقة تعليماً وصحـة وصناعة واقتصاداً، فضلاً عن ارتفاع تكاليف الطاقة البديلة.

ثانياً: مؤشرات السياسة والحكم الرشيد:

سجل اليمن تراجعاً في جميع مكونات مؤشرات إدارة الحكم الرشيد، باستثناء مؤشر جودة التنظيم؛ حيث أظهرت نتائج البنك الدولي حول مؤشرات الحكم الرشيد لعام ٢٠١٠م، التي تتناول بيانات عام ٢٠٠٩م، أن وضع اليمن متدهور بشكل كبير في جميع المؤشرات مقارنة مع دول الشرق الأوسط وشمال إفريقيا[١].

وقد تحسَّن أداء اليمن بشكل ضعيف بمؤشر جودة التنظيم، الذي ارتفع ترتيبه النسبي من ٢٤,٢ نقطة في تقرير عام ٢٠٠٩م إلى ٢٩,٥ نقطة في تقرير عام ٢٠١٠م، ومع ذلك لا يزال أقل بكثير مقارنة مع أداء دول الشرق الأوسط وشمال إفريقيا الذي بلغ ٤٨,٣ نقطة.

بينما تراجع المؤشر بشكل كبير جداً في مكافحة الفساد والحد منه؛ حيث خسرت ١١,٩ نقطة في تقرير عام ٢٠١٠م مقارنة مع تقرير عام ٢٠٠٩م، وهو يقل بحوالي ٣٣,٩ نقطة عن دول المنطقة، وهو ما يعني أن الفساد متفشٍّ بصورة كبيرة على الرغم من الجهود الحكومية المعلنة للحد من الفساد.

أما مؤشر الاستقرار السياسي، فقد واصل التدهور عامه الثالث على التوالي ليصل إلى أدنى معدل عند ٢,٤ نقطة لعام ٢٠١٠م مقارنة مع ٥,٧ نقطة لعام ٢٠٠٩م، كما أنه يقل عن متوسط أداء دول المنطقة بأكثر من ٣٦ نقطة.

وفي مجال سيادة القانون انخفض المؤشر من ١٨,٧ نقطة في تقرير عام ٢٠٠٩م إلى ١٣,٢ نقطة في تقرير ٢٠١٠م، ولم يكن الحال أحسن بل كان أكثر تدهوراً في مؤشرَي فاعلية الحكومة والتصويت والمساءلة.

(١) بحسب التقرير الدولي لمؤشرات الحكم الرشيد (WB) فإن المؤشرات العالمية لإدارة الحكم ستة جوانب عامة تشمل العناصر التالية:
١- التعبير عن الرأي والمساءلة.
٢- الاستقرار السياسي وغياب العنف - الإرهاب.
٣- فعاليات إدارة الحكم.
٤- سيادة القانون.
٥- نوعية الأطر التنظيمية.
٦- الحد من الفساد.

ثالثاً: مؤشرات الاختلال لصالح الجانب العسكري:

رغم أن اليمن من الدول الأشد فقراً في العالم، إلا أنها أنفقت أكثر من (٢١) مليار دولار بين عامي ١٩٩٠ - ٢٠٠٩م، وقد بلغت نسبة الإنفاق على التسلح العسكري في بعض الأعوام ما يقارب (٨٪) من إجمالي الناتج القومي، كما هو الحال في عام ١٩٩٤م، كما أن تقرير المعهد الدولي للدراسات الإستراتيجية أشار في عام ٢٠٠٧م إلى أن حجم الإنفاق العسكري لثلاث سنوات (٢٠٠٤ - ٢٠٠٦م) بلغ حوالي (٢) مليار و (٤٥٠) مليون دولار، وهذا الرقم يصل إلى نسبة (٦,٣٪) من إجمالي الدخل القومي، وهي نسبة كبيرة في دولة ترتفع فيها نسبة الفقراء الذين يحتاجون لأساسيات الحياة من الغذاء والدواء.

هذه إحصائية توضح الصرف على جانب التسليح العسكري (٢٠٠٠ - ٢٠٠٩م).

العام	قيمة السلاح (مليون دولار)
٢٠٠٠	٥٢٩
٢٠٠١	٥٧٠
٢٠٠٢	٥٤٧
٢٠٠٣	١٠٣٥
٢٠٠٤	٩٤٠
٢٠٠٥	١٠٠١
٢٠٠٦	٨٥٨
٢٠٠٧	٩٢٧
٢٠٠٨	١٠٢٢
٢٠٠٩	١١٠٠

إن المؤشرات السابقة وغيرها تدل على أن الشعب اليمني كان يعاني معاناة شديدة على مختلف الصُّعد، وأن تجارب هذا الشعب مع الحروب وويلاتها - فضلاً عمَّن يقطف الثمار في كل مرة - جعلته غير حريص على تكرار التجربة عبر أساليب العنف والمواجهة المسلحة؛ ولذلك فقد استمر في متابعة السجال النكد بين السلطة والمعارضة لأكثر من خمس سنوات والأطراف ما إن تتقدم خطوة حتى تتراجع للوراء

عشراً، لأسباب متعلقة بالاستبداد من قِبَل الحزب الحاكم، وعدم توفُّر القاعدة الشعبية الداعمة للمعارضة للضغط للانتقال إلى مواجهة سياسية أكثر حزماً.

إن العوامل السابقة والبيئة المحيطة بها كانت حاضنة لكل سلوكيات التضجر والملل والنقد القاسي لسلوكيات النظام وأعوانه، وأخذت المعارضة نصيبها من ذلك، لكنها لم تكن كافية للمغامرة بخطوة جديدة قد تجر إلى حرب جديدة لا تُحمَد عقباها وتزيد من المعاناة اليومية للناس، فكانت الانتفاضة السلمية غير المسلحة للشباب والمؤيدين لهم مفتاحاً لمرحلة جديدة أجبرت جميع الأطراف المعتبَرة من عقلاء اليمن على تأييدها، كما قدمت الشكل والقالب المقبول لرفع الصوت أمام النظام الحاكم وتعريف العالم بمعاناة هذا الشعب.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا بعد هذا كله: لماذا طالت المدة؟ ولماذا واجهت انتفاضة الشعب اليمني كلَّ هذه العراقيل والمماطلات؟

لا يمكن حصر الأسباب الرئيسة وراء ذلك، لكن يمكن القول: إن هناك أربعة أسباب رئيسية تجيب عن هذا السؤال، هي:

أولاً: عدم الانسجام بين الرؤية السياسية لأحزاب المعارضة ممثلة باللقاء المشترك والرؤية الشبابية بخصوص الحسم الثوري:

فالقوى السياسية أظهرت تأييدها لمطالب الشباب في الساحات وتوجيهها لأعضائها لمساندتهم، بل إن الراصد للتيارات الحزبية الموجودة في الساحات فسيجد أن اللقاء المشترك - وفي مقدمته (التجمع اليمني للإصلاح) - يحتل النصيب الأكبر من مكونات هذه الساحات حسب تقدير مختلف المصادر الإعلامية والسياسية المطلعة. وهذه القوى أيدت الثورة الشبابية السلمية، لكن كان لها اجتهاداتها الميدانية الواضحة في ما يخص الاحتكاك المباشر مع قوات الأمن أو الدعوات للزحف على المؤسسات والمقرات الحكومية، وهو ما أبطأ من سرعة التصعيد الثوري الشبابي لصالح المناورات السياسية، ومن ذلك المفاوضات حول المبادرة الخليجية.

ثانياً: عدم اكتمال البنية الكافية للقوى العسكرية المناصرة للثورة.

وهذا عامل آخر مهم، لقد كان تدخُّل قوات الفرقة الأولى مدرع لحماية المعتصمين والساحات في العاصمة صنعاء وبعض المحافظات الأخرى بقيادة اللواء علي محسن الأحمر - الذي يوصف بأنه حاكم الظل أو الرئيس التنفيذي لليمن - محوراً رئيسياً في تهدئة الأوضاع لصالح البعد السلمي للثورة، وما حصل من تجاوزات أثناء ذلك إنما كان بقرارات من شباب الساحات أنفسهم، وهي تعبير عن الاستعجال نحو الحسم الثوري الذي كان يدفعهم لمواجهة الموت، دون التفات لطبيعة العلاقات التي تحكم الأطراف المتنازعة في البلاد، وكانت حجة هؤلاء أن الثورات لا تلتزم بالضوابط والحدود والقيود التي لا يستفيد منها سوى الطرف القوي، ويعنون به النظام الحاكم. وفي السياق نفسه فإن إدراك قائد الفرقة الأولى مدرع حجم القوة العسكرية التي يملكها النظام، وخطورة استعجال المواجهة دون وجود التكافؤ في الميزان العسكري ساهم مساهمة فاعلة في كبح رغبات المستعجلين للحسم.

ثالثاً: محاولة جر الثورة إلى الصدام الشخصي بين النظام وبعض القوى المؤيدة لها:

ويمثل هذا العامل بدرجة واضحة المواجهات والاعتداءات التي حصلت بشكل سافر على منطقة الحصبة وصوفان في العاصمة صنعاء، والتي كانت موجَّهة للشيخ صادق الأحمر وإخوانه؛ حيث كانت هذه الاعتداءات رسائل واضحة للشعب اليمني والعالم الخارجي تحاول إظهار الأحداث الجارية كما لو أنها مجرد تصفية حسابات بين طرفين أحدهما الرئيس وعائلته، والطرف الآخر صادق الأحمر وإخوانه، محاولة لجر المواجهة إلى الساحات بعد ذلك وتفجير الأوضاع عسكرياً، وهذا ما لم يحصل بحمد الله.

رابعاً: التدخل الإقليمي والدولي:

لا تنكر جميع الأطراف المكوِّنة للساحة الشعبية في اليمن مدى التدخُّلات الإقليمية والدولية التي وجدت خلال هذه المرحلة؛ بل إن المواطن اليمني قد بلغ به الأمر إلى القناعة الكاملة بأن هذه الأطراف لا تملك من أمرها شيئاً، وأنها تسعى لتقديم معادلة صعبة تحاول من خلالها تطمين جاراتها الكبرى المملكة العربية السعودية وبقية دول الخليج، وتحاول إرضاء الدول المهيمنة وفي مقدمتها الولايات المتحدة وبريطانيا، وتحاول في أثناء ذلك تقديم شهادة حسن سيرة وسلوك عن النظام القادم بعد نظام الرئيس وعائلته.

لقد ساهمت الرغبة في إيجاد هذه المعادلة شبه المستحيلة في قبول المبادرة الخليجية مع كل التعديلات التي أجريت عليها والمماطلات التي أحاطت بمراسم التوقيع؛ سواء في

صنعاء أو الرياض أو أبو ظبي في الجولات الأولى.

لكن انتقال المشـــهد إلى الســـاحة الدولية ممثلة بمجلس الأمـــن، وتزايد الضغوط علـــى الرئيس للتوقيـــع، والتهديد بالعقـوبات الشـــخصية له ولأســـرته ولأفراد نظامه، عجل بالوصـول إلى التوقيع في الجـولة الأخيـرة بالـرياض وبرعـاية ملـك المملكـة العربية الســـعودية، مع رفـض شباب الساحات لمبدأ الحصـانة الـذي تبنتـه المبادرة، وإعـلانِهم بعـد التـوقيع البقاء في الســـاحات حتـــى اكتمـــال أهداف الثـــورة؛ فقـــد بلغـت تضحياتهـــم من الدمـــاء حـــداً لا يمكن القبول بنســـيانه أو إعطاء العفو عنه بمجـــرد توقيع أو حبر على ورق كما يقولون.

إحصائيـة توضح ضحايا المعتصمين سلمياً نتيجة عنف النظام ضد ساحات التغيير حتى نهاية سبتمبر ٢٠١١م:

المحافظة	القتلى	الإصابات بالرصاص	الإصابات بالغازات
عدن	٣٣	١٦٢	٣٣٥٨
الأمانة	٢٣٠	١٦٨٠	٦٦٠٥
تعز	٧٣	١٣٠٠	٧٥٥٥
الحديدة	٧	٣٣٥	٧٥٥٢
إب	٤	٣٥٦	٧٤
البيضاء	٥	١٦٠	١٠٠
حجة	٢	١٢٠	١٢٣
حضرموت	٢	٠	٠
ذمار	٠	١٥٠	٣٥
الجوف	٨	٥	٢٢
مارب	٤	٠	٠
المجموع	٣٦٨	٤٢٦٨	٢٥٤٢٤

	القتلى	الإصابات بالرصاص	الإصابات بالغازات
قبل ١٨ سبتمبر	٢٣٨	٣٣٠١	١٩٣٩٦
بعد ١٨ سبتمبر	٣٦٨	٤٢٦٨	٢٥٤٢٤
الفارق	١٣٠	٩٦٧	٦٠٢٨

إحصائيـة توضـح ضحايـا المواجهـات فـي صفوف أنصار الثورة من المسلحين وبعض المدنيين حتى نهاية سبتمبر ٢٠١١م:

المحافظة	القتلى	الجرحى
أبين	٨٧	٢٦
عمران	١٦٦	٤٣٥
صنعاء	١٥٥	١٣٥
الجوف	٥٦	١٦٠
مأرب	١٩	٤٥
تعز	١٠	١٢٠
المجموع	٤٩٣	٩٢١

	القتلى	الجرحى بالرصاص
قبل ١٨ سبتمبر	٥٥٤	٧٨١
بعد ١٨ سبتمبر	٤٩٣	٩٢١
الفارق	٤٨	١٤٠

ماذا بعد المبادرة الخليجية؟

إن توقيع الرئيس علي عبد الله صالح على المبادرة الخليجية لا يعني نهاية المطاف، بل بدايته كما نص على ذلك كثير من المراقبين، فإن الالتزام بالآلية التي أقرتها المبادرة الخليجية يعني اجتماع السلطة والمعارضة في حكومة وفاق وطني، والانتقال بعدها إلى ترتيب البيت من الداخل عسكرياً وسياسياً... إلخ.

فهل يثبت اليمنيون أن الأحداث المتسارعة في دول الجوار - وبخاصة في دول ما يسمى بالربيع العربي (تونس ومصر وليبيا) - ستقودهم إلى البحث عن الحكمة اليمانية والفقه اليماني لحل قضيتهم وإعادة بناء بلادهم وَفْق الأوليات المطلوبة لإعمار الدول، بدلاً من البحث عن الدعم للمزيد من الأسلحة الخفيفة والمتوسطة والثقيلة، التي عادت لتحتل مساحة شاسعة في المشهد اليمني اليوم.

إن من أبرز الأولويات التي ينبغي أن تتوجه الجهود لمعالجتها خلال المرحلة الحالية والمقبلة ما يلي:

أولاً: إعادة الأمن والاستقرار إلى نفوس الناس من خلال:

- عودة أجهزة الدولة لممارسة أعمالها المنوطة بها؛ وخاصة المدارس والجامعات والمستشفيات... إلخ.
- توفير الحماية لتنقل الناس بين جميع المناطق والمحافظات.
- إيقاف إطلاق النار والقصف العشوائي المتعمَّد على المدن والأحياء السكنية.

ثانياً: محاربة النزعات الرامية لتقسيم البلد وتمزيقه وعلى رأسها:

- دعوات فك الارتباط وانفصال المناطق الجنوبية، وسرعة التواصل مع مكونات تلك المناطق لمعالجة الأسباب (وهي معروفة وعلاجها معروف).
- رفض الانجرار للحرب الطائفية المذهبية التي تحاول بعض القوى المتنفذة جر البلاد إليها، من خلال التحريش والتحريض بين بعض الجماعات والجماعات

المخالفة لها (كما هو حاصل حالياً من قبل الحوثيين ضد السلفيين في صعدة (دماج)، وغيرها من المناطق).

- محاربة الدعوات المناطقية والتأكيد على وحدة بلاد اليمن أرضاً وشعباً، وأنها لبنة أساس لمشروع وحدة الأمة بعون الله تعالى.

ثالثاً: تقديم رؤية واضحة لنظام الدولة اليمنية القادمة، ويرتكز ذلك على ما يلي:

- اشتراك العقلاء من جميع الجهات المكونة للبلاد في صياغة الرؤية وتحديد أولوياتها.
- التوافق على المرشحين للمناصب واختيارهم من ذوي النزاهة والكفاءة وعدم التعنت في ذلك لصالح طرف دون طرف.
- الانتقال إلى الجانب العملي وعدم الإغراق في الجدل حول التفاصيل إلا بحسب الحاجة؛ فالمرحلة مرحلة إنقاذ، والشعب لا يهمه التنظير؛ وإنما التطبيق وما يشاهده واقعاً ومؤثراً على حياته اليومية.

المؤشرات والبيانات الرقمية نقلاً عن:

- تقرير المركز اليمني للدراسات الإستراتيجية ٢٠١١م.
- تقرير مركز أبعد (توازن النار قراءة للحالة اليمنية)، ١٦ أكتوبر ٢٠١١م.

سورية... بشار والجماهير

د. بشير زين العابدين(*)

تشهد بعض المدن السورية تفشيَ ظاهرة المسيرات الحاشدة التي تصحبها الأعلام الكبيرة، وتحفُّها الصور الضخمة، وتُردَّد فيها شعارات تبشر بحكم «الأسد إلى الأبد»!

وقد لجأ النظام إلى تسيير هذه المظاهرات مع وصول نبيل العربي، ولدى تعليق عضوية سورية في الجامعة العربية، ومن ثَمَّ إعلان فرض عقوبات اقتصادية على رموز الحكم، وفي غيرها من المناسبات التي تزامنت مع تكدس بشري ضخم في ساحة الأمويين بدمشق، وساحة سعد الله الجابري بحلب، وساحتي المحافظة والشيخ ظاهر باللاذقية، فضلاً عن ساحات أخرى في محافظتي الحسكة والسويداء التي غصت جميعها بالطلاب الذين أغلقت مدارسهم، والموظفين الذين جهزت لهم الحافلات للمشاركة في التعبير عن «دعم البرنامج الاصلاحي للقائد الخالد بشار الأسد، والتأكيد على الوقوف بوجه المؤامرة العالمية ضد سورية قيادة وشعباً».

وتأتي هذه الظاهرة نوعاً من التنفيس عن حالة الاحتقان التي انتابت أقطاب النظام الحاكم لدى ترسيخ عزلتهم الإقليمية والدولية وإحكام الحصار الاقتصادي عليهم، وبدا ذلك الاحتقان جليّاً في مظاهر التخبط الديبلوماسي، والعنف التي اجتاح السفارات العربية والتركية والأوروبية، فضلاً عن الهتافات الهستيرية التي بشرت «القائد الخالد» بحكم أزلي، وبشعب متماسك متضامن معه لخوض غمار الحروب والموت في سبيله!

ونظراً لما تمر به سورية من ملامح مرحلة انتقالية حاسمة، فإنه يتعين الوقوف عند ظاهرة: «مسيرات التأييد» واستشراف مآلها من خلال شواهد تاريخنا المعاصر، وكان الزعيم السياسي خالد العظم[1] قد وقف عند هذه الظاهرة في مذكراته وقفات طويلة؛ تحدث من خلالها عن مزاج الشارع السوري، واستنتج أن هذه المسيرات لم تكن في حقيقتها إلا نذير شؤم على الزعماء الذين انخدعوا بها وركنوا إلى الهتافات الصاخبة.

(*) أكاديمي سوري.

(١) خالد العظم (١٩٠٣ – ١٩٦٥): أحد أبرز السياسيين السوريين في الفترة الممتدة ما بين الثلاثينيات والستينيات من القرن العشرين، ترأس الحكومة السورية خمس مرات: أولاها عام ١٩٤٠م وآخرها عام ١٩٦٢م، وأسندت إليه حقائب وزارية متعددة في حكومات أخرى، كما رشح نفسه لرئاسة الجمهورية مرتين منافساً في إحداها شكري القوتلي وفي الأخرى ناظم القدسي، ثم لجأ إلى بيروت بعد انقلاب البعث عام ١٩٦٣م، وتوفي بها في شهر شباط ١٩٦٥م، وقد دون خالد العظم مذكراته التي نشرتها الدار المتحدة بعد وفاته في ثلاثة أجزاء.

كيف تنظم مسيرات التأييد؟

تعـــرَّض خالد العظم في مذكراته لتفســـير ظاهرة الجماهير التي كانت تخرج في ســـورية تأييداً لمختلف الزعامات، وفصَّل في عملية تنظيمها وحشـــد المشاركة فيها بقوله:

«فمصيبة العرب ليســـت من فعل أعدائهم فحسب، بل من فعل زعمائهم وقادتهم، ومن فعل خطأ العرب في الثقة العمياء التي يولونها إياهم، وكأن الهتافات الصارخة التي يســـتقبلونهم بها نداءات اســـتنجاد واستعطاف، والزعماء تؤذيهم هذه الهتافات الســـاذجة؛ لأنها تخلق في نفوســـهم كثيراً من الغرور والاعتزاز، وتوجد لديهم اعتداداً بالنفس واعتقـــاداً بعبقريتهم، وهم في الواقع خالون منها، وكلما زادت الهتافات ازداد ظن الزعماء أن الشعب إنما يهتف إظهاراً لتأييده وموافقته على الخطة التي يســـيرون عليها، ويغيب عنهم أن مظاهرات الولاء مهما كانت صارخة جارفة؛ فهـــي مُختَلَقة ومُفتَعَلة في أكثـــر الأحيان؛ فكثيراً ما حُملَت الجماهير على ناقلات وجيء بها إلى المدينة تحت ضغط أفراد الدرك، وكثيراً ما رأينا شـــوارع المدينة تشعشـــع بالزينات الكهربائية المضيئـــة وتزدهي بأقواس النصر العديـــدة، وهذا كله إنمـــا أقامه أصحاب المحـــلات التجارية تحت التهديد والقسر، فتجتمع عشرات الألوف من الخلائق أمام مقر الزعيم وتظل تناديه وتســـتعطفة حتـــى يطل عليها من شرفة القصر، فينقلب التصفيق إلى مظهر من مظاهر الهســـتيريا، ويبدأ الزعيم خطابـــه، وتمضي الجماهير على التصفيق غير ســـامعة ولا عابئـــة بما يقول لأنها قدمت للفرجة و «الهيصة» لا لتلقِّي الإرشـــاد والتوجيه، ويســـتمر الزعيم على الخطابة ترديداً وإطالة، وإيراداً لجملٍ جوفاء خالية من اللب والجوهر، مرصوفة التعابير لا ندرك منها سوى: «الوطن»، «الاستعمار»، «العملاء»، «فلسطين الشهيدة»، «الزحف المقدس»، «الثورة»، وغير ذلك من الكلمات المقصود بها إثارة الحماس واستمطار التصفيق والهتاف.

صحيـــح أن لهذه الخطب مثل هـــذا المفعول، ولكن ليس لها في الواقع أثر في اســـترداد فلسطين، فلو كان لها هذه النتيجة الباهرة لكنا حصلنا عليها بعد عشرات ألوف الخطب التي ألقيت منذ عام ١٩٤٧م حتى الآن.

وأكثر ما يزهـــو به الزعيم ويســـلب لبه هو إقدام الجماهير على حمله على الأكتاف، وبالأكثر جر عربته أو رفع سيارته على الأعناق، والسير بالموكب في ما الزعيم يتهادى في سيارته على أمواج الخلائق، والهتافات تشق عنان الســـماوات، والأكف تلتهب من التصفيق، ويوقن الزعيم أنه وصل إلى ذروة المجد، وأن تعلق الشـــعب به أصبح كتعلق العبد بالسيد».

«والجماهيـــر عندما تتدفق كالســـيل الذي يحمل ما يصادفه، وكالنار تلتهم كل ما تقترب ألســـنتها منه، هي قـــوة جارفة ورافعة تفعل فعـــل الآلة التي تحركها اليد: تدفع وترفع، تهوي وتســـقط، مـــن غير وعي ولا تمييز، والشعب بمجموعه ساذج ينطلي عليه الكثير من الأباطيل وتفعل فيه الدعاية فعلها، إلا أنها إذا زادت عن الحـــد المعقول وانصرفت إلى الخداع المفضوح، كان لها الأثر المعكوس: فالشعب مع طيب سريرته لا يخلو ممن يمعنون في التفكير بما يسمعون وما يقرأون وما يرون، وهو يخدع في بعض الأوقات؛ بحيث يبدو بســـكوته أو بخنوعه كأنه مصدق لما يســـمع، فـــي حين أنه يتربص وينتظـــر الفرص لإبداء رأيه الصريح، أو هو يتمتمه في السر، ثم تنقلب هذه الغمغمة إلى الانتقاد العلني، ثم إلى الانتفاض والثورة الجامحة عند ســـنوح الفرصة ووجود القادة الموجهين الذين يأخـــذون بزمام الأمر في يدهم ويسيرون بالجموع الجارفة».

نهاية الاحتفاء بالسياسيين في دمشق

«ولهذا يحسن بالذين تستقبلهم دمشق بحفاوة وروعة أن لا تأخذهم عاطفة الغرور، فيظنون أنفسهم حائزين على مرتبة خاصة في نظر الدمشقيين، وليعلم الجميع أن أهل دمشق يستقبلون، ويستقبلون بحفاوة كل من وفد إليها، عدواً كان أو صديقاً، فَلْيمتِّع القادم - أيّاً كان مقامه - نظره بمشاهد نهر بردى الخلابة، لا أقل ولا أكثر، ليسعد بحفاوة الأهلين وليهنأ بها؛ ولكن حذار من الغرور ومن الاعتقاد أنه وحده صاحب هذه الحفاوة والعناية، فدمشق تقدم لزوارها الاستقبالات كما تقدم لهم الماء القراح والطعام الشهي والهواء النقي، فهذه أمور عادية، وهي من عادات الاحتفاء بالضيف وإكرامه انتقلتْ بالتوارث من جيل إلى جيل.

ومن جهة أخرى؛ لا بد من التنويه بأن أكثر الحكام الجدد أرادوا، زيادة في إظهار ترحيب البلاد بالقادم، أن يحملوا آلاف الفلاحين وغيرهم من الأهلين على ظهور السيارات حاملين أنواع «الشراطيط» هازجين مادحين، فيقف هؤلاء القوم في الصف على أرصفة الشوارع التي يمر بها الموكب، وذلك تحت أشعة الشمس المحرقة صيفاً، ومزاريب الأمطار شتاء، وهم يرددون العراضات والهتافات التي يتعلمونها من منظمي الاحتفاء».

«وقد شاهدتُ الجماهير الغفيرة تستقبل الأمير فيصل وتحمله فوق الرؤوس، وسمعت أنها حملت عربة الجنرال غورو، ثم حملت الشهبندر من بعده، وبُحَّت أصواتها بالهتاف لفوزي الغزي، وهاشم الأتاسي، وإبراهيم هنانو، وصبحي بركات، والداماد أحمد نامي، والشيخ تاج الدين الحسني، وجميل مردم، وسعد الله الجابري، وشكري القوتلي، وحسني الزعيم، وأديب الشيشكلي، وأكرم الحوراني، وخالد بكداش، والرئيس عبد الناصر، ولم تبخل علي الجماهير بهتافاتها، خاصة في اللاذقية وحماة ودمشق، فهل ظهر تعلُّق هذه الجماهير واستمر؟

فالملك فيصل أخرجه الفرنسيون من دمشق فلم يرتفع صوت لمصلحته، واغتيل فوزي الغزي والدكتور الشهبندر، ومات الحسيني غير مأسوف عليه، وثار ضباط الجيش وقتلوا حسني الزعيم، ومات الجابري وهنانو وبركات ونُسِي ذكرهم، وهاجر جميل مردم إلى القاهرة وطمس اسمه، وهرب الشيشكلي إلى أوروبا وغضبت الناس عليه، وظل الأتاسي يعاني مرارة ارتحال معاصريه والألم الناشئ عن سجن ابنه عدنان. أما أكرم الحوراني وخالد بكداش وأنا فقد أُبعِدنا عن ساحة العمل السياسي فلم يرتفع صوت باستنكار ذلك، ولم ينته أجل واحد من قادة سورية وهو في أوج عزه، ولست أدري إذا كان ذلك من قبيل المصادفة المجردة أم من سوء الطالع».

نصيحة أخيرة:

بعد استعراض مطول لتقلب مزاج الجماهير السورية في تعاملها مع الزعماء؛ كتب خالد العظم في أيامه الأخيرة بمنفاه في بيروت قائلاً: «بُلهاءُ هم الذين تخدعهم مظاهر الجماهير، ومغفلون هم إذا اعتمدوا على استمرار ولائها، فهي كالريح تعصف مرة من الشرق ومرة من الغرب».

جوال

الكبير

للإشتراك
ارسل رسالة فارغة

STC الاتصالات السعودية ٨٨٠٠٤

موبايلي mobily ٦٣٦٣٩٣

zain ٧٠٤٠٤٧

رسائلنا تحكي أهدافنا

(بابا عمرو)
قلب الثورة السورية النابض

محمد الملحم(*)
m.melhem79@gmail.com

هناك على مسافة بضعة كيلو مترات إلى الجنوب الغربي من مدينة حمص العدية وقريباً من ضفاف نهر العاصي الشهير بين البساتين والسهول الخضراء يقع حي بابا عمرو، الذي تبلغ مساحته والأحياء المجاورة له قريباً من ١٢ كم مربع ويبلغ عدد سكانه مع الأحياء المجاورة له أيضاً قرابة الـ ١٠٠,٠٠٠ نسمة، وإبان هذه الثورة المباركة أصبح اسم بابا عمرو لا يقتصر على حي بابا عمرو فقط؛ بل بات يشمل إضافة إليه كلاً من حي جورة العرايس والسلطانية وجوبر والتوزيع الإجباري، كلها تحت مسمى (بابا عمرو)، وذلك نوع من التقسيم الإداري الجديد للأحياء فضَّله الثوار لتسهيل إدارة شؤون الثورة وتغطيتها إعلامياً وإغاثياً وغير ذلك، وحديثنا في هذا المقال سيكون عن بابا عمرو حسب هذا التقسيم الجديد.

يحد حي بابا عمرو من الشمال حي الإنشاءات، ومن الشرق المدينة الجامعية ومنطقة السكن الشبابي وبلدة كفرعايا، وفي الجنوب منطقة تل الشور، ومن الغرب تمتد بساتين وحقول الحي حتى تنتهي إلى نهر العاصي. هذا ومع اتساع العمران وتضخُّم المدينة أصبح حي بابا عمرو أحد أحيائها الكبرى الملاصقة لها.

يشكل التنوع العرقي في بابا عمر لوحةَ فسيفساء جميلة؛ حيث يعيش في أكناف هذا الحي المبارك – بإذن الله – العرب والتركمان والكرد، وبينهم جميعاً مصاهرات وقرابات وعلاقات وشيجة، لم يفرق بينهم لسان ولا عادة ولا قومية؛ صهرهم الإسلام في بوتقة واحدة، ولما انطلقت ثورتنا المباركة وقف الجميع يداً بيد في وجه نظام القمع الأسدي.

أما أهل بابا عمرو فيتصفون بما يتصف به أهل حمص عموماً من الطيب والسماحة وروح الدعابة والكرم والشجاعة والإقدام، ولم يُعهَد عند أهل بابا عمرو أي توجهات سياسية سابقة بل الناس هناك يعيشون على سجيتهم وفطرتهم ويكثر ميلهم – بحمد الله – إلى العلم والتدين عموماً.

من معالم بابا عمرو:

على الرغم من قِدَم حي بابا عمرو إلا أن المعالم الأثرية فيه قليلة، منها: مسجد بابا عمرو القديم وفيه مقام ينسب إلى الصحابي الجليل عمرو بن معد يكرب الزبيدي رضي الله عنه، وفي الحي طاحونة قديمة كان الناس يقصدونها لطحن القمح، ومن أهم معالم بابا عمرو كذلك (تل بابا عمرو) وهو مرتفع من الأرض يتخذه الناس نقطة علاَّم، والبساتين والمزارع الخضراء الخلابة.

(*) ناشط إسلامي.

إرهاصات الثورة وانطلاقتها في بابا عمرو:

أولاً: الإرهاصات:

لقد شكل انتصار الثورة التونسية في ١٤ يناير ٢٠١١م نقطة تحوُّل في حياة المواطن العربي عموماً، وأخرجته من حالة الإحباط التي كانت تسيطر على تفكيره؛ وأنه ليس بالإمكان أبدع مما كان، وأن حال الظلم والجور لا يمكن الحدُّ منه فضلاً عن تحطيمه والتخلص منه، وكذلك الثورة المصرية كانت رافعة لثقة المواطن العربي بقدرة على التغيير وإزالة تلك الأنظمة من جذورها. وكان الناس في بابا عمرو - كما في سائر سورية - يراقبون ما كان يجري في تونس أولاً وفي مصر ثانياً بدقة وعناية فائقين، ويرصدون كل التفاصيل وخاصة شريحة الشباب منهم، فانبعث الأمل في نفوسهم وازادت ثقتهم بربهم وأنه ناصرهم، لقد كان الناس في بابا عمرو تتوق نفوسهم إلى الحرية والتخلص من حكم الطائفيين، ولكن في الوقت نفسه يمنعهم من الإقدام ما يختزنونه في ذاكرتهم - وخاصة بعض كبار السن - من صور القمع والقهر والتعذيب المعهودة عن نظام الإهارب الطائفي. وبين طموح الشاب وحماستهم وتوقُّدهم من جهة، ووَجَل الشيوخ وكبار السن من جهة أخرى كانت تتردد النفوس.

لقد كانت كل المؤشرات تدل على أن شيئاً ما ربما يحدث في أي لحظة؛ وخاصة أن الشرارة كانت قد انقدحت في مركز المدينة في مسجد خالد بن الوليد - رضي الله عنه - والنفوس ثارة وحانقة. وكان يلاحَظ بشكل كبير واضح ارتباك النظام ومحاولاته التودد إلى الناس من خلال اتخاذه بعض الإجراءات منها: تعميم توجيهات على عناصر الفروع الأمنية والشرطة وغيرها ألا يستفزوا الناس بحال من الأحوال ولو ارتكبوا أكبر المخالفات ما دون التعرض لعائلة الرئيس، فصار أولئك الوحوش بين عشية وضحاها حِمْلاناً وديعة. كما ازدادت المظاهر الأمنية والعناصر المسلحة بعتادها الكامل في الشوارع وعلى مفارق الطرق، ويظهر ارتباك الدولة أيضاً في محاولتها كسب وُدِّ الناس من خلال خفض سعر المازوت وغيره وإقرار زيادات بخسة في رواتب الموظفين... إلخ.

وأيضاً كانت جدران المساجد والمدارس والأبنية الحكومية عامة تشهد معارك ملتهبة بين الشباب المتعطش للحرية وبين رجال الأمن؛ حيث تحولت الجدران إلى ساحات للتعبير عن السخط الشعبي، فالشباب يملؤونها شعارات من مثل: (إجاك الدور يا دكتور - لا إله إلا الله والأسد عدو الله - يسقط بشار الأسد...)، ثم يأتي عناصر الأمن والشرطة لمحوها في النهار. وانتشرت أيضاً ظاهرة (الرجل البخاخ)، ولاحقت أجهزة النظام الأمنية محلات بيع الدهان والأصبغة وأحصت عدد عبوات (البخ).

ثانياً: الانطلاقة:

بعد الأسبوع الثالث من خروج المظاهرة الأولى من مسجد خالد بن الوليد - رضي الله عنه - في مركز المدينة في (١٨ - ٣ - ٢٠١١م) اتفق مجموعة في شباب الحي على تفجير الثورة في الحي، وكانت الخطة أن يقوم كلُّ واحد من هؤلاء الشباب بإقناع عشرة أشخاص من الذين يثق بهم من رفاقه وأصدقائه بالخروج في المظاهرة على أن يتم الاجتماع في مسجد عبد القادر الجيلاني؛ بحيث يكون عدد الهاتفين يقارب مئة ثائرٍ، وتُوكَل مهمة التصوير إلى أحدهم. طبعاً كان ذلك بالتنسيق مع شباب مجموعات أخرى في مسجد الأنوار في حي جورة العرايس ومسجد الجوري وغيرهما من مساجد الحي.

وأَدَع الحديث للشاب (ح. م) - وهو طالب جامعي من شاب الحي - ليحدثنا عن تفاصيل ما حدث في مسجد عبد القادر الجيلاني يومها، يقول:

(بدأت الأحداث من جامع الجيلاني؛ حيث تولى مهمة الصدع بالحق ثلة من الشباب من خارج الحي وبعضهم من أبناء الحي، وما إن انتهى الإمام من صلاة الجمعة (٨ - ٤ - ٢٠١١م)، حتى قام بعض هؤلاء الشباب ونادوا بأعلى صوتهم: (فاز من وحد الله... الله أكبر) كان بعضهم يضع لثاماً وبعضهم سافر الوجه، من أبرزهم الشهيد عبد الوكيل البويضاني، رحمه الله.

لقد كانت لحظات لا أنساها أبداً ما حييت، لقد رأيت أناساً يخرجون من المسجد حفاة مسرعين لا يلوون على أحد، وأخرين كانوا يرتجفون من الخوف! وعلت أصوات كبار السن بعبارت ملؤها الخوف والتثبيط: «شو بدنا بها الكلام، وبلا وجع راس»).

كانت هناك رغبة عارمة في الخروج من أتون الظلم والذل؛ ولكن ذكريات الماضي الأليمة والمخيفة كانت تحبط الناس وتحد من آمالهم وخاصة كبار السن منهم.

يتابع الأخ (ح. م) قائلاً: (لا أستطيع أن أصف ذلك الشعور في تلك اللحظة الفارقة في حياة السورين جميعاً، فلما كبَّر الشباب انطلقتُ إلى بيتي مسرعاً لألبس حذائي الرياضي وأعود إليهم لأهتف معهم، يبتعد بيتي عن المسجد قرابة ١٠٠ متر فقط، ولكنني شعرت أن المسافة امتدت، وتطاول الزمن وأني في سباق معه، أريد أن أصل الساحة لأهتف مع الجموع هناك).

يتابع شاهدنا قائلاً: (لم يكن عددنا كبيراً وقتها فلم يحضر جميع الشباب، وخرجنا إلى الشارع العام والناس يتحاشوننا وينظرون إلينا نظرات فيها الخوف، وكان منهم من يهتف معنا وهو يقف مكانه بعيداً عنا، كانت قلوبهم معنا ولكن رواسب الخوف والجبن في نفوسهم لم تزل مسيطرة. لم يكن حسم الموقف وقتها أمراً سهلاً).

ثم يتابع قائلاً: (ثم انطلقنا إلى مركز الحي؛ حيث التقى جميع من خرج هاتفاً من المساجد).

ويروي لنا الأخ (ع. م) أيضاً قصة انقداح شرارة الثورة في مسجد آخر في حي جوبر، فيقول: (بعد محاولتنا الناجحة في مسجد

الجيلاني وبعض مساجد بابا عمرو اتجهنا في الأسبوع التالي (١٥ - ٤ - ٢٠١١م) إلى مسجد أبي بكر الصديق في جوبر، وبعد انتهاء الصلاة بدأ الشباب بالتكبير ولكن المفاجأة كانت في صمت الناس وإعراضهم حتى أن أحد كبار السن قال بالحرف الواحد: (لا تردُّوا عليهم هؤلاء من بابا عمرو وكلنا نعرفهم). لقد عشنا وقتها لحظات صعبة جداً إلى أن انبرى من بيننا الشهيد البطل طارق التركماني - رحمه الله - صارخاً في جموع الناس: لماذا لا تهتفون؟ لماذا لا تجيبون؟ أتنتظرون أن تغتصب نساؤكم حتى تخرجوا؟ فكانت صرخته الصادقة - التي ما لبث أن استشهد بعدها بأيام - شرارة الثورة هناك؛ إذ صدحت الحناجر بعدها بالتكبير والهتاف للحرية، وحصل مثل ذلك في مسجد قباء في حي الإنشاءات المجاور لبابا عمرو.

كانت تلك بعض صور الولادة العسيرة للثورة، ثم بدأ الشباب بتنظيم جهودهم وتقاسم الأدوار؛ فهناك من يجمع المال، وهناك من يجهز اللافتات، وهناك من يؤمِّن الغطاء الإعلامي والتواصل مع القنوات، ومنهم من يصور، وآخر يرفع المقاطع على شبكة الإنترنت... وهكذا.

مادة الثورة وأهدافها وآلياتها:

لقد شكل الشباب بكل شرائحهم وفئاتهم وانتماءاتهم الفكرية مادة الثورة في بابا عمرو وأداتها الفاعلة بامتياز كبير، بينما كان موقف كبار السن في بداية الأمر الاعتراض على أية حركة احتجاجية غير مأمونة العواقب مهما كانت، بل ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك؛ حيث قاموا بالتعنيف على الثوار وطردهم من المساجد كما حصل في مسجد قباء - مثلاً - ومسجد أبي بكر الصديق في جوبر وغيرهما، ولعل مردَّ ذلك في نظري إلى أن الشباب لم يعايش بطش وإجرام النظام كما عايشه الآباء والجدود؛ إذ ما زالت قصص وصور مجازر حماة وحلب وحمص وجسر الشغور وتدمر وغيرها من المدن السورية ماثلة في الأذهان لم تبارحها إلى حدَّ أنها قتلت كلَّ أملٍ في التخفيف من هذا الظلم فضلاً عن إزالته والانقلاب عليه وإسقاطه، كان الأمر ضرباً من المستحيل بالنسبة إليهم. أما الشباب فعلى الرغم من أنهم عاشوا سنوات طويلة يعانون من ممارسات الذل والقهر إلا أن ذلك لم يحدَّ من أشواقهم للحرية أو يزلزل من إيمانهم بإمكانية التغيير؛ خاصة بعدما رأوه من نجاح الثورات الشبابية في تونس ومصر وغيرهما.

أما بالنسبة لأهداف الثورة: فقد شهدت حالة من التفاوت الظاهري؛ ففي البدايات كانت الأهداف محدودة؛ فأقصى ما هتف به الناس هو إسقاط المحافظ والمطالبة بإطلاق معتقلي الرأي، ورفع المستوى المعيشي للناس، وكذلك الحد في صلاحيات الأجهزة الأمنية التي أرهقت البلاد والعباد، ثم ما لبثت مع ارتفاع وتيرة بطش النظام وقمعه للمظاهرات، وسفكه للدماء أن ارتفع سقف المطالب الجماهيرية إلى إسقاط النظام ثم محاكمته ثم إعدامه. قد يؤوِّل بعض الناس ذلك بأنه ردة فعل على عدم استجابة النظام لمطالب الشارع القريبة! قد يكون ذلك التأويل صحيحاً؛ ولكن في الحقيقة لم يكن خفض سقف المطالب بداية إلا حركة ذكية من الثوار - وهذا يسحب على ثوار بابا عمرو وحمص وسائر سورية - حتى لا يكون منهم استفزاز لرعونة النظام القمعي بداية كما هو متوارث عنه. لذلك كانت الأهداف تتصاعد مع ارتفاع وتيرة الإجرام إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه من حالة من الانفصام ما بين الشارع والغاصبين للحكم.

وأما عن آليات الثورة: فقد صدق على ثورة أهلنا في سورية عموماً وفي حمص وبابا عمرو خصوصاً المثل القائل: (الحاجة أم الاختراع)؛ إذ انطلقت الثورة وما في جعبة شباب الثورة إلا إيمانهم بقضيتهم، لم يكن ثمة شيء لديهم، حتى الهتافات واللافتات كانت من البساطة بمكان، ثم ما لبثت أن تفجرت المواهب وتفتقت العقول عن أفكار وأساليب قاومت - على قلة إمكانياتها - قوة النظام الأسدي الإعلامية والعسكرية وقهرتها.

لقد اعتمد شباب بابا عمرو - بعد الله - على جهودهم الشخصية في تفجير الثورة والحث عليها؛ فكان الحديث مع الأصدقاء والأقارب الموثوق بهم بداية، ثم كتابة الشعارات على الجدران بكل العبارات والمعاني والألوان.

وكان التصوير بداية بالجوالات البسيطة الذي كان يرهق أعين الناظرين، وكذلك اللافتات كانت تُصنَع من أغصان الشجر والأقمشة المتوفرة بكل الأحجام والألون والأشكال، فيها الشعار والهتاف والمطلب السياسي والعبارة الساخرة والصورة المعبرة.

لقد حرص الثوار في بابا عمرو منذ اللحظة الأولى على تحطيم هيبة الطاغية بشار الأسد في النفوس فقاموا بتحطيم صورة والده الكبيرة التي كانت معلقة على جدار المؤسسة الاستهلاكية في حركة جميلة يحاكون فيها صورة ذلك الشاب الذي صعد على بوابة نادي الضباط في حمص وراح يركل صورة حافظ الأسد برجله، وكذلك قاموا بحرق صور بشار الأسد وأبيه بكثافة، وتفننوا بامتهان صور الطاغية وكل ما يرمز إليه، ورفعوا علم الاستقلال بدلاً من علم النظام للدلالة على قطع كل علاقة بالنظام الأسدي وتصريم كل ما يمتُّ له بسبب.

ثم تطور الأداء بشكل كبير بعدما ازدادت الخبرات؛ فتشكلت فرق العمل المتخصصة، فهناك الفريق الإعلامي الذي يتولى مسؤولية كتابة اللافتات التي تحكي الموقف الثوري والرأي السياسي، وتوثيق الأحداث بالكاميرا ذات الدقة العالية مع ذكر مكان وتاريخ الحدث بالصوت أو الكتابة، وتوثيق أسماء الشهداء وقصصهم، وتوثيق أي جريمة يقترفها النظام بكل تفاصيلها، وخاصة ما يقوم به من تعذيب المعتقلين الذين أخذوهم أحياء ثم

تسلَّم جثثهم إلى أهلهم وقد شوهت ومُثِّل بها.

وأيضاً التواصل مع القنوات الفضائيـــة (العربية والعالمية) مـــن خلال البث المباشـــر ذي الدقة العالية الـــذي أذهل الناس جميعاً، وكذلك إدخال الصحافة العالمية إلى قلب الحي وقيامهم بـ (روبرتاجات) وتسجيل التقارير من أرض الميدان، كقناة سكاي نيوز والبي بي سي وغيرهما، وإنشاء صفحات على الفيس بوك لنقل أخبار الحي للعالم جميعـــاً[1]. كل ذلك وغيره كان يقوم به فئام من ثوار الحي آلو على أنفســـهم أن يوصلوا صوت شعبهم إلى الدنيا جميعاً ولو كلفهم ذلك حياتهم.

وهناك الفريق الإغاثي الذي تولى مهمة توفير المســـاعدات وتوزيعها على المتضررين من قمع النظام وبطشـــه. لقد بدا أداء هذا الفريق احترافياً؛ فبعض الثوار يقومون بتوفير قوائم بأسماء الشـــهداء وأســـرهم، وآخرون يحصون عـــدد الجرحى وغيرهم يتابعون عوائل السجناء، ثم تُرفَع القوائم إلى فريق التوزيع ليقوم بتوزيع ما تيسر من مســـاعدات على أكبر شريحة من المنكوبين. وإلى جانب ذلـــك كله هناك فريق لتوفير المـــواد الطبية وتأمين المستشفيات الميدانية وغير ذلك.

الاجتياحات العسكرية التي تعرضت لها بابا عمرو:

لقد تعرض حي بابا عمْرو إلى أكثر من سبعة اجتياحات عسكرية متواصـــة، مدعومة بالدبابـــات والطائرات المروحية فـــي كل مرة، كان أولها فـــي جمعة التحـــدي ٢٠١١/٥/٦م ولـمَّا تنته إلـــى لحظة كتابة هذه الســـطور. وفي كل مرة كان الجيش يستبيح أموال الناس وبيوتهم ويزهق أرواحهم؛ فلا تســـأل عن النهب المنظم للبيوت واســـتهداف أي كائن حي يتحرك من خلال نشـــر عدد كبير مـــن القناصة على المباني المرتفعة. تقول الأخت (س . م): (إن الساعات التي لم يسمع فيها صوت للرصاص منذ بداية اجتياحات الحي لا تتجاوز أصابع اليدين وإن المارَّ

(١) لعل أبرز هذه الصفحات هي صفحة بابا عمرو في عين الثورة:
https://www.facebook.com/baba.amr.eye

في شوارع الحي لَيَأخُذه العجب مما يراه من الدمار والتخريب؛ فهناك بيوت ســـويت بالأرض وبيوت نهبت بالكامـــل، وأخرى احتلتها عصابات الأسد بعدما طردت أهلها منها. ونحن كذلك خرجنا من بيتنا في وسط الحي إلى بيت أقـــارب لنا في الريف البعيد، وفي الاجتياح الأخير بعد عيد الأضحى المبارك دخلت عصابات الطائفيين المنزل ولم يتركوا أثاثاً ولا أجهـــزة كهربائية إلا دمروها، حتى ملابـــس الأطفال مزقوها؛ إنهم يعتمدون سياسة منظمة في التخريب، حسبنا الله ونعم الوكيل).

وجرى الاعتـــداء على بيوت الله بكل جـــرأة وصلف، ووضعوا في بعضها - كجامع الحمزة مثلاً - صوراً عاهرة وأتوا بقناة الدنيا (الموالية للنظام) لتصوِّر ذلك وتنسبَه زوراً وبهتاناً للمسلحين المزعومين في الحي.

يبلغ عدد الحواجز الأمنية والعســـكرية فـــي بابا عمرو ٣٠ حاجـــزاً [٢] تتوزع علـــى أطراف الحي وفي وســـطه على مفارق الطرق الرئيسية، ولا عمل لهذه الحواجز إلا إرهاب الناس وإرباك حركتهم وإطلاق النـــار العشـــوائي على المنـــازل، ومن أســـوأ هذه الحـــواجز - وكلها ســـيئة - حاجز المؤسســـة الاستهلاكية وسط الحي والحاجز الموجود على مفرق قرية كفرعايا.

ونتيجـــة لهذا الإرهاب المنظم من الدولة تجاه أبناء هذا الحي فقد حدثت حالات نزوح كبيرة تشرَّدت خلالها عوائل كثيرة وتشتتوا في الأرياف المجاورة خشية على أعرضهم وأرواحهم.

قد يتســـاءل إنســـان: كيف كان أبناء الحي يواجهون كل هذا الجبروت؟ لقد كان سلاح الناس - وبدون أي مبالغة - هو التكبير والتهليل والدعاء، يقســـم أحد أبناء الحي على أن التكبير كان يقع على رؤوس عصابات الشبيحة وضباط الجيش الأسدي وجنودهم كالصواعـــق إلى درجة أنهم كانوا يرتجفون عند ســـماعهم صوت الحـــق؛ وخاصة عندما يوافق التكبيرَ آيـــاتٌ من آيات الله كالرعد والبـــرق، عندها كانت تنخلع قلوبهم. إن إيمـــان الناس بربهم أولاً وبعدالة قضيتهم ثانياً جعلهم ينتصرون في كل منازلة لهم مع هذا النظام الإرهابي رغم شدة الألم والجراح.

وكذلـــك كان لجند كتيبـــة الفاروق والعناصر المنشـــقين المنتمين للجيش الحر بلاؤهم الكبير في التصدي لعصابات الأمن والشـــبيحة والجيش الموالي للنظام وتكبيدهم خســـائر كبيرة في العتاد والرجال، ولو أن المقام مناسب لســـردت عشرات القصص التي تحكي بطولات أبناء الحي الخارقة في مواجهة هذه العصابات.

حجم المعاناة والخراب في الحي:

إن حجم معاناة أبناء الحي كبيرة جداً ومؤلمة؛ فهناك أكثر من ٣٠٠ بيت تعرضت للاستهداف المباشر وكثير منها لم يعد صالحاً للسكن. ولا يوجد في الحي لا ماء ولا كهرباء ولا وقود للتدفئة علماً أن شتاء سورية

(٢) هذا الرابط يوضح أماكن توزع الحواجز في بابا عمرو وكل حمص:
http://www.mediafire.com/?1ty7a0a0qlnut1l

معروف بقسوته وشدة البرودة والصقيع فيه، لقد عبَّر لي أحد أبناء الحي عن حالهم بقوله: (إن البهائم لا تستطيع العيش في بابا عمرو) من قسوة ما يعانون. والناس في الحي كلهم مشروع شهادة؛ فالقناصات منتشرة على كل الأبنية المرتفعة في الحي والأحياء المجاورة المطلة عليه؛ ترصد كل حركة للناس لتغتالهم.

الشهداء والجرحى:

لم تبخل بابا عمرو بالشهداء في سبيل الخلاص من نظام القمع الأسدي من بداية الثورة، بل جادت بخيرة شبابها، وكان أول الشهداء نايف العمر – رحمه الله – الذي استشهد في أول مظاهرة كبيرة يشهدها الحي في جمعة الصمود ٨ – ٤ – ٢٠١١م، ثم تتالت قوفل الشهداء إلى أن بلغ عددهم حتى لحظة كتابة هذا المقال ١٤٦ شهيداً فيهم الرجال والنساء والأطفال.

وهناك عوائل جادت بعدد من أبنائها كعائلة الغنطاوي التي قدمت أول شهيد لها (عبد الله الغطاوي) في جمعة التحدي ٦ – ٥ – ٢٠١١م، وفي ١٠ رمضان أول مجازر بابا عمرو استشهد (محمود رضا الغنطاوي) وهو ابن عم عبد الله، ولحقه أخوه (إبراهيم رضا الغنطاوي) بتاريخ ٢ – ١١ – ٢٠١١م.

وكذلك عائلة البويضاني التي قدمت الشهيد (عبد الوكيل البويضاني) أول من صاح بكلمة الله أكبر في مسجد الجيلاني، وابن أخيه الشهيد (خالد البويضاني) وعمه الشهيد (أبا هشام البويضاني).

ومن الشهداء أيضاً الشهيد طارق التركماني (مفجر الثورة في حي جوبر) والشهيد محمد الشيخ (بلبل الثورة في بابا عمرو)، وكثيرون غيرهم لا يتسع المقام لذكرهم، رحمهم الله جميعاً ورفع درجاتهم.

التحولات الاجتماعية والنفسية في ظل الثورة المباركة:

إن المتأمل في هذه الثورة المباركة ليجد فيها مصداق قوله – تعالى –: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وهناك مئات من القصص التي تحكي قصة هذا التحول العجيب في حياة الناس؛ إنها معجزة ربانية حقاً؛ فالناس قبل الثورة يختلفون بشكل كبير عنهم بعد الثورة، لقد استحالوا خلقاً آخر، لقد ذابت الفوارق بين الريف والمدينة بل تلاشت تماماً، وروح الأخوة والتعاون بين الجميع باتت واضحة للمتابع، وهذه بعض الصور والمواقف التي تحكي بعض قصة هذا التحول:

يحدثنا الأخ (م . ع) من أبناء الحي قائلاً: مع اشتداد وتيرة القصف على الحي لم يعد بإمكاننا البقاء في بيتنا، فاضطررت لإخراج أهلي إلى مزرعة لأحد الأقارب، وفي طريقنا إلى هناك فاجأني كثير من الناس بأنهم قد أعدوا أنفسهم لاستقبال النازحين من الحي أياً كانوا دونما تمييز بين قريب وغريب، وأنهم جهزوا المأوى والطعام والشراب تطوعاً لله تعالى، لقد فاضت دموعي لما رأيت الناس يبتدروننا كلٌّ منهم يريد أن يدخلنا بيته في إصرار عجيب، لقد استحييت أن أخبرهم أننا نقصد بيتاً بعينه.

ويحدثني السيد (م . م) من أبناء الحي المغتربين فيقول: لقد اتصلت بخالتي لأطيِّب خاطرها وأواسيها بعدما عاثوا في بيتهم إفساداً وتخريباً، فقلت لها: لا تحزنوا يا خالة، فالأمر إلى خير ويعوضكم الله خيراً إن شاء الله، فإذا بها تنهرني وتقول: من قال: إننا جزعنا؟ **والله! إنه لشرف لنا أنه أصابنا ما أصاب الناس جميعاً، لم نعد نشعر بالخجل من جيراننا وأقاربنا المنكوبين بعد اليوم، والحمد لله على كل حال.**

ويروي لنا الشاب (ط . ن) قصة حصلت معه فيقول: كنت أسير في إحدى المظاهرات وكان إلى جانبي رجل مسن فقلت له: يا عم! قد نتعرض لإطلاق النار وأنت رجل مسن لا تستطيع الركض. فنظر إليَّ بغضب وقال: من قال: إنني أريد الهرب؟ **الحمد لله أن مد في عمري لأشهد هذه الثورة وأسأله - سبحانه - أن يرزقني الشهادة في سبيله.**

وأما قصص الأمهات اللاتي يدفعن بأبنائهن للنزول للتظاهر مع توصيتهم بتقوى الله وإخلاص النية له – سبحانه – فكثيرة جداً لا يكاد يخلو منها بيت، ولله الحمد.

هذه القصص غيض من فيض، ولعل الله – سبحانه – ييسر في قادمات الأيام جمعها في سفر لتعطي صورة متكاملة عن حقيقة هذا التحول الرباني المعجز.

إن الثورة على الرغم من آلامها وعذاباتها إلا أن الناس في بابا عمرو وغيرها من أحياء ومدن سورية يرونها نعمة من الله عليهم، قربتهم من ربهم وتكفَّر كثيراً من الذنوب، وأحيت فيهم الإنسان الحر الكريم، وقتلت فيهم الخوف والجبن والاستخزاء؛ فلله الحمد من قبل ومن بعد.

مرصد الأخبار

جـــلال ســعـد الـــشـــايـــب(*)
galal_elshayp@hotmail.com

الأمريكان بين وَهْم «دعم الديمقراطية» و «المصلحة الخاصة»

نشرت صحيفة «نيويورك تايمز» أن مجموعة من الأمريكيين يقودهم خبير بالإرهاب وضابط سابق في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية عرضوا على القذافي مساعدته في أزمته مارسَ الماضي؛ وذلك بأجر استشاري ضخم وصل إلى ١٠ ملايين دولار غير قابلة للاسترداد.

ودخلت المجموعة بقيادة الخبير نيل ليفينغستون في مفاوضات مع ممثلي العقيد القذافي، وكُتب في نسخة العقد الأوَّلية بين المجموعة والقذافي - بحســب الصحيفة - أن: «الرسوم والمدفوعات في هذا العقد هي الحد الأدنى غير المسترَد، وأنها تشكل حافزاً للمستشارين لتولي القضية».

وقال ليفينغســتون المتخصص في الإرهاب: «إنه وضع الاتفاق بعد أن ســمع أن أحد أبناء القذافي (ســيف الإسلام) كان مهتماً بوضع إستراتيجية لهروب العائلة»، مضيفاً: «لكنني وشركائي لا نعمل بالمجان». [جريدة المدينة، نيويورك تايمز ٢٠١١/١١/١٨م]

البرادعي (للشبان الليبراليين): لا تيأسوا؛ فلا زالت كرة الانتخابات في الملعب

صرح الدكتــور محمد البرادعي (المدير العام الســابق للوكالة الدوليــة للطاقة الذرية) بأن الشــبان الليبراليين الذين أشــعلوا الانتفاضة في مصــر تم إقصاؤهم في الانتخابات، وعبَّر عن قلقه من صعود «عناصر دينية تدافع عن أفكار متشددة، مثل: منع النساء من قيادة السيارات» وأدب (نجيب محفوظ) موازٍ للدعارة.

ونقلت وكالة أسوشــيتد برس عن البرادعي عقب الإعلان عن نتائج المرحلة الأولى من الانتخابات: أن حصول التيارين (الإخواني والســلفي) معاً على موقعَي الصدارة في الانتخابات فاجأ الجميع بمن فيهم ممثلو التيارين الفائزين أنفسهم.

وقال: «أنــا قلق بالفعل مــن بعض الشــخصيات القادمة من صفوف الســلفيين؛ وخصوصاً عندما تســمع منهم أن أدب نجيب محفوظ موازٍ للدعارة، وعندما تسمع جدالات حول ما إذا كان يحق للمرأة قيادة السيارة وما إذا كانت الديمقراطية مناقضة للشريعة».

وتوقَّــع البرادعي أن البرلمان القــادم لن يمثل المجتمع المصري، وسيكون فيه عدد قليل من النساء والشباب والأقباط، وهي الأقلية التي تمثل ١٠٪ من أصل ٨٥ مليون مصري.

ونصــح البرادعي - بحســب الصحيفة - الشــبان الليبراليين بعدم الاستســلام وبدء التحضير للانتخابات التالية والتخلي عن خلافاتهم العقائدية وأن يعملوا معاً. [جريدة أخبار اليوم ٢٠١١/١٢/٥م]

أمريكا: سنُبقي جنوداً في الكويت تحسُّباً من إيران

أعلن ضباط أميركيون أن واشــنطن ســتُبقي أربعة آلاف جندي من الوحدات القتالية لجيشــها في الكويت كقوة احتياطية حتى بعد انسحابها من العراق، وتزامن هذا مع كشــف مسؤولين أميركيين في وزارة الدفــاع أن الولايــات المتحدة تتفاوض مع الكويت لنشــر مزيد من القــوات القتالية على أراضيهــا لمواجهة «أي تهديد إيرانــي محتمَل، أو تدهور للوضع في العراق».

ووَفْقاً لما كشــف عنه قادة اللواء القتالي الأول التابع لفرقة الخيالة الأولى، فإن الوحدة ســتكمل الفترة الباقية من مدة انتشارها - وهي ١٢ شهراً، بدأت في منتصف يوليو الماضي - في الكويت.

واستطرد بقوله: إن هذه القوة ستكون احتياطية في المنطقة لتأمين «أقصى درجات المرونة لمواجهة أي طارئ، ومن أجل إظهار التزامنا باستقرار وأمن المنطقة، وكذلك العلاقة القوية التي تربطنا بشركائنا الإقليميين».

[شبكة الجزيرة الإخبارية ٢٠١١/١١/١١م]

(*) نرحب بمقترحاتكم البنَّاءة في باب مرصد الأحداث على بريد الكاتب.

شباب التحرير يغلقون الهرم الأكبر أمام حفل ماسوني

تلقَّت الإدارة العامة لشرطة السياحة والآثار المصرية من المجلس الأعلى للآثار قراراً بإلغاء احتفالية كبرى لليهود، المشار إليها بمنطقة الأهرامات الأثرية، بالإضافة إلى غلق منطقة الهرم الأكبر كاملة أمام السياحة يوم ٢٠١١/١١/١١م.

وأعلنت عشرة ائتلافات ثورية تضامنها مع عدد من الناشطين والشخصيات العامة والحركات الثورية، في دعوتهم لأداء صلاة الجمعة تحت سفح الهرم وإقامة مظاهرة حاشدة احتجاجاً على موافقة المسؤولين على إقامة احتفال للماسونيين عند سفح الأهرامات. يأتي ذلك رغم إعلان محافظة الجيزة إلغاء الحفل الذي ثار حوله جدل كبير.

وأكـدت الائتلافـات المتضامنة في بيان لها أن اليهـود لديهم اعتقاد أن هـذا اليوم لن يتكرر في العالـم؛ فهو يحمل تاريخ ٢٠١١/١١/١١م، وكان فيهم من يعتقد أن العالم سينتهي في هذا اليوم، الذي يعد يوماً فاصلا في حياة الماسونية واليهود، موضحين أن الحاضرين في الحفل سيلتفون حول الهرم في شكل نجمة داود، وسيضعون ماسة على شكل النجمة أيضاً على قمة الهرم.

[جريدة اليوم السابع ٢٠١١/١١/١٠م]

بايدن: نظام الأسد يشعل الفتنة الطائفية بالمنطقة

صرح جوزيف بايدن (نائب الرئيس الأمريكي باراك أوباما) بأن نظام الرئيس السوري بشار الأسد لا يشكل مصدر عدم استقرار لسورية فقط «بل يهدد بتأجيج النزاعات الطائفية في المنطقة».

وأضاف بايدن خلال زيارته لتركيا: «أنا مقتنع – مثل الأتراك – أن الأسـد ونظامه هُمَا حالياً مصدر عدم الاستقرار في سورية، ويشكلان خطراً كبيراً لتأجيج النزاعات الطائفية؛ ليس في سورية فقط إنما خارجها أيضاً». وقال بايدن: «إننا نتطلع إلى توسيع العقوبات الدولية كوسيلة لإحداث تغيير في سورية».

[القناة العبرية الثانية الإسرائيلية ٢٠١١/١٠/٥م]

٤٧٠ ألف مصاب بالإيدز في الشرق الأوسط (الإسلامي)!

أظهر التقرير الإقليمي الأول الذي أعلنه بالقاهرة برنامج الأمم المتحدة المعنيُّ بالإيدز بالتعاون مع منظمة الصحة العالمية، ارتفاع عدد المصابين بمرض نقص المناعة المكتسـبة الإيدز في الشرق الأوسـط وشمال إفريقيا من ٣٢٠ ألف شخص عام ٢٠٠١م إلى ٤٧٠ ألف شخص عام ٢٠١٠م. ويرتفع العدد إلى ٥٨٠ ألفاً إذا ما أُخذَ في الحسبان أعداد المصابين في باكستان وأفغانستان.

وأشـار التقرير إلى ارتفاع عدد الوفيات الناجمة عن الإصابة بالإيدز في الشـرق الأوسط وشمال إفريقيا من ٢٢ ألف شـخص عـام ٢٠٠١م، إلى ٣٥ ألفاً في عام ٢٠١٠م، ويرتفع العدد إلى ٣٩ ألف شـخص إذا مـا أضفنا أعداد الوفيات في باكستان وأفغانستان.

وأوضح تقرير الأمم المتحدة أن وباء الإيدز يتركز بالدرجة الأولى بين متعاطِي المخدرات عن طريق الحقن والشواذ جنسياً، والمساجين، والعمال المهاجرين من الذكور، ومن يقومون برسم الوشم أو من يتبادلون شفرات الحلاقة.

ولفت المسـؤول الدولي النظر إلى أن هناك ٦٠ مليون شـخص في العالم تعرضوا للإصابـة بالإيدز خلال الـ ٣٠ عاماً الماضيـة وتوفـي منهم ٢٥ مليون مصاب، بينما لا يزال يوجد حالياً ٣٤ مليون مصـاب بالإيدز في العالم، و٥٠٪ منهم فقط يتلقون العلاج بالفعل.

[جريدة الأهرام المصرية ٢٠١١/١٢/٤م]

مصطلح (الإسلام السياسي)

يتبين معنى مصطلح الإسلام السياسي من تعريفاته: فلقد قال فيه الأستاذ عطية الويشي في كتابه (حوار الحضارات): إن أول من استخدم هذا المُصطلح هو (هتلر) حين التقى بالشيخ أمين الحسيني (مفتي فلسطين آنذاك)؛ إذ قالَ له: إنني لا أخشى من اليهود ولا من الشيوعية؛ بل أخشى من الإسلام السياسي.

وقال الأستاذ علي البيانوني (المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية): إن شيوع هذا المصطلح ناشئ - أصلاً - عن الجهل بالإسلام الذي جاء بالعقيدة والشريعة، خلافاً للمسيحية التي جاءت بالعقيدة فقط، ونادت بإعطاء ما لله لله وما لقيصر لقيصر.

وبيَّن الدكتور جعفر شيخ إدريس أن عبارة (الإسلام السياسي) كأختها (الأصولية) صناعة غربية استوردها مستهلكو قبائح الفكر الغربي إلى بلادنا وفرحوا بها، وجعلوها حيلة يحتالون بها على إنكارهم للدين والصد عنه؛ فما المقصود بالإسلام السياسي عند الغربيين؟ كان المقصود به أولاً الجماعات الإسلامية التي انتشرت في العالم العربي وفي باكستان والهند وإندونيسيا وماليزيا وغيرها، تدعو إلى أن تكون دولتهم إسلامية تحكم بما أنزل الله تعالى.

فالغرب يزرع في الأمة من مئات السنين هذه القضية؛ وهي: أن الدين ينبغي أن يكون شأناً فردياً بين العبد وربه؛ لا مدخل له في الحياة العامة، ولا سيما (السياسة) لأن في هذا خطراً عليهم كما يعتقدون.

[الجزيرة الإخبارية ٢٠١١/٩/٢٤م]

مرصد الأرقام

أكد حزب الاستقلال البريطاني أن المساهمة المالية الإجمالية التي تقدمها المملكة المتحدة للاتحاد الأوروبي ارتفعت إلى ١٨,٤ مليار جنيه إسترليني عام ٢٠١٠م؛ أي بمعدل ٥١ مليون جنيه يومياً.

واستند الحزب إلى أرقام حصل عليها من مكتب الإحصاء الوطني تفيد أيضاً بأن عائدات بريطانيا بالمقابل من الاتحاد انخفضت إلى ٨,١ مليار جنيه إسترليني؛ وهو ما يعني أن المساهمة الفعلية لبريطانيا ارتفعت من ٦,٧ مليارات إلى ١٠,٣ مليارات، بمعدل ٢٨ مليون جنيه إسترليني يومياً.

[صحيفة ديلي تلغراف ٢٠١١/١١/٢٤م]

تعتقل إسرائيل في سجونها وزيرين و ٢٢ نائباً فلسطينياً معظمهم من حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، كانت قد اعتقلتهم في حملة شنتها ضد النواب عقب فوز الحركة بانتخابات المجلس التشريعي في يونيو عام ٢٠٠٦م.

وعمدت إسرائيل أيضاً إلى سحب هويات ثلاثة نواب مقدسيين ووزير مقدسي إثر مشاركتهم في الانتخابات التشريعية عام ٢٠٠٦م؛ حيث أبعدت أحدهم وهو النائب محمد أبو طير عن مدينة القدس، وتعتقل الآن أحمد عطون، ويعتصم النائب محمد طوطح والوزير خالد أبو عرفة في مقر اللجنة الدولية للصليب الأحمر في القدس منذ أكثر من ١٥ شهراً.

وكانت إسرائيل قد اعتقلت النائب الطيراوي في أواخر مايو من عام ٢٠٠٧م من منزله بمخيم بلاطة للاجئين الفلسطينيين شرق نابلس.

[بتصرف من موقع الجزيرة ٢٠١١/١٠/٣١م]

يدخل كلَّ عام نصف مليون شاب مصري إلى سوق العمل، ويجب أن ينمو الاقتصاد المصري بما يتجاوز ٥٪ فقط لتأمين وظائف لهم، في حين أن التوقعات للنمو بالعام الجاري لا تتجاوز ١٪.

[CNN ٢٠١١/١١/٢٦م]

بلغت قيمة التبادل التجاري بين الصين والدول العربية ١٤٢,٦ مليار دولار، توزعت بنسَب مختلفة بين الدول العربية خلال التسعة أشهر الأولى من العام الجاري، حسبما أوردته وكالة أنباء الصين «شينخوا».

ويشار إلى أن قيمة التجارة بين الصين والدول العربية ارتفعت من ٣٦,٤ مليار دولار في عام ٢٠٠٤م إلى ١٤٥,٥ مليار دولار في عام ٢٠١٠م، ويتوقع أن يصل إلى ١٩٠ مليار بنهاية العام الجاري. [جريدة البيان الإماراتية ٢٠١١/١٢/١م]

حقق الاقتصاد الياباني قفزة نموٍّ في الربع الثالث للمرة الأولى منذ زلزال تسونامي مارس الماضي، وفي الأشهر الثلاثة المنتهية حقق الناتج المحلي الإجمالي نمواً بنسبة ١,٥٪ مقارنة مع الأشهر الثلاثة السابقة.

وجاء هذا النمو بعد ثلاثة أرباع من الانكماش الاقتصادي، ويشير إلى نسبة نموٍّ اقتصاديٍّ سنوي تقدر بـ ٦٪.

بينما أكدت بيانات رسمية أن الاقتصاد البريطاني حقق نمواً هو الآخر بنسبة ٠,٥٪ في الربع الثالث من عام ٢٠١١م.

كما حقق الاقتصاد الأمريكي نمواً قدره ٢,٥ ٪ في الربع الثالث من العام الجاري وَفْقاً لتقرير صادر عن وزارة التجارة الأمريكية؛ حيث وصل معدل النمو إلى ١,٣٪.

وفي المقابل أعلن مكتب الإحصاء الوطني الصيني أن اقتصاد البلاد سجل نمواً معدله ٩,١٪ في الربع الثالث من العام الجاري، وهو ما يؤشر إلى تباطؤ عن نسبة الـ ٩,٥٪ التي سجلها في الربع الذي سبقه، وهو أقل معدل نمو يسجله الاقتصاد الصيني منذ عامين.

بينما توقف نمو الاقتصاد الفرنسي في الربع الثاني من هذا العام، وهو ما زاد الضغوط على الحكومة لخفض الإنفاق وإقناع الأسواق المالية المضطربة بأنها ستحقق المستويات المستهدَفة لخفض الدَّين.

وذكر مكتب الإحصاء الفرنسي أن الناتج المحلي بلغ صفراً في الفترة من أبريل إلى يونيو مقارنة مع الربع الأول من العام نفسه الذي بلغت فيه نسبة النمو ٠,٩٪ وهو أفضل مستوى نمو خلال نحو خمس سنوات.

[شبكة BBC ٢٠١١/١١م]

سجلت تجارة دبي المباشرة غير النفطية مع العالم الخارجي خلال النصف الأول من العام الجاري معدلات قياسية؛ حيث بلغت ٣٤٥ مليار درهم، وهي أعلى من قيمتها حتى ما قبل الأزمة المالية العالمية التي تعرَّض لها العالم قبل ٣ سنوات وألقت بظلالها على دول المنطقة. بنسبة نمو خلال النصف الأول من العام الحالي بلغت ٢٤٪، مقارنة مع قيمة المبادلات التجارية الخارجية للإمارة خلال الفترة ذاتها من عام ٢٠١٠م والبالغة ٢٧٩ مليار درهم.

[العربية الإخبارية ٢٠١١/١٠/١٧م]

اعتُبِر تراجع نسبة النمو الاقتصادي في تونس تحدياً كبيراً أمام حركة النهضة الإسلامية بعد فوزها بالانتخابات؛ فلقد سجل النمو نسبة ما دون الصفر، مع ارتفاع حجم عدد العاطلين إلى ٧٠٠ ألف حسب آخر الإحصائيات الرسمية.

وقد أشارات «الوثيقة الاقتصادية» لحركة النهضة إلى أن منوال التنمية المقترح للفترة بين عامَي ٢٠١٢ – ٢٠١٦م، يقترح التحكم في نسبة التضخم المالي، وهو ما سيزيد من تحسين القدرة الشرائية للمواطن التونسي.

وبالنسبة إلى كامل الفترة بين ٢٠١٢ – ٢٠١٦م فإن الهدف الأساسي يتمثل في «إحداث عمل لـ ٥٩٠ ألف مواطن، والتخفيض بنسبة ٨,٥٪ من البطالة سنة ٢٠١٦م».

ولتحقيق ذلك فإن منوال التنمية المقترح «سيمكِّن من انجاز نسبة نمو ٨٪ في حدود عام ٢٠١٦م؛ أي بمعدل نمو سنوي قدره ٧٪ خلال الفترة بين ٢٠١٢ – ٢٠١٦م كاملة».

إضافة إلى زيادة الدخل الفردي للمواطن التونسي والوصول به إلى ١٠ آلاف دينار عام ٢٠١٦م مقابل ٦,٣٠٠ دينار الآن.

وبحسب وثيقة البرنامج الاقتصادي، تقدر حركة النهضة حاجياتها التمويلية لإنجاز برنامجها الاجتماعي والاقتصادي بحوالي ١٦٣,٣ مليون دينار (نحو ١١٥ مليون دولار) للفترة بين عامي ٢٠١٢ – ٢٠١٦م، سيساهم فيها الادخار الوطني بنحو ٦٧٪ و ٦٪ من التمويل الخارجي المصحوب بفائدة.

[موقع الإسلام اليوم تواريخ مختلفة]

المسلمون في زيمبابوي

د. أحمد محمود السيد
mr.ah54@hotmail.com

الاسم الرسمي: جمهورية زيمبابوي.

العاصمة: هراري.

الموقع: دولة من دول الجنوب الإفريقي، يحدها شمالاً زامبيا، وشرقاً موزمبيق، وغرباً بتسوانا، وجنوباً جنوب إفريقيا.

عدد السكان: ١٣ مليون نسمة عام (٢٠٠٦م).

الجماعات الإثنية: الشونا (٨٢ ٪)، الأندبيلي: (١٤ ٪)، جماعات إفريقية أخرى: (٢ ٪) المخلطون والأسيويون (١ ٪)، البيض أقل من (١ ٪).

الأديان: أصحاب عقائد تخلط بين المسيحية وديانات تقليدية (٥٠٪)، والمسيحيون (٢٤ ٪)، معتقدات تقليدية: (٢٤ ٪)، المسلمون (٢ ٪).

اللغات: الإنجليزية (لغة رسمية)، الشونا والسندبيلي (لغات قبلية).

المسلمون والاستعمار في زيمبابوي.

تعرَّضت زيمبابوي أو (روديسيا) الجنوبية لهجمة استعمارية شرسة، عانى المسلمون بسببها ألواناً متباينة من الاضطهاد؛ فقد أدَّى وقوعها في براثن المستعمر الإنجليزي إلى عُزلة المسلمين، وإبعادهم عن مصادر العلم والمعرفة. كما حُرم المسلمون من التعليم؛ إذ أغلق المستعمر ألف مدرسة حتى أصبح ٩٧ ٪ من المسلمين أُمِّيين.. كما عانى المسلمون من ويلات التفرقة العنصرية التي مارسها المستعمر بكل شراسة. وقد امتدت لتشمل المجتمع الإفريقي كلَّه في زيمبابوي.

فضلاً عن التفرقة العنصرية، وعدم المساواة في الحقوق والواجبات بين الأفارقة والأوروبيين؛ خاصة بعد أن تمرَّد الحاكم الإنجليزي لروديسيا الجنوبية على بلاده وأعلن استقلال هذه الدولة عن بريطانيا، وشكل حكومة لحكم البلاد، دون أن يسمح للأفارقة بالمشاركة فيها، وكان ذلك في نوفمبر عام ١٩٦٥م. وقد أدى هذا إلى معارضة وغضبة عالمية، ولم يعترف المجتمع الدولي بهذه الحكومة. كما أصدر مجلس الأمن (في ذلك الوقت) كثيراً من القرارات؛ بإيقاع العقوبات والمقاطعات الاقتصادية ضد حكومة الأقلية البيضاء. وقد قام المسلمون بالجهاد للتصدي لهذه الحكومة غير الشرعية، حتى حصلوا على الاستقلال في ١٨ أبريل عام ١٩٨٠م ميلادية، وخلال الفترة الاستعمارية كان «سيسل رودس» (الحاكم الإنجليزي) يتسلى بقتل المسلمين ببنادق الصيد.

جهود الدعوة الإسلامية:

يوجد في زيمبابوي مجلس علماء الإسلام والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ودار الإفتاء وجمعية مسلمي زيمبابوي، وهناك عدد من الجمعيات الإسلامية الأخرى، التي تعمل في مجالات نشر الوعي الديني، وإنشاء الكتاتيب القرآنية، والإشراف على بناء المساجد والمدارس القرآنية، وأعمال البر والخير ورعاية النشء المسلم، وتطعيمه بالآداب والسلوكيات الإسلامية القويمة.

مشكلات المسلمين في زيمبابوي:

ويوجد في زيمبابوي ثلاثون مسجداً وعشرون مصلىً منتشرة في معظم المدن والقرى، وألحقت بهذه المساجد كتاتيب لتعليم أبناء المسلمين لكنها ليست كافية، وهناك مشكلة في أن المعلمين غير مؤهَّلين والمناهج هزيلة؛ فالمدارس الإسلامية في حاجة إلى تطوير ودعم بالمدرسين المؤهَّلين؛ ولا سيما أنها تموَّل بمبالغ تجمَع على هيئة تبرعات من المسلمين هناك والأمر يحتاج إلى مركز إسلامي لتدريب الأئمة أو معهد لتخريج الدعاة.

يوجد مجموعة من ترجمات القرآن للغات القبلية لكنها ليست كافية وتحتاج إلى تبسيط وتحتاج إلى معلمين

أما مجال نشر اللغة العربيَّة في زيمبابوي فهي لا تزال في المهد؛ فالجهود قاصرة إلى حد كبير، بسبب عدم وجود المعلمين اللازمين، للعمل في مجالات التعريب.

ولا شك أن المدارس القرآنية المنتشرة في كافة أنحاء البلاد تقوم بدورها المحدود في نشر اللغة العربية مع جهودها الإيجابية في مجال تحفيظ القرآن الكريم. كما أن عدداً من علماء الإسلام في زيمبابوي في حاجة ماسة إلى تعلُّم اللغة العربية.

تحاول المؤسسات الإسلامية في زيمبابوي العمل على نشر اللغة العربية بين المسلمين حتى تصبح لغة تداول وتفاهم يومي بينهم. وقد بذلت الجمعيات الدعوية جهوداً طيبة في هذا المجال؛ حيث توصلت إلى إصدار قرار حكومي يقضي بأن من حق كل (٥٠) أسرة مسلمة أن تنشئ مدرسة إسلامية عربية في المنطقة التي توجد بها هذه الأسر، وقد تمَّ إنشاء عدد من المساجد والمدارس فعلاً.

التبشير واستغلال حاجة المسلمين المادية والصحية:

هناك نشاط تنصيري بارز في زيمبابوي بين المسلمين وبين الوثنيين الذين يزيد عددهم على ٧ ملايين نسمة، هذا العدد مستهدَف بقوة من قِبَل عشرات من منظمات التنصير المختلفة، وفي مقدمتها: الجمعية اللندنية لنشر النصرانية، وجمعية رسالات المسيحية، وجماعة سفراء السلام، والتحالف المسيحي المبشر، فضلاً عن وجود مكثف للكنيسة الإصلاحية الأمريكية.

وهي تنتهز فرصة الحاجة المادية والحاجة إلى الرعاية الصحية للمسلمين لتقدم هذه الخدمات مغلفة بدعوة التنصير.

وبالتزامن مع وجود حركة التنصير هذه توجد مؤسسات إسلامية تقوم بجهود جبارة في أوساط القبائل الوثنية للتعريف بالإسلام واللغة العربية.

وتُظهِر بعض الدراسات أن هؤلاء المسلمين سكان قرية موهير تعود أصولهم إلى قبائل عربية هاجرت من قرون، ولا زالوا يحتفظون بالعادات والتقاليد الإسلامية والعربية.

المراجع:

- موقع طريق الإيمان.
- موقع المسلم.
- بوابة الأهرام.
- د. محمد عاشور، دليل الدول الإفريقية، جامعة القاهرة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، ٢٠٠٧م، ص٦٥١.

الاستخبارات الصهيونية: «أيام سوداء»
عقب فوز الإسلاميين في مصر

د. عدنان أبو عامر(*)
adnanaa74@hotmail.com

أكدت أوساط سياسية صهيونية أن حالةً من التوتر والقلق الشديد تسود الكيان الصهيوني في ظل تحقيق الإسلاميين المصريين فوزاً كبيراً في الانتخابات البرلمانية؛ حيث تعمل أجهزة الأمن وَفْق «حالة طوارئ» غير معلَنة، في ظل التقارير التي ترسلها السفارة في القاهرة، عما وصفته بـ «الاستعدادات المهولة والضغط الإعلامي الكبير والتنظيم الجيد لإدارة الحملة الانتخابية التي نفَّذوها».

وقد دفع ذلك الأجهزة الأمنية الصهيونية لإعداد ورقة عمل تحذِّر من «أيام سوداء» ستواجهها «إسرائيل»، مع احتمال انهيار معاهدة السلام مع مصر، وتطورات الأوضاع في شبه جزيرة سيناء، على الرغم من التأكيدات التي تسلَّمتها واشنطن من الإخوان باحترام اتفاقية «كامب ديفيد» في حال فوزها؛ إلا أن تل أبيب تنظر بعين الريبة والشك.

من جهة أخرى أشار الكاتب الصهيوني (شلومو تسيزنا) إلى أن «إسرائيل» تنتظر أن ترى أي نظام سيتشكل بعد الانتخابات في مصر «الممزقة»، وتستعد لكل سيناريو إسلامي محتمَل. بينما أعرب الرئيس السابق للجنة الخارجية والأمن في الكنيست ووزير المالية الحالي «يوفال شتاينيتس» عن شعوره بالخوف من القادم من جهة مصر، مطالباً بالتفكير بصورة مختلفة، ومحذِّراً من مفاجأة في الجبهة الجنوبية؛ لأنه قد ينشأ ذات يوم تهديد أمني من قِبَل مصر.

وينقل عما يتحدثون به في غرف مغلقة داخل تل أبيب عن «الأمد القصير والبعيد»، ويقلقهم الأمد البعيد في تقديرات الوضع؛ فقد كان ممكناً في مصر طوال سنين مهاجمة «إسرائيل» في الإعلام والثقافة والمساجد وكل حديث عام، لكن الفرق بين حماسة الماضي والحاضر كما يُبينون في تقديرات الوضع، أنه كان في مصر ذات مرة مَنْ حافظ على ارتفاع لهب التحريض؛ فهل تخرج النار المنخفضة اللهب عن السيطرة؟

ولذلك يثور خوف من سيناريو مواجهة في قطاع غزة إذا جُرَّت «إسرائيل» أو بادرت لحرب مع حماس؛ فهل ستظل الجبهة الجنوبية في هذه الحال هادئة؟ وهو ما دفع بقادة الجيش لأن يسارعوا لتهدئة النفوس بأن جميع تقديرات الوضع تُسمَع في كل نقاش، لكن حينما يوجد ارتفاع لاحتمال التهديد توجد زيادة للاستعداد.

وفي سياق متصل، اعتبر مسؤول رفيع المستوى في جهاز الأمن الصهيوني أن العلاقات مع مصر كنز إستراتيجي للدولتين، وهناك رغبة في إزالة التوتر، وقد برهنت صفقتا التبادل على أن العلاقات معها ذخر، ونحن في تنسيق معهم بشأن سيناء، بينما طالب المحلل السياسي البارز

(*) كاتب فلسطيني.

«يوئيل ماركوس» صنَّاع القرار الصهيوني بالحذر من الإساءة لمصر في الأيام التالية مهما تكن نتائج الانتخابات، وأياً كان حاكمها القادم؛ لأن للدولتين أسباباً كثيرةً للاستمرار في العلاقة؛ سواء أكانت باردة أو متوترة، ناقلاً عن «شلومو غازيت» رئيس جهاز الاستخبارات العسكرية «أمان» الأسبق، الذي ينظر بإيجابية إلى إمكانية أن يقوى الإخوان المسلمون؛ لأنه سيكون نظاماً قوياً ومستقراً، وهذا جيد للمصريين، وإن كان السلام معنا سيكون أكثر برودة.

صراع الأيديولوجية والسياسة:

ومع ذلك، يُقدِّر أن المصريين سيمتنعون عن مواجهة عسكرية مع «إسرائيل»؛ فالواقع السياسي سيوجب على كل من يُنتخَب حصر اهتمامه قبل كل شيء بتوطيد الوضع الداخلي للحفاظ على المساعدة الأمريكية، وكل حكومة ستنشأ في مصر - حتى الإسلاميين - ستطمح قبل كل شيء لتحسين الوضع الاقتصادي، وحركة السياحة ومرور السفن في السويس، ولا يعني هذا أنهم لن يُحرقوا أعلام «إسرائيل» هنا وهناك.

الصهاينة في هذا السياق يطرحون جملة من الخطوات السياسية العاجلة من قِبَل تل أبيب تجاه القاهرة على النحو التالي:

- ألا تتهجم على مصر مهما كان حاكمها.
- أن تُظهِر حساسية وحذراً في ردودها؛ فليس كل شيء لا يوافق هوانا ضدنا بالضرورة.
- علينا أن ننظر حولنا، وأن نفحص بسبع أعين ما يحدث، وأن نحذر في تصريحاتنا.

ولهذا قدَّر الخبير الصهيوني في الشؤون العربية، «تسفي بارئيل» أن يفوز الإسلاميون في مصر بنصيب كبير من أصوات الناخبين، وهو ما يجعل «إسرائيل» تُعِد عدتها لنفي مصر وإقصائها؛ بزعم أنها ستسيطر عليها قوى إسلامية متطرفة، ومن ثَمَّ فهي تفضل سلاماً بارداً يحفظ لها مصالحها مقابل التقدم المتزايد للإسلاميين في المنطقة، بدءاً بمصر ومروراً بتونس، وانتهاءً بالمغرب، وكل ذلك يجعل «إسرائيل» تخشى كثيراً «السيطرة الإسلامية» على الشرق الأوسط، وتخشى أن ينهار اتفاق السلام مع مصر.

ومن جهة أخرى وضعت المراسلة الصحفية الصهيونية في القاهرة «سمدار بيري» سؤالاً كبيراً يشغل صناع القرار في تل أبيب على النحو التالي: إما أن يكون الجيش المصري يتآمر لإبقاء المفاتيح في يديه، أو أن الحركات الإسلامية نجحت في سرقة الثورة؛ لأنه - حقيقة - لا أحد يعرف ماذا يريد طنطاوي الذي احتل مكان مبارك: هل يسير الرجل حسب خطة عمل مرتبة، أم أنه ارتكب سلسلة أخطاء إدارية؛ لا سيما أن أوراق أجهزة الاستخبارات الغربية تتوقع أن الحركة الإسلامية ستحصل على 30 %؟ وحسب المخاوف في تل أبيب - التي تعاظمت مع تعزز مكانة الإسلاميين ودورهم في المغرب - فإن هذا يعني أن الحركات الدينية من شأنها أن تحتل البرلمان مع نصف المقاعد؛ فَهُم الجهة المرتبة ولديهم التمويل، وحرصوا على عدم إثارة غضب المجلس العسكري.

ومع ذلك فقد توقعت المحافل نفسها أن إجمالي الحركات الإسلامية، سيحظون بنحو 30 - 40٪ من الأصوات، وإذا كان هذا التقدير سليماً - حتى لو قررت توحيد صفوفها - فسيبقى الإخوان بحاجة لشركاء ائتلافيين، وسيتعين عليهم أن يساوموا على الأيديولوجية في صالح القوة السياسية. لكن المشكلة الأساسية لهم ليست متعلقة بحشد القوة السياسية؛ بل في إدارة الدولة وصياغة الدستور، ولاحقاً عليهم أن يقرروا لمن يمنحوا تأييدهم كمرشح للرئاسة، رغم أنهم أوضحوا عدم توفُّر نية لديهم تقديم مرشح خاص بهم، وعلى كل الأحوال فإن معدل انتصارهم في الانتخابات سيقرر نصيبهم في الحكومة، وحجم المسؤولية عن حل المصاعب الهائلة التي يقفون أمامها.

لكن الكاتبان الصهيونيان المتخصصان في الشؤون الإقليمية «إيلي فودة وليمور لافي» توقعا للمعسكر الإسلامي إنجازات مدهشة مقابل المعسكر العَلماني واليساري المنقسم على نفسه، وليس له قاسم مشترَك، وأكثر أحزابه ذات برامج عمل مدنية، وبلا خبرة وتمويل وقيادة قوية الحضور، وهو ما يعني أن يحظى الإسلاميون بنصيب لا يقل عن نظرائهم في تونس، بل ربما يكون أكبر كثيراً، وهو ما سيمكِّن هذه المرة العناصر الإسلامية من أن تدفع للأمام برامج عملها، ومع نهاية الانتخابات ستستعد القوى لانتخاب الرئيس، وكل ذلك يؤكد أن الصراع على صورة مصر بعيد عن النهاية.

وأوصيا صناع القرار في تل أبيب بالنظر للأحداث في مصر باهتمام وقلق، لكن بلا ذعر؛ فإلغاء اتفاق السلام ليس في برنامج العمل الآن، وبرنامج عمل الإسلاميين يتحدث عن «نظر من جديد» في اتفاقات وقَّعت عليها مصر، وهذه الصياغة الغامضة تُمكِّن من مداورة في المواقف بشأن السلام مع «إسرائيل»، وهو ما يعني أنه سيكون من الواجب على كل من يدير السلطة في مصر، أن يأخذ في حسابه مصالحها السياسية والاقتصادية؛ فإلغاء السلام قد يجر فقدان المساعدة الأمريكية التي تبلغ أكثر من ملياري دولار كل سنة، وفقدان إيرادات السياحة والاستثمارات نتيجة تدهور الوضع الأمني.

الربيع العربي وتحديات الإعلام الإسلامي الجديد

جمال سلطان(*)

الربيع العربي الذي ينتشر الآن بقوة من المحيط إلى الخليج ليغيِّر وعيَ الشعوب بأولويات الأمة، ويغيِّر موازين القوى السياسية والإعلامية على امتداد ملايين البشر بعد أن غير موازين القوى في نُظُم الحكم نفسها؛ فأزال دولاً وحكاماً وأقام آخرين، وما زال الفضاء مفتوحاً على مزيد من التغيير. هذا الربيع كان من أبرز أسلحته وما يزال الإعلامُ والتغطيةُ المستمرة، التي تنقل وقائع الانتفاضات العربية على الهواء مباشرة وعلى مدار الساعة إلى العالم كله؛ ليكون رقيباً وشهيداً ومسؤولاً، ولنا أن نتخيل أن لو كانت الثورات العربية الأخيرة محرومة من أي تغطية إعلامية مهمة، هل تُراهَا كانت ستنجح في إحراج النُّظم المستبدة، أو أن تحرِّك الضمير العالمي لنصرة هؤلاء المستضعفين .

هذا الذي حدث لعله يكون أبلغ دليل نقدمه لشركائنا في الدعوة إلى الله على أهمية وخطورة الإعلام، وأنه ليس مجرد واجهة للجهود الدعوية أو السياسية؛ وإنما هو أصل لمشروعات التغيير والدعوة ونصرة المستضعفين.

(*) رئيس تحرير مجلة المنار الجديد.

لم يكن الإعلام مُدرَجاً على سلَّم الأولويات لدى حركة الإحياء الديني الحديثة في العالم العربي والإسلامي، ولم يكن هناك أي وعي حقيقي جادٍّ بقيمة الإعلام وخطورته في تشكيل الحياة في المجتمع الجديد، ومنذ دخول الصحافة في نهايات القرن التاسع عشر الميلادي لم تظهر أي بصمة تُذكَر للفعاليات الدينية فيها؛ حتى إنه ليصح القول بأنه من الصعب الإشارة إلى عمل صحفي إسلامي مهمٍّ كان له حضوره الكبير في الصحافة العربية؛ رغم أن معظم التيارات السياسية والفكرية الأخرى نشطت في هذا المجال وحققت حضوراً كبيراً واستفادت كثيراً من قيمة وتأثير الإعلام، وهو ما حقق لها حضوراً اجتماعياً وسياسياً أكبر بكثير من حجمها الفعلي والعملي في ساحة الواقع السياسي والاجتماعي.

ربما كان الاستثناء الوحيد الذي يمكن ذكره هو صحيفة (العروة الوثقى) للشيخين (جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده)، وهي الرسالة التي صدرت في فرنسا أيام النفي، وكان لها حضورها الكبير في البلدان العربية المختلفة: في الشام ومصر وتونس والجزائر والمغرب وغيرها. إلا أنه الاستثناء الذي يثبت القاعدة كما يقولون، إضافة إلى أنه من الصعب أن ندرج «العروة الوثقى» في مقام العمل الإعلامي حرفةً ومهنةً؛ وإنما كانت أشبه بالمنشورات الفكرية التي تستنهض الهمم وتحرِّك الخواطر، ومع ذلك لم يبنِ عليها أحد من بعدهم سوى محاولات فكرية بحتة قام بها السيد محمد رشيد رضا في تجربة مجلة (المنار)، وهي عمل فكري علمي يصعب نسبته إلى الصحافة. والحقيقة أن هذا الميل إلى الصحافة الفكرية - إن صح التعبير - أصبح ظاهرة ملاصقة للتجربة الإسلامية في التعامل مع الإعلام الجديد، فكانت معظم الجهود الإسلامية تتمثل في مجلات فكرية، وحتى إذا اهتم بإصدار صحيفة فإنه يصدرها مجلةً فكريةً تعتمد على المقال والرأي. لقد كان العقل الإسلامي محصوراً في إدراكه للإعلام على أنه مقالة وفكرة، دون النظر إلى الأبعاد الأخرى المتنوعة للعمل الصحفي والإعلامي خبراً وتقريراً وتحليلاً وحواراً وتحقيقاً وصورة وفنوناً وغير ذلك، فجاءت معظم تجارب الإسلاميين الإعلامية عبارة عن مجلات فكرية. أما الصحف فكانت كلها - تقريباً - من نصيب التيارات اليسارية أو القومية أو الليبرالية، ولم يبدأ الإسلاميون في الاهتمام بالإعلام حرفةً ومهنةً وبالصحافة إلا في ربع القرن الأخير - تقريباً - وحده، وأذكر أن أبناء جيلي ومَن سبقوهم في مصر - باعتبارها من البلاد العربية الرائدة في فن الصحافة - كانوا ينظرون إلى الصحفيين نظرة مستريبة ومستوحشة، وتعتبرهم أقرب إلى الماسون والجمعيات المشبوهة وأصحاب العلاقات الغامضة، فلما اقتحمنا المضمار فعلياً وجدنا أن معظم تصوراتنا واستِرابَاتِنا كانت سراباً وخيالاً لا صلة لها بالواقع، وأدركنا أنها حرفة وصنعة لها خصوصيات إنسانية وسياسية واجتماعية عالية الأثر، فلما اندفع الإسلاميون فيها حققوا نجاحات كبيرة يمكن الإشارة إلى بعضها في هذا السياق، وعندما ينظر الناظر إلى نقابة الصحافيين المصريين - مثلاً - فسيلاحظ أن متوسط أعمار أعضائها من الإسلاميين يتراوح بين ثلاثين وأربعين عاماً؛ بمعنى أنهم الجيل الجديد، ويندر - تماماً - أن تجد مَن هم فوق هذا السن، بينما يجد الأجيال الأقدم وشيوخ المهنة من تيارات فكرية وسياسية أخرى، وهذا مؤشر واضح إلى غياب الإسلاميين عن هذا القطاع الخطير طوال تاريخهم حتى السنوات الأخيرة فقط.

بدون شك كانت هناك أسباب تاريخية ونفسية وذاتية لغياب الإدراك لدى الإسلاميين بخطورة الإعلام وقيمته في المجتمع الجديد، لعل أهم هذه الأسباب هو طبيعة الحضور الإسلامي في المجتمع، الذي يعتمد على التماس مباشرة مع المجتمع وليس الحديث إليه عبر ستار الأوراق والصور، كانت آليات التواصل التاريخية لدى الإسلاميين مرتبطة بالمسجد وخطب الجمعة ودروس العلم والمواسم المختلفة في الأعياد والمناسبات الاجتماعية من زواج وجنائز وغيرها، وكلها كانت مساحات ضخمة من التأثير والتواصل مع المجتمع

كانت تُشبِع المهتمين بالشأن الإسلامي والدعاة، وتجعلهم ينظرون بشـــيء من التعالي أو عـــدم الاكتراث بالبدائل الحديثة المتمثلة في الصحافة والإعلام الجديد كالتلفاز، ويشـــعرون بالغنى عنها، والغريب أن هذه المعاني نفسها هي التي جعلت التيارات السياســـية الأخرى تنشط في مجال الإعلام وتبحر به بديلاً جديداً عن تلك المساحات الاجتماعية المباشـــرة التـــي يُصِر عليها الإســـلاميون ويلتحمون فيها بالمجتمع. وعلى ســـبيل المثال فقد كانت التيارات اليســـارية أكثـــر اهتماماً بالإعـــلام وخبراته والتفوق فيـــه؛ لأنهم حُرِموا من القدرة على التواصل مع المجتمع من خلال المساجد والدروس الدينية والمناسبات الدينية والاجتماعية المختلفة التي شـــكلت مجال تمدُّدِ الخطاب الإسلامي وتواصله مع المجتمع.

ولم يبدأ الإعلام الإســـلامي في الظهور والحضور في المشـــهد الإعلامي إلا بعد أن بدأت المســـاحات الحميمية المباشرة التي يتمتع بها الإسلاميون في الانحسار – سواء من خلال المساجد أو المناسبات الدينية – حيث أصبحت خاضعة بصورة أو أخرى للخطاب الرسمي والهيمنة الرسمية، فبدأ الإســـلاميون رحلة البحث عن المنابر البديلة، فكان الاتجاه بقوة إلى المجال الصحفي ومن بعده المجال التلفزيوني.

لقـــد مثَّلت التطـــورات التقنية والفنيـــة المذهلة في مجـــال الإعلام ميداناً خصباً لتميـــز الصحوة الإعلامية بين الإســـلاميين إن صح التعبير، وبشكل خاص الشبكة المعلوماتية العنكبوتية الكبيرة المعروفة بشـــبكة الإنترنت،

وأيضاً ظهور البث الفضائي للقنوات التلفزيونية والإذاعية. كان الإنترنت لحظة تاريخيـــة فارقة في خريطة الإعلام والمعلوماتيـــة في العالم كله، لســـهولة اســـتخدامه، وقلة تكلفة اســـتخدامه؛ خاصة في مجال الصحافة والإعلام؛ لأنه يغنيك عن رحلة البحث عن تكاليف الطبع والتسويق والشـــحن والنقل وخلافه، كما أنه يغنيك بدرجة معقولة عن تكاليف البنية الأساســـية للعمل مـــن أماكن ومكاتب وعمالة ضخمة وغير ذلك. الأمر الآخر الذي حققه ظهور الإنترنـــت – وهو لا يقل خطورة وأهمية عما ســـبق – هو تجاوزه الكبير نسبياً لحاجز الرقابة والتصاريح الرسمية المعقَّـــدة خاصة فـــي العالم العربي من أجل اســـتصدار رخصـــة صحيفة أو مجلـــة أو إذاعـــة؛ الآن يمكنك إذا قررت في الصباح أمـــراً أن تحول قرارك إلى واقع فعلي في المســـاء وترســـل صوتك أو رأيك في اليوم نفسه إلى ملايين القراء أو المستمعين في أنحاء العالم كله، هذه نقله مدهشة ورائعة، والأكثر دهشة فيها على المستوى العربي أن أكثر الفئات استفادة منها كانوا هم آخر الفئات دخولاً إلـــى فضاء الإعـــلام (أعني الإســـلاميين)؛ فتفوقوا فيه ونجحوا وأصبح حضورهم هو الأهم والأقوى في ســـاحة الإعلام الجديد عبر الإنترنت وربما عبر الفضائيات كما ســـيأتي، وهذا الحضور القوي في الإنترنت – على سبيل المثال – كانت له أســـبابه المنطقية والسياســـية؛ وذلك أن الإســـلاميين عندما دخلوا متأخرين إلى ساحة الإعلام، كانـــت القنوات أو المنابر التقليدية في الإعلام العربي قد تم إكمال حلقاتهـــا واحتلالها وانغلاقها على فئات بعينها أو تمَّت مصادرتها لصالح الحكومات والنظم السياســـية. فحتى الصحف الرســـمية أو القومية أو الكبيرة المستقلة كانت الهيمنـــة فيها لأصحاب تيارات فكرية وسياســـية قديمة (يسارية أو ليبرالية أو قومية)، والمساحات المتبقية فيها محدودة للغاية، ولذلـــك وجد الوافدون الجدد على ساحة الإعلام – وهم الإسلاميون – ضالتهم في الإنترنت، في الوقت الذي لم يشعر الآخرون بحاجة ماسة أو ملحة إلى اســـتخدام الإنترنت؛ لأن لديهم البدائل القديمة من الصحـــف والمجـــلات والفضاء الإعلامي الرســـمي كله، ولذلك كانت الملاحظة واضحة بشكل كبير في أن الإنترنت

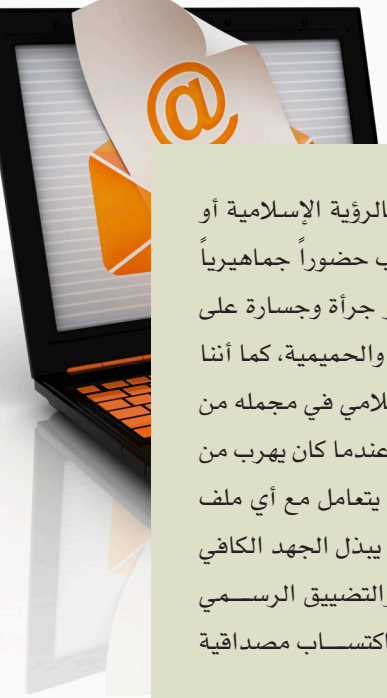

العربي هو إسلامي الهوى والفكر واللغة. صحيح أن معظم الصحف صممت لها مواقعها على الشبكة العنكبوتية، وثمة مواقع فكرية وسياسية أخرى، لكنها تبقى نسبة محدودة للغاية بالمقارنة بالمواقع التي تعبِّر عن الخطاب الإسلامي سياسياً ودينياً وفكرياً وقيمياً وحضارياً.

على الجانب الآخر وبعد سنوات قلائل من ظهور البث الفضائي، وانتشار القنوات التلفزيونية التي تتوسل هذه النقلة الجديدة والخطيرة، وإحساس فعاليات فكرية واجتماعية وسياسية كثيرة في العالم العربي بخطورة هذا الباب وسعة تأثيره: حدث أن اتجهت فعاليات إسلامية كثيرة إلى البث الفضائي من أجل تحقيق حضور مؤثر فيه وحجز مساحة كبيرة لها في العقل والعين والخاطر العربي الجديد، وبدأت المحاولات بظهور قناة «اقرأ» الفضائية، ثم بعدها ظهرت قناة «المجد» ثم تقاطرت القنوات؛ حيث أصبحت المجد شبكة من القنوات الفضائية بعضها متخصص في الطفل أو الأسرة أو العلوم الشرعية، وظهرت قناة الرسالة وقناة الفجر وقناة هدى وانفتح الباب واسعاً، ثم ظهر سيل من القنوات الفضائية العراقية في أعقاب التحولات الأخيرة التي انتهى فيها حكم البعث، وإن كانت القنوات العراقية تتسم بروح الفوضى والطائفية التي يتسم بها الواقع القائم الذي عمَّق من فوضاه الاحتلالُ الأمريكي وخُطَطُ تفكيك العراق وشرذمته.

إن المشكلة الرئيسية التي تمثل تحدياً للإعلام الإسلامي حتى الآن، تتمثل في أن وعي القائمين عليه ما زال مشدوداً إلى فكرة «الإعلام الديني» أو التبشيري أو الدعوي بمفهومه المباشر والضيق، ونادراً ما يحدث أن يتجاوز الإعلام الإسلامي الآن تلك الدوائر الضيقة إلى فضاء المجتمع وتعقيداته السياسية والاقتصادية والأمنية والثقافية، ناهيك عن الأنشطة المتنوعة التي تمثل حساسية زائدة عند الإسلاميين، رغم حضورها «الإعلامي» الكبير عند الجمهور الواسع في البلدان المختلفة، مثل قطاع الفن وقطاع الرياضة وقطاع ملفات الجريمة والحوادث وما شابه ذلك، وتبدو الصورة كما لو كان الإسلاميون حاولوا نقل «المسجد» من مساحة الأرض إلى أثير الفضائيات لا أكثر، وهو ما أتاح الفرصة للإعلام المشبوه أو غير الملتزم بالرؤية الإسلامية أو حتى المعادي لها، أن يتمدد ويكتسب حضوراً جماهيرياً واسعاً ومتابعة ضخمة؛ لأنه أكثر جرأة وجسارة على اقتحام هموم المجتمع المباشرة والحميمية، كما أننا لا يمكن أن نبرِّئ الإعلام الإسلامي في مجمله من خذلان طاقات التغيير في الأمة عندما كان يهرب من مواجهة استحقاقات سياسية أو يتعامل مع أي ملف سياسي بهلع زائد، دون أن يفكر أو يبذل الجهد الكافي للالتفاف على الحصار الأمني والتضييق الرسمي للتواصل مع الجمهور العريض واكتساب مصداقية سياسية أيضاً.

وبدون شك، فإن الثورات العربية الأخيرة كسرت كثيراً من العقبات، وأزالت كثيراً من العوائق أمام تمدُّد الإعلام الإسلامي، وأصبحت المسؤولية مضاعفة الآن على الإسلاميين؛ فلا حجة لهم ولا عذر إن لم يقدموا رسالة إعلامية حديثة ناضجة جذابة قادرة على اجتذاب ملايين المواطنين بمختلف اهتماماتهم وتطلعاتهم. وأتصور أن التحدي الأكبر للإسلاميين في مجال الإعلام سيكون في محورين اثنين:

الأول: مدى قدرتهم على الاستفادة القصوى من الحالة الراهنة المنفتحة الرحبة لتكوين عناصر فنية محترفة بأسرع وقت، وتحريك برامج تدريب على مستوى عالٍ يستعان فيها بكفاءات وقدرات مرموقة حتى من غير الإسلاميين، مع تحوُّل المتدربين إلى الممارسة المباشرة في صحف ومجلات وفضائيات وإذاعات.

التحدي الآخر: هو القدرة على تجاوز الولاءات المحدودة داخل الحزب أو الجماعة، لصناعة إعلام قادر وجذاب واحترافي يعتمد على الكفاءة وليس على «الولاء»، وليكن الولاء محصوراً في الإستراتيجية العامة للوسيلة الإعلامية، وليس في تفاصيل العمل ويومياته. هذا التحدي برز بوضوح في التجارب البسيطة التي ظهرت بالفعل الآن في أعقاب انتصار الثورات في مصر وتونس في تجارب إعلام حزبي إسلامي جديد.

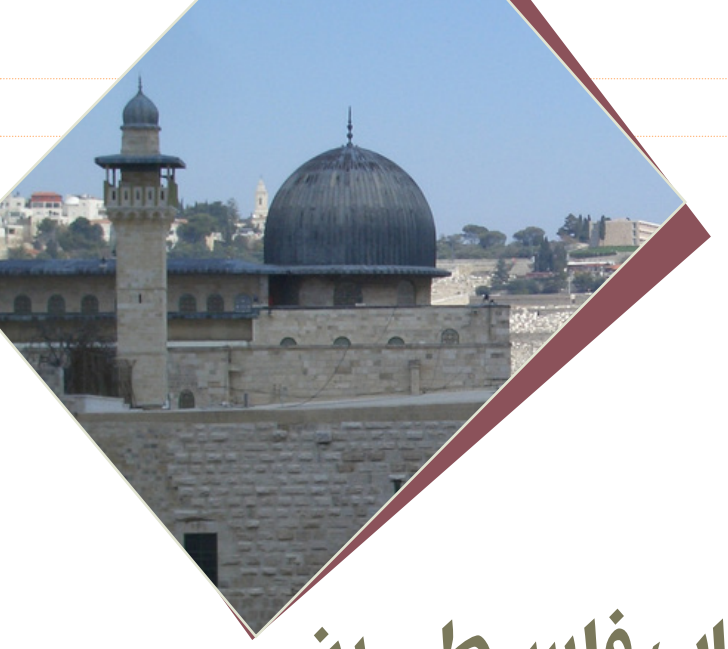

ثوار على أبواب فلسطين

أحمد أبو دقة

عاش العالَم العربي خلال العقود الماضية حالة من القمع والحكم الفردي الشمولي، أسقطتْ من اهتمامات الناس كثيراً من القضايا الرئيسية وعلى رأسها القضية الفلسطينية؛ لأن المعادلة التي فرضها الواقع هي أنه مَنْ يريد الحفاظ على تفرُّده بالسلطة فعليه أن يغض البصر عن هموم المسلمين، وليس ذلك فحسب بل إن بعض الناس – مثل الرئيس المصري السابق حسني مبارك – بالغ في ولائه للاحتلال الصهيوني، وفرض حصاراً على قطاع غزة استمر أكثر من خمس سنوات، ولم تفلح كل الضغوط في إزالته سوى الثورة المصرية المباركة، التي اندلعت مع بداية العام الحالي ٢٠١١م. ومنذ فتح معبر رفح الذي اعتُبِرا إنجازاً للثورة المصرية فإن طموحات الشعب الفلسطيني وأَمَلَهم في أمتهم بدأ يتجدد وبدأت كذلك الثورات في تونس وليبيا واليمن وسورية تعيد الإنسان العربي إلى تراثه وأصالته وفطرته التي ولد عليها وإلى انتمائه لإسلامه.

وجميعنا يعلم أن الأنظمة الشمولية التي اتخذتْ القوميةَ والاشتراكيةَ والعلمانيةَ شعاراتٍ رنانةً لاستمرارها في الحكم واستنزاف ثورات البلاد والعباد دون إنجازات تزيل الفجوات التي بين الشعوب العربية وشعوب «العالم الأول» التي سبقتنا بآلاف السنين الضوئية في العلم والتطور، ولم يبقَ لنا سوى ديننا الذي نشأنا عليه وتخلَّقنا بأخلاقه؛ فحينما عاد الثوار إلى الشارع عادت معهم الكرامة لأمتهم، فلم يحملوا شعارات تريد إسقاط الحكم الفردي، بل حملوا أيضاً طموحاً بالحصول على حريتهم ونهضة بلادهم، وما أظهرته نتائج الانتخابات في المغرب وتونس ومصر يُظهِر أن الأمة تعود إلى دينها من جديد، وتتعلق بحضاراتها الأصيلة وثقافتها الموروثة، وتنفض كافة الشرائع الوضعية التي استُورِدَت من عالَم آخر لكي تطبَّق علينا.

لم نكن نذكر أبياتاً أجمل من أبيات هذه القصيدة التي كتبها الشاعر فخري البارودي، وتعلمناها في مدارسنا:

بلادُ العُربِ أوطاني
منَ الشَّامِ لبغدانِ
ومن نجدٍ إلى يَمَنٍ
إلى مِصرَ فتطوانِ
فلا حدٌّ يباعدُنا
ولا دينٌ يفرِّقنا
لسان الضَّادِ يجمعُنا
بغسَّانٍ وعدنانِ

وها هي اليوم بعد غياب طويل تعود إلى ذاكرتنا، بعد أن عادت هذه الأمة إلى الثورة من جديد خلف شعار واحد صوتت عليه في الانتخابات، وهو: أن الإسلام هو الحل لجميع قضاياها. فبغضِّ النظر عن التباين في مواقف الإسلاميين واختلافاتهم فإن ما يغذِّي روحهم هو عشقهم لدينهم وكرامتهم. لقد غُيِّبُوا كثيراً بسبب تزوير الانتخابات والاعتقالات والتهميش لكن الشعوب اختارتهم لأنها بحاجة إلى الإسلام ليحكمها؛ لأن ما سلف أرهقها كثيراً.

قمنـــا في مجلـــة البيان بالتواصل مع عدد مـــن الضيوف للحديث عن فلســـطين التي أصبحت شعاراً لكل عشاق ميادين التحرير في العالم العربي، فـــكان الإجماع أن المرحلة القادمة مرحلة ستكون نوعية في تاريخ القضية الفلسطينية.

نهضة فكرية جديدة:

الدكتور يوســـف رزقة (مستشـــار رئيس وزراء قطاع غزة) يقول: إن التغييـــرات التي طرأت على العالم العربي ســـتفرز حكومات جديدةً ومشـــاعرَ جديدةً اتجاه القضية الفلسطينية، وكذلك ســـوف نجد إعدادَ قواعد عمل جديدة لتلك الحكومات انطلاقـــاً من معتقداتٍ فكريـــة جديدة أيضاً، وهذا مكســـب للقضية الفلسطينية يساعد في توحيد الشعوب العربية وإعادة الاهتمام بقضية فلسطين وَجَعْلها القضية المركزية بالنسبة لهم.

ويرى رزقة أن العقود الســـتة الماضية تعوَّدت الأمة فيها على موقف غربي وأمريكـــي مؤيِّد لـــ (إســـرائيل) ومدافِع عنها، وفي الوقت نفســـه كانت الأنظمة تعاني من حالة ضعف داخلي وعاجزةً عن مواجهـــة الجانب (الإســـرائيلي) وكذلك الضغـــوط الغربية والأمريكية. وخلال حديث مستشـــار إسماعيل هنية مع البيان أكد على أن المد الإســـلامي الذي تشـــهده الأمة جاء نتيجة تعطُّشـــها لتغيير للأحســـن وللعودة إلى مرجعيتها وثقافتها، وكذلك تعويضاً عن ســـنوات الحرمان والظلم والاضطهاد التي عاشها الإسلاميون تحت حكم القمع والدكتاتوريات. والشـــعوب العربية عاطفية تميل دائمـــاً إلى فطرتها ودينهـــا لذلك تجد في الأحزاب الإســـلامية متنفَّساً يعبِّر عن معتقداتها وطموحاتها، وهو الأقرب إلى أفكارها بعد أن جربت الاشتراكية والعَلمانية وغيرها في الماضي.

وأعـــرب رزقه الـــذي كان وزيراً للثقافة في الســـابق عن كبيـــر أمله في أن التغيرات الجارية ســـتحمل الخير للشـــعب الفلســـطيني، وعملياً - كما يقول - فإنها: «ســـتؤثر على الملف الداخلي الفلسطيني وستضغط على طرفَي المصالحة، وكذلك كثير من العواصم ربطت مســـاعدة الفلســـطينيين بإنجاز هذا الملف؛ لذلك جاء الربيع العربي بتغير النظام القمعي في مصر وهو الذي كان يعيق التوافق الفلســـطيني اســـتجابة لدعوات أمريكية و (إســـرائيلية). أما الآن فمصر تشهد سياسة جديدة في التعامل مع الشعب الفلسطيني».

أما بخصوص مدى تأثُّر المقاومة المسلحة بالحالة السياسية الناتجة عن الربيع العربي - وخصوصاً الملف الســـوري - فقد أكـــد رزقة بأن ذلك لم يؤثر علـــى المقاومة كثيراً؛ لأنه لا توجد علاقة بين عواصم الدول الإقليمية (مثل دمشـــق والقاهرة) في موضوع المقاومـــة، بل هذا الأمر له علاقـــة بالوضع الداخلي الفلسطيني وهو يعتمد على مقوِّمات وإمكانيات المقاومة نفسها، وما نشهده من مرحلة هدوء جاءت لتضميد الجراح بعد الحرب التي خاضتها غزة عام ٢٠٠٨م.

ومن الإيجابيات - كما يرى الدكتور رزقة - أن الربيع العربي جعل دولاً كثيـــرة تعيد تقييم علاقتهـــا بحركتَي فتح وحماس، وخير مثال على ذلك الأردن، التي اعترفت بالخطأ الذي ارتكب حينمـــا أغلقت مكاتب حركة حمـــاس، ويقول أيضاً: «الآن تأثر [الأردن] بالحالة العربية، وملـــك الأردن صحاب خبرة وحكمة ورثها عن والده الملك حسين لذلك هو يسعى لترتيب الأوراق من حوله والاستجابة للمتغيرات التي تحيطه به، فهو غير الحكومة ويســـعى لإعادة إصلاح العلاقة مع الإسلاميين؛ لأنه يعتبرهم سنداً قوياً في مواجهة مخططات الأحزاب اليمينية الإسرائيلية التي تريد ترســـيخ فكـــرة إقامة وطن بديل للفلســـطينيين في الأردن، وهذا ما ترفضه الأحزاب الإسلامية».

تهديد الوجود الإسرائيلي:

أثَّر التغير في الوطن العربي على أســـلوب التفكير، وخلق ســـقفاً جديداً من الحريات، الأمر الذي جعـــل الناس يغيِّرون نظرتهـــم تجاه بعض المصطلحات السياســـية وكذلك ســـقف طموحاتهم. يقول المحلل السياسي صالح النعامي: «إن التغيرات لها عدة تأثيرات، ومن يتابع النخب الإســـرائيلية ســـيصل إلى قناعة بأن هناك حالة فزع (إســـرائيلي) مما يجري في الشرق الأوســـط، وكذلك ما يســـمى بالربيع العربي قلص الخيارات أمام القوى الفلســـطينية التي تمثل حالة الانقسام وأوجد أزمة خيارات بالنســـبة لحركتي فتح وحمـــاس؛ فنلاحظ أن النظام الذي كان يســـاند توجُّهات رئيس السلطة أبي مازن (وهو نظام مبارك) قد سقط. وبالنســـبة لحركة حماس فإن الأوضاع في ســـورية تتغير ويوجد عدم اســـتقرار وهذا هزَّ قناعات حماس وجعلها تدرك أن التوافق الفلسطيني هو الحل المتوفر».

ويتابـــع النعامي فـــي حديثه لـــ البيان: إن حالـــة الغضب في مصر تجاه (إســـرائيل) جعلت الأخيرة تخاف على مستقبلها في محيط مشـــتعل غضباً عليها، ومن أهم إنجازات الربيع العربي أن الحكومات تحررَت من التبعية للغرب والإدارة الأمريكية، وأصبحت أقرب إلى الشـــعوب. ويعتقد أيضاً أن هناك حالة انقطاع مع عهد

الاســـتبداد، مضيفاً أن الأنظمة القادمة ستكون أكثر قرباً وتبنِّياً للقضية الفلسطينية، وقريبة من الرأي العام العربي؛ لأنها ستكون مهدَّدة بالتغيير إذا ابتعدت عن رغبات الشعوب. سيتغير الدور من تآمري كما كان في الماضي إلى مساند.

ومـــن جانب آخر فإن الثورات لن تنحصر في تأثيرها على الجانب السياسي؛ بل إن أثرها سينعكس على قطاعات تنموية في الاقتصـــاد والتعليم وغيرهما مـــن جوانب الحياة الأخرى، وبحســـب وجهة نظره فإن هذا الأمر سيؤثر في عملية تقليص ميزان القوى بـــين طرفي الصراع، وهمـــا: الوطن العربي من جانب و (إســـرائيل) من جانب آخـــر؛ لأن الحكومات الجديدة ستكون مشغولة في إعادة بناء مجتمعاتها.

ويستبشـــر النعامي خيراً بعملية فك الحصار عن غزة بشكل جزئـــي، الذي جاء نتيجة ضغط الشـــارع المصري على الحكومة، ويقول: «إن هذا من ثمار الربيع العربي؛ فقد شهدنا عَلَم فلسطين يُرفَع في ميادين كثيـــرة، وهذا يعيد القضية إلى مكانها الصحيح في المحيط العربي والإســـلامي، شـــهدنا وحدة للأمة خلف هذه الثورات وهذا يصبُّ في وحدة الموقف الإسلامي من القضية وقوة الدعم الموجَّهة للقضية».

ويضيف النعامي أن خياراً جديداً بدأ يظهر في الســـاحة الفلسطينية متأثراً بالربيع العربي، وهو أن الشارع الفلسطيني يتحدث عن البدء بمقاومة شـــعبية والتأنـــي في خيار المقاومة المســـلحة لمنح الثورة العربية فرصة لكي تثمر ويتشـــكل موقف إستراتيجي عربي واضح اتجاه القضية الفلسطينية.

إستراتيجية الهجوم:

إن الحَراك العربي يبشـــر بوحدة قريبة للأمة، وهذا يسهم في تغير أمور كثيرة في أنظمة الحكم الحالية، وشـــهدنا حالة التضامن مـــع الثورات في تونس وليبيـــا واليمن ومصر؛ وكأن الأمة بقلب واحد وصوت واحد كلها تؤيد المشـــروع السياســـي نفســـه؛ مشـــروعَ طُموحٍ يعيد لها مكانتها. ويرى مدير تحرير صحيفة الســـبيل الأردنية عاطف الجولانـــي أن هذا الحَراك يشـــكل نقطة تحوُّل في تاريخ الأمة الإسلامية ويؤسس لتشكيل نظام إقليمي جديد سيســـهم في الإعلاء من شـــأن الشعوب ورســـم ملامح المســـتقبل ونقل الأمة من الواقع السلبي الذي عاشته خلال العقود الماضية إلى الخريطة الدولية.

ويقول الجولاني: «أعتقد أن القضية الفلســـطينية ســـتكون الرابح الأكبر لامتلاك الشعوب حريتها؛ لأنها ستعبِّر عن قناعاتها وتوجُّهاتها المؤيدة للشـــعب الفلسطيني والهادفة لإزالة الاحتلال. ربما يكـــون الحَراك الحالي قـــد صرف الأنظار عـــن القضية الفلسطينية قليلاً لكن حينما تكتمل الثورات سيكون التغير كبيراً».

ويشير إلى أن التغيير الحالي سيؤثر في المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياســـي، ويوفر للفلسطينيين مساندة سياسية عربية من قِبَل أنظمة الحكم الجديدة في المحافل الدولية.

ويرى كذلك أن الحكومات القادمة ســـتُجبَر على الإصغاء لمطالب الشـــعوب، وكذلك فإن ميادين التحرير ستضغط باتجاه تقديم تسهيلات للشعب الفلسطيني والمقاومة الفلسطينية، ولن نجد أحداً يقبل بأن يكون تآمرٌ على المقاومة الفلسطينية.

ويستذكر الجولاني اللقاءات التي عقدها عسكريون من حماس مـــع قيادات في الجيـــش المصري خلال جـــولات مفاوضات عدة، ويقول: «إنها أكدت تغير نظرة القادة المصريين إلى قطاع غزة، ومع اكتمال الثورة ســـتكون النظرة إلى حركة حمـــاس: أنها قادرة على حماية الحدود بين مصر وقطاع غزة، وستكون العلاقة تعاونية بدلاً من العدائية التي أظهرها النظام السابق، وهذا سيؤثر على علاقات السكان وسيعزز الترابط الاجتماعي والاقتصادي بينهم».

ويتابع: «أودُّ الإشارة إلى نقطة مهمة في هذا الموضوع تتمثل في الفوز الذي يحققه الإسلاميون في الانتخابات، وهذا يبشر بأنه في المرحلة القادمة ســـيكون على العالم بأســـره التعامل معهم على أنهم قوة مؤثرة، وهذا يجعل الدولة الغربية تدرك أن المعادلة تغيرت في الشرق الأوسط».

ويلفـــت الجولانـــي الانتباه إلى نقطة مهمة ســـوف تتأثر كثيراً - بحســـب قوله - وهي مفهوم السلام مع (إســـرائيل)، ويقول في ذلك: «الملاحَظ أن (إســـرائيل) تنظر بعين القلـــق اتجاه التطورات في المنطقة؛ لأن الثورات ســـتغير مفهوم الســـلام في الفكر العربي الإسلامي، وكذلك تغيِّر الأنظمة من أنظمة كانت تتبنى رؤى سياسية تحافظ على بقاء (إســـرائيل) إلى مبـــادرات وتوجهات تحمل عداء الشعوب لها وتطالب بإزالتها. والحديث يدور الآن في مراكز البحث الإســـرائيلية حول الخطر المحدق بوجود (إســـرائيل) وليس فقط تعرُّضها للخطر».

ويتابـــع: «أعتقد أنه بعد إتمام عمليـــة التحول التي بدأت مع بداية الثورات العربية، فإن إســـتراتيجية الســـلام التي كان يتبناها بعض الناس ستسقط وسيطرح بديلاً عنها إستراتيجية المقاومة، وإستراتيجية الهجوم بدلاً من إستراتيجية الدفاع».

الأدب والتغيير

أ. د. وليد قصّاب(*)

لعب الأدب - بأجناسه المختلفة - منذ نشأته عند جميع الأمم والشعوب دوراً مؤثراً فعالاً في غرس القيم والأفكار والمفاهيم التي تساهم في بناء النفوس وتغييرها، أو حفزها - على الأقل - لاتخاذ مواقف معينة تجاه كثير من القضايا الاجتماعية أو السياسية أو الدينية أو غير ذلك.

بدا الأدب دائماً - وبصور مختلفة إيجابية أو سلبية - سلاحاً من أسلحة التحفيز والتحريض اللذين ينتهيان بالنفوس إلى التغيير، واتخاذ مواقف مغايرة.

وما كانت هذه القوة للأدب إلا بسبب ما يمتلكه من التأثير والجاذبية؛ إذ ليس هو كلمة عادية، ولكنه كلمةٌ منمَّقة جميلة، كلمة تشبه السحر. وهذا ما عبَّر عنه حديث رسول الله ﷺ بقوله: «إن من الشعر لحكمة، وإنَّ من البيان لسحراً»(١).

وفي تراثنا العربي الإسلامي كان الأدب (بشعره ونثره) دائماً سلاحاً في الدعوة، وخدمة الجماعة، والتعبير عن قضاياها وهمومها.

ومنذ نشأة الشعر عند العرب كان له الأثر الفعال في تحفيزهم وتحريضهم: على العفو أو الثأر، على الحرب أو السلم، على الشجاعة أو الجبن. وكان صوت الشاعر مسموعاً مدوياً يصوغ وجدان الناس ومشاعرهم على نسق ثقافيٍّ معيَّن.

وما كان الحثُّ الدائم على حفظه إلا من قبيل الإيمان بدوره التربوي والنفسي، وبقدرته على التغيير، ونقل النفوس من حال إلى حال.

(*) أستاذ بجامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، ص ٣٧٥.

فهذا معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه – يشير إلى دور الشعر، عندما يكتب إلى واليه زياد معاتباً؛ لأنه لم يعلِّم ابنه الشعر، ولم يروِّه إياه. قال له: «ما منعك أن تُروِّيَه الشعر؛ فوالله إنْ كان العاقُّ ليرويه فيبرَّ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل»[1].

ويتحدث معاوية كذلك عن تجربته الشخصية، وما أحدثه الشعر من تغيير في موقفه حتى انقلب إلى النقيض؛ من الفرار إلى الثبات.

يقول معاوية: «اجعلوا الشعر أكبر همِّكم، وأكثر دأبكم؛ فلقد رأيتني ليلة الهرير بصفين، وقد أُتيتُ بفرس أغرَّ محجَّل بعيد البطن من الأرض، وأنا أريد الهرب من شدَّة البلوى، فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة:

أبتْ لي همتي وأبى بلائي
وأخذي الحمد بالثمن الرَّبيحِ
وإقحامي على المكروهِ نفسي
وضربي هامة البطلِ المشيحِ
وقولي كلما جشأت وجاشت:
مكانَك! تُحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثرَ صالحاتٍ
وأحمي بَعْدُ عن عرضٍ صحيحِ[2]

وفي الإسلام جُنِّدَت الكلمة الأدبية المؤثرة منذ انطلاق دعوته، في الدعوة والتغيير، وفي الإثارة والتحريض. كانت سلاحاً جهادياً قوياً. كان ﷺ يقول لشعرائه المنافحين عن الإسلام: «إن المؤمن ليجاهد بسيفه ولسانه».

وكان الشعراء والخطباء وأرباب الكلمة المعبرة ينطلقون مع الجند في ساحات المعارك، فيشجعون المجاهدين، ويبثون فيهم روح الحماسة والعزيمة والإيمان، فينطلقون غير هيابين ولا وجلين.

في معركة القادسية جمع سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – طائفة من الشعراء والخطباء والحكماء والقراء، ثم خطبهم يحثهم على أداء وظيفتهم في هذا اليوم الحاسم. قال لهم: «انطلقوا فقوموا في الناس بما يحق عليكم، ويحق لهم عند مواطن اليأس. إنكم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم، فسيروا في الناس فذكِّروهم وحرضوهم على القتال»[3].

وأشار صلاح الدين الأيوبي (بطل الحروب الصليبية) إلى دور الأدب في المعركة، فتحدث عن رسائل القاضي الفاضل والعماد الأصبهاني، التي وصفت للمسلمين الأخطار التي تتهدد الدين والبلاد على يدي الغزاة الصليبيين، وحثتهم على الجهاد، وبذل المال، والانضباط والطاعة للسلطان. وقد بلغ من تأثير هذه الرسائل في تغيير النفوس وحشدها أن يقول صلاح الدين الأيوبي – رضي الله عنه – إنه فتح البلاد برسائل القاضي الفاضل.

(١) العقد: ٥/ ٢٧٤.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٧٤.

(٣) انظر: كتاب «الفن والأيديولوجيا» ف – ريانوف، ترجمة خلف الجراد، ص٧.

تجنيد الأدب:

وبسبب قدرة الأدب على التغيير، ودوره المؤثر الفعال في حفز النفوس على الثورة والعمل وتبنِّي المواقف، اصطنعته الطوائف المختلفة في القديم والحديث سلاحاً هاماً من أسلحتها في الدعوة وصياغة الأحاسيس والوجدانات؛ فكان واحدٌ مثل ستالين يقول: «الأدباء مهندسو البشرية».

وأشار أحد النقاد الغربيين إلى اصطناع الطوائف المختلفة: من سياسية، وفكرية، وأيديولوجية للأدب في حمل رسالتها، وتغيير المجتمع والناس إلى الصورة التي يريدون. يقول ريا نوف: «إن التاريخ لم يعرف طبقة واحدة سيطرت في المجالات السياسية والاقتصادية وأهملت مسألة الفن، فإن كل واحدة من الطبقات التي سيطرت - اقتصادياً وسياسياً - سعت بالسبل كلها إلى الاستفادة القصوى من ثمار ونتائج الإبداع الفني، خدمة لمصالحها الطبقية... إنَّ الفنَّ أصبح سلاحاً للسياسة والأيديولوجيا، كما أن السياسة بدورها صارت مادة لكثير من الأعمال الأدبية والفنية...».

دور القصة في التغيير:

وإذا كان دور الشعر في التأثير والتغيير قد تراجع كثيراً في العصر الحديث عمَّا كان عليه في القديم لأسباب كثيرة لا مجال لتفصيل القول فيها؛ فإن الأدب ما يزال مؤثراً فعَّالاً، ولكن دوره في التغيير قد انتقل الآن - بشكل خاصٍّ - إلى القصَّة.

إنَّ القصَّة اليوم - بأشكالها المختلفة - هي سيِّدة الفنون الأدبية الحديثة، حتى حمل ذلك بعض النقاد على أن يسمِّي هذا العصر بـ «عصر الرواية».

إن القصة اليوم لم تعد مجرَّد كلام أدبيٍّ يُقرأ بين دفتيْ كتاب، بل تحوَّلت - بما هيأته لها التقانات الحديثة - إلى أشكال فنية مختلفة.

إنَّ القصة تدخل اليوم إلى كل بيت؛ وذلك لأنها قد تحولت إلى فيلم ومسلسلة ومسرحية و تمثيلة، فصارت شديدة الإغواء والإغراء، ومضت - بسبب ما تملكه من التشويق والإمتاع، ومن الجاذبية والإثارة - ترسِّخ كثيراً من المبادئ والأفكار والقيم: عن الدين والأسرة والسياسة والعادات والتقاليد وما شاكل ذلك. وقد كان بعض تأثيرها إيجابياً قاد إلى تغيير حميد، فوعَّى الجماهير، وفتح عيونهم على كثير من سلبيات مجتمعهم، والخلل في حياتهم السياسية والاجتماعية، وأيقظ فيهم روح الثورة والتحدي، والمطالبة بالحرية والعدالة، مما نشهد بعضاً من ثمراته في هذا الربيع العربيَّ الذي نعيش خضرته.

ولكنَّ القصَّة لم تكن دائماً ذات دور في تغيير حميد، بل كثيراً - وكثيراً جداً - ما حملت القصة قيماً سلبية، مسَّت العقيدةَ والدينَ، ومسَّت ثوابت فكرية تمثِّل هوية الأمة وشخصيتها، فصاغت وجدان كثير من طوائف المجتمع على نسق ثقافيٍّ معيَّن.

إنَّ الأدب فنٌّ غير محايد، ومهما حاول أن يتجرَّد من انتمائه السياسي أو العقدي أو الأيديولوجي؛ فإنه غير قادر على ذلك. إنه دائماً تعبير عن رؤية فكرية، عن تصور للكون والإنسان والحياة، وهو دائما طمَّاح إلى ترسيخ مفاهيم أو تغيير مفاهيم، مستغلاً قدراته النفسية والجمالية لإحداث هذا التغيير.

ولكن التغيير نحو الأرقى والأسمى هو مطمح كل أدب عفٍّ نظيف، كالأدب الإسلامي، الذي هو نتاج الكلمة الطيبة التي ذكر الله - تعالى - أن أثرها لا ينتهي، ونفعها لا ينقضي، وهي خالدة ما بقي الزمان.

﴿ألَمْ تر كيْف ضرب اللّهُ مثلاً كلِمةً طيِّبةً كشجرةٍ طيِّبةٍ أصْلُها ثابِتٌ وفرْعُها فِي السّماءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

دور الأنظمة السابقة في إفساد المجتمعات

مهندسة كاميليا حلمي محمد(*)

تبنَّت الأنظمة السابقة - التي ثارت عليها الشعوب العربية وأسقطتها بفضل من الله وحده - بقوة خلال العقود الثلاثة الأخيرة، الأجندةَ الأممية للمرأة والطفل، التي جرى ترجمتها إلى تعديلات عدة تم إقحامها في المنظومة التشريعية في بلادنا في العقود الأخيرة، وبالأخص في مجال قوانين الأحوال الشخصية، والتي كان واضحاً أنها تسير في خط بعيد عن القيم الأصيلة لمجتمعنا الإسلامي.

وبدأ ذلك عقب التوقيع مباشرة على اتفاقية من أخطر الاتفاقيات الدولية التي صدرت عن هيئة الأمم المتحدة للمرأة، وهي (اتفاقية القضاء على كافة أشكال التمييز ضد المرأة «سيداو CEDAW») التي صدرت عام ١٩٧٩م، وانضمت إليها الدول العربية والإسلامية تحت ضغوط عدة، منها التهديد بسلاح المساعدات، ومنها الضغوط السياسية التي تلت حرب الخليج، والتي نشأ عنها انضمام دول الخليج لتلك الاتفاقية المشؤومة.

وباتت تلك الاتفاقيات سيفاً مسلطاً على رقاب الشعوب، ومدخلاً خطيراً لنشر الفساد القيمي والأخلاقي في المجتمعات العربية.

ففي المجتمع المصري - على سبيل المثال - نرى أن من أخطر أوجه ذلك الفساد، ماطرأ على البنية التشريعية المصرية في العقود الثلاثة الأخيرة؛ حيث شهدت الساحة القانونية سيلاً متلاحقاً من تغيير التشريعات، بل وتلاحُق التعديلات على التشريع الواحد، وبالأخص في مجال قوانين الأحوال الشخصية؛ فقد أخذ المجلس القومي للمرأة برئاسة زوجة رئيس مصر المخلوع على عاتقه مهمة إدخال التعديلات المستمدة من تلك الاتفاقيات الدولية، مع تجاهل كل الاعتراضات التي أبداها العلماء المتخصصون، أمثال أعضاء مجمع البحوث بالأزهر الشريف، وعدد من المفكرين ومسؤولي المنظمات الإسلامية المعنية بشؤون الأسرة والمرأة والطفل.

كما تولَّى المجلس القومي للأمومة والطفولة، إدماج الاتفاقيات الدولية المعنية بالطفل والوثائق ذات الصلة ضمن قانون الطفل المصري لعام ٢٠٠٧م، وذلك في المادة الأولى منه. وهو أمر شديد الخطورة؛ إذ طالبت وثيقة (عالم جدير بالأطفال) - باعتبارها وثيقة آليات وسياسات لتطبيق اتفاقية حقوق الطفل الدولية، وهي مشمولة ضمن (الوثائق ذات الصلة) التي نص عليها القانون الجديد - بضرورة توفير خدمات الصحة الإنجابية لكل الأفراد من كل الأعمار، تلك التي تشتمل على تدريب الأطفال والمراهقين على استخدام وسائل منع الحمل، وتوفير تلك الوسائل لهم، وإباحة الإجهاض كوسيلة للتخلص من الحمل غير المرغوب فيه، وتقييد سلطة الآباء التربوية نحو الأطفال تحت مسمى (منع العنف ضد الطفل).

وكان ذلك كله يواجَه بالرفض الشديد من مختلف طوائف الشعب وخاصة القانونيين منهم، ولكن كما جرت العادة في تلك الحقبة، كان يتم قمع ذلك الرفض عبر أغلبية الحزب الوطني الجاهزة بالموافقة في مجلس الشعب، ثم تمرير كل التعديلات.

وقد شكل ذلك خطراً داهماً ليس على المجتمع المصري فحسب، بل على الأمة العربية والإسلامية بأسرها؛ وذلك لمكانة مصر الريادية في العالم العربي والإسلامي؛ إذ تتابعت بعده تعديلات مماثلة في دول مجاورة، وهو ما يتهدد الأسرة بالضياع.

ونرى أن سقوط تلك المجالس يُعَد من المكاسب الرائعة التي حققتها ثورات الربيع العربي، وفرصةً لإعادة غربلة وفرز حزمة القوانين المشبوهة التي تم تعديلها وَفْقا للاتفاقيات الدولية المعنية بالمرأة والطفل، في مخالفات واضحة لمبادئ الشريعة الإسلامية التي تحتكم إليها دساتير معظم الدول العربية والإسلامية.

(*) رئيسة اللجنة الإسلامية العالمية للمرأة والطفل بالمجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة.

النُّخبة المثقفة والخيار الصَّعب

د. أحمد بن عبد المحسن العسَّاف(*)
ahmadalassaf@gmail.com
@ahmalassaf

حَفَل عـام ١٤٣٢هـ باندلاع الثَّورات الشَّعبية في البلدان العربية، وتلاها سقوط أربعة زعماء بأربع طرق مختلفة، وقد خلَّفوا تَركة لا يشرف بها وارث من العار والفساد يتجاوز مجموعها مائة وخمسة وعشرين عاماً، وعاشت بلاد العرب فرحة غير مسبوقة حين نفضت عن كاهلها ركام هذه العقود العجاف، وتنفست الصُّعداء بعد زوال القهر والظلم، ومع هلاك أولئك الجلادين خنست أصوات شياطينهم الإنسية. بَيْد أنَّ الجموع لم تنسَ مواقفهم المؤيدة للباطل الساكتة عن الحق.

والمثقفُ لسانُ مجتمعه، وقلبُه النَّابض، وروحُه النَّشيطة، ووجدانُه الحي، وأي اعتلال يُبتلى به المثقفون يعود بالنَّقص على مجتمعاتهم وعلى ما يسود فيها من أفكار وآراء. وأصبح من المتعارَف عليه أنَّ للمثقف رأياً في غالب الأحداث؛ وينتظر المتابعون قول المثقف بلهفة وحرص ثقة بأمانته، أو اغتراراً بتصدُّره وكثرة ظهوره. وبالمقابل اعتاد المثقفون على علوِّ أصواتهم في كل شأن - تقريباً - فلم تخطئ العين ولا الأذن تفاعلهم تعليقاً على أمر أو ابتداءً لآخر. وهذا أمر طبيعي للمثقف المشتغل بالشَّأن العام؛ إذ الكلام هو القاعدة، والسُّكوت استثناء يكاد أن يكون مريباً.

وفي خضم هذه الثَّورات كان لا بد للمثقف من موقف يجهر به، ويخاطب الشَّريحة التي تتابعه وتثق في رأيه وتصدر عنه في مواقفها. وكان الحدث منعطَفاً خطيراً للمثقفين من ناحية، وللجماهير من ناحية أخرى؛ فقد كشفت الأحداث الوجه الحقيقي للمثقفين، فاستبان للجمهور المعدن الأصيل لبعضهم، والمعدن الصدئ لبعضهم الآخر، وطالع الجميع حقيقة أنَّ المثقف يعتريه ما يعتري عامة النَّاس من رغبة ورهبة، وأنَّه يمكن للمجتمع الاستغناء عمَّن كانت ثقافته نفعية ذاتية لا تأبه لقيمة عالية ولا لمصلحة عامة.

وقد تباينت مواقف المثقفين من الثَّورة؛ فمنهم من آثر الصَّمت طلباً للسَّلامة أو انتظاراً للنَّتائج، وبعضهم خالف ما يقتنع به ولجَّ في تأييد الطُّغاة خوفاً من سطوتهم أو طمعاً في مال أو منصب، وفيهم الصَّادق في التَّعبير عن رأيه وما يعتقده الأصلحَ لأمته وبلاده؛ سواء انحاز للنِّظام القائم آنذاك أو للشَّعب الثَّائر. وفضيلة هذا الصِّنف واضحة في البناء على ما يعتقده صواباً حتى وإن كان صوابه خاطئاً ما دام استفرغ وسعه في البحث والسُّؤال، وتحرى الصواب دون مؤثرات ظاهرة أو خفية.

وقد سقط مع هذه الأنظمة البائدة فئام من المثقفين الذين كانت لهم تصريحات وأقوال ممجوجة لا يظهر عليها أثر اعتقاد وإنَّما اللهاث خلف الملذات والوعود، وكم من كاتب كان يبرز للقراء عبر عمود يومي فانكسر العمود على رأسه، وكم من خطيب يعتلي المنابر تأييداً للظلم فهوى به المنبر، وكم

(*) كاتب ويعمل في القطاع الخيري.

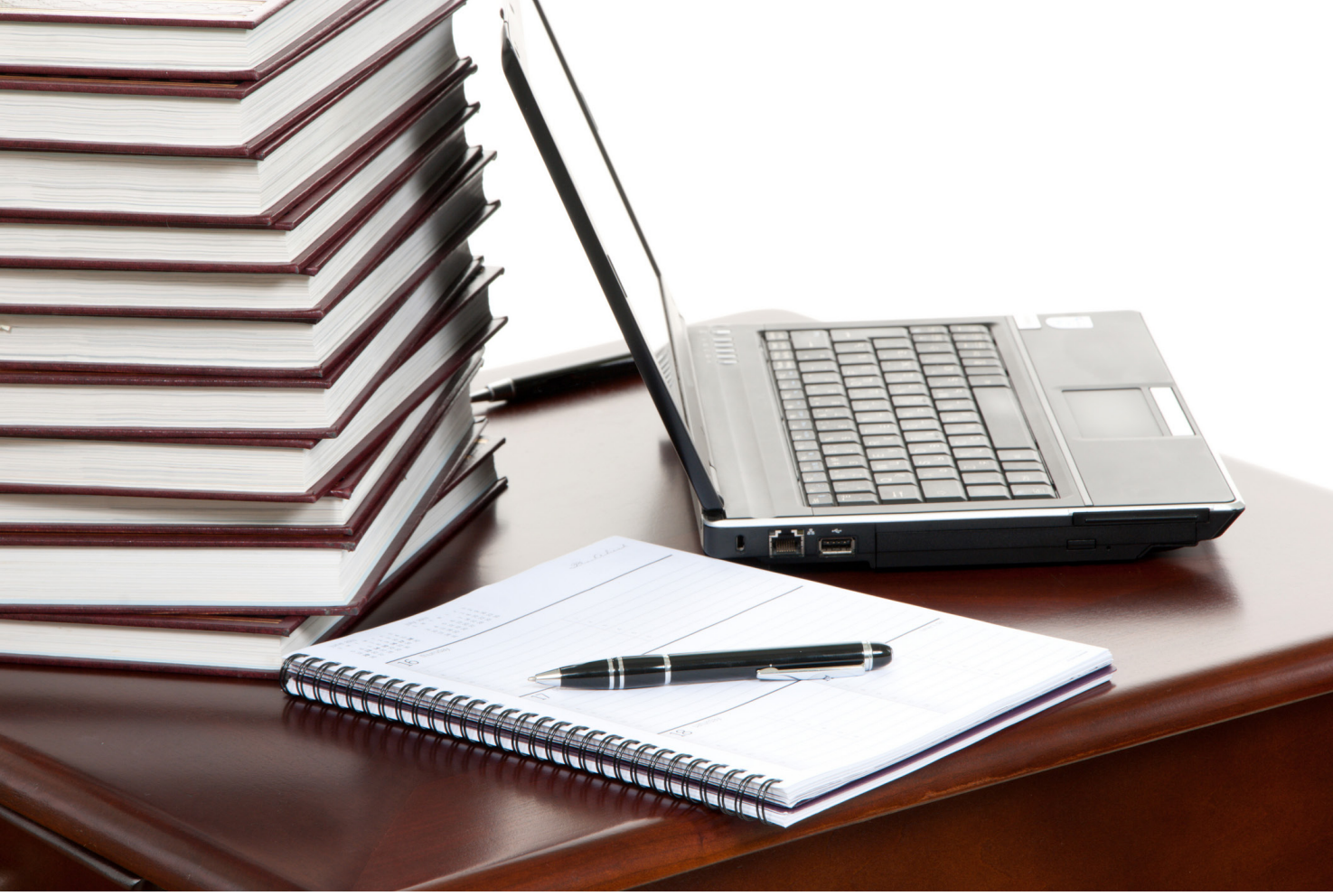

من مفتٍ مال مع هواه فعدل عنه المستمعون، وأما أرباب سافل الأفعال من رقص وطرب واستهزاء، فقد فضحهم الله بسوء رأيهم وقبيح منطوقهم؛ حتى لم يبق لهم مكان في قلوب من كان يظنهم شيئاً يستحق التَّقدير.

ومن الملاحَظ تركيز وسائل الإعلام على مواقف العلماء المؤيدة للأنظمة السَّابقة دون غيرهم من فئات المثقفين، ولا يوجد لهذا التركيز سبب وجيه فليس باقي المثقفين مِن سَقْط المتاع حتى لا يعتب عليهم أحد، والكل مشتركون في تكوين ثقافة الأمة ورسم معالمها. ومن التَّركيز المشبوه ما انصبَّ على العلماء السَّلفيين فقط، مع أنَّ عدداً من الأنظمة استعانت بفتاوى وآراء لعلماء على غير منهج السَّلف، والخطأ مرفوض ممن فاه به أيّاً كان، والعدل يقتضي التَّفريق بين رأي يعتقده صاحبه، وبين رأي يعلنه قائله اتباعاً للهوى ويطوي الصدرَ على خلافه، والإنصاف عزيز.

وتعود أسباب نكسة المثقفين إلى عوامل، منها: أنَّ الثَّورة كانت مفاجئة في اشتعالها وفي نتائجها، إضافة إلى أنَّ هؤلاء المنتكسين لم يعتادوا على التَّفكير الحر المستقل عن تأثير الواقع والمصالح الخاصَّة، وما كانوا يعبِّرون عمَّا يعتقدونه صواباً نتيجة لهذه الآفة، وجعلوا مواهبهم خادمة في بلاط

النِّظام بعَمَهٍ وبلاهة أحياناً، ولا ننسَ أنَّ الخذلان لمن تنكَّب صراط الله المستقيم سُنَّة ماضية وستبقى، وآثارها محفوظة في سجل المثقفين المنحرفين عبر التَّاريخ.

ومع أفول نجم المثقفين المنعزلين عن هموم مجتمعهم وثقافته الحقيقة، تبرز الحاجة إلى مثقف يعيش هموم النَّاس وآلام مجتمعه وآماله، ويحيا مقدِّساً لثقافة المجتمع ومرجعيته الشَّرعية، وها هي الفرصة سانحة للمثقفين الصَّادقين ليكونوا في طليعة المجتمعات التي اختارتهم لقيادتها ورعاية مصالحها وشؤونها، ويا لها من منَّة ونعمة تستحق الشُّكر وصرف الجهود والإمكانات حتى يهنأ المجتمع بنعمة الإسلام في سياسته واقتصاده وثقافته، وذلك فضل الله يهبه لمن شاء من عباده.

ولو أنَّهم أدمنوا على النَّصيحة للمسلمين لصَفَت قلوبهم وأبصروا نور الحق والهدى، ولا ننسَ فوق ذلك أنَّ الخذلان لمن تنكَّب صراط الله المستقيم؛ ولم يسأل ربَّه الهداية لِمَا اختُلف فيه من الحق سنَّة ماضية وستبقى، وآثارها محفوظة في سجل المثقفين المنحرفين عبر التَّاريخ.

أوراد

أهل السنة والجماعة

من القرآن الكريم وصحيح السنة والنبوية

قال شيخ الإسلام: (فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان).

في هذا الكتاب..

الثناء • الصلاة على الحبيب • الاستغفار • السؤالات • الاستعاذات

تفريج الكرب والهم • الرقية الشرعية • أذكار الصباح والمساء

للتوزيع الخيري والمبيعات في المملكة العربية السعودية – اليمن – السودان

دار رسالة البيان للنشر والتوزيع – هاتف : ٤٥٤٦٨٦٨ – تحويلة ٥٠٢/٥٠٠ – جوال : ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

المنطقة الغربية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ – المنطقة الجنوبية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨ – القصيم : ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

الشرقية : ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ – مكة : ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠

مجلة البيان وجميع إصداراتها المتنوعة متوفرة
بمتجر آبل الإلكتروني لأجهزة آيباد وآيفون.
(فقط عليك تحميل تطبيق البيان)

هدية لجمهورنا الكريم، عدد المجلة لشهر صفر 1433هـ

مجاناً على المتجر

www.albayan.co.uk